

السيرة النبوية

محمد رسول الله
والذي معه

غزوة الخندق

عبد الحميد جودة السحار

دار مصر للطباعة

سعيد جودة السحار وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله
وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما ﴾ من المؤمنين رجال
صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما
بدلوا تبديلا ﴾ ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن
شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفورا رحيما ﴾ ورد الله الذين كفروا
بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله فوينا عزيزا
﴿ وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في
قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا ﴾ وأورثكم أرضهم
وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها وكان الله على كل شيء
قديرا ﴿ .

(قرآن كريم)

كان رسول الله ﷺ — قد ذهب إلى بني النضير في نفر من أصحابه ، وكان بنو النضير قد أضمرُوا الغدر به وهموا بإلقاء صخرة عليه وقالوا فيما بينهم :

— نقتله ونأخذ أصحابه أسارى إلى مكة فنبيعهم من فريش .
 وبلغ رسول الله ﷺ — ما هموا به فرجع ، فبينما بنو النضير يتهاونون لإلقاء الحجر إذ جاء رجل من اليهود من المدينة فقال لهم :

— ما تريدون ؟

— قتل محمد وأسر الدين معه .

— أين محمد ؟

— هذا محمد .

— والله لقد تركت محمدا داخل المدينة .

فأسقط في أيديهم وقالوا :

— قد أخبر بأمرنا .

فأرسل إليهم محمد بن مسلمة أن اخرجوا من بلدي فلا تسكنوا بها ، فقد هممت بما هممت به من الغدر .

فسكنوا ولم يقولوا حرفا ، قال :

— ويقول لكم قد أجلتكم عشرا ، فمن روى بعد ذلك ضربت عنقه .

نقض يهود بنى النضير العهد وخفروا الذمة بما يتوا من غدر لرسول الله ﷺ ، فأصدر عليه السلام حكمه عليهم بالخلاء من جواره ، فتشاوروا مع رأس النفاق عبد الله بن أبي بن سلول ، وانتهى قرارهم إلى العصيان والتأهب للحرب فتجهزوا وتحصنوا في حصونهم ، وأرسل زعيمهم حُيَ ابن أخطب إلى الرسول قائلا :

— إنا لا نخرج من ديارنا فاصنع ما بدا لك .

فسار إليهم جيش المسلمين وحاصروهم حتى أجهدهم الحصار ، فأرسلوا من يقول لرسول الله ﷺ :
— نحن نخرج من المدينة .

فأنزلهم على أن يخرجوا منها بنفوسهم وذرائعهم ، وأن يحملوا من متاعهم وأموالهم ما تستطيع الإبل حمله عدا أسلحتهم فلا يأخذون منها شيئا .

وخرجوا إلى خيبر ومنهم من سار إلى الشام ، وكان من أشرافهم ممن سار إلى خيبر سلام بن أبي الحقيق وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق وحسي بن أخطب ، فقال رسول الله ﷺ :

— هؤلاء في قومهم بمنزلة بنى المغيرة في قريش .

وكانت بنو النضير صفيا لرسول الله ﷺ ، خالصة له حُبا لنوائبه ، لم يَغْمَسْها ولم يُسْهِم منها لأحد ، إلا أنه أعطى ناسا من أصحابه ووسع في الناس ، فكان ممن أعطاه رسول الله ﷺ — من المهاجرين أبو بكر الصديق أعطاه بئر حجر ، وعمر بن الخطاب بئر جِرم ، وعبد الرحمن بن عوف سِوالة ، وصهيب بن سنان الصراطة ، والزبير بن العوام وأبو سلمة بن عبد الأسد البُويلَة ، وسهل ابن حنيفة وأبو دجانة مالا يقال

له مال ابن حرشة . ولما أجلى رسول الله — ﷺ — بنى النضير قال :
— امضوا فإن ذلك أول الحشر وأنا على الأثر .

واستقر أشراف بنى النضير وساداتهم في خيبر وفي قلوبهم مرض مما نزل
بهم على يدى رسول الله — ﷺ — ، فما استطاعوا أن ينسوا يوما أنه
أخرجهم من ديارهم ، ففكروا في أن يخرجوا إلى قريش وإلى قبائل العرب
ليحزبوههم على رسول الله — ﷺ — . ويزينوا لهم قتال المسلمين واستئصال
شأنهم قبل أن تشتد سواعدهم ويضعوا أيديهم على بلاد العرب جميعا .
فانطلق نفر من أشرافهم ووجوههم منهم سلام بن أبى الحقيق وحبي بن
أخطب وكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق وهوذة بن قيس الوائلى وأبو عمار
الوائلى في نفر من بنى النضير ونفر من بنى وائل حتى قدموا مكة ، فهرعت
قريش لاستقبالهم والخفاوة بهم . وفي دار الندوة دارت المفاوضات ودعا
أشراف بنى النضير سادات قريش إلى حرب رسول الله — ﷺ —
وقالوا :

— إنا ستكون معكم عليه حتى نستأصله .

عداوة بدت من أفواههم وما تخفى قلوبهم أكبر ، ودعوة محبة إلى
قلوب أعداء محمد — ﷺ — من وجوه قريش وساداتها ، ولكن ذلك
الدين الذى جاء به ابن عبد الله كان يشغل عقول القوم فلم يلبوا الدعوة إلى
الحرب دون نقاش ، بل قالوا :

— يا معشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه
نحن ومحمد ، أفديننا خير أم دينه ؟

كان أشراف اليهود ووجوههم يرون رأى العين الأصنام التى كانت
حول الحرم ، وكانوا يعلمون أن جوف أول بيت وضع للناس قد كدست

فيه تماثيل آلهة كل شعوب الأرض وصار مخزنا للشرك بعد أن كان منارة للتوحيد ، وعلى الرغم من كل ذلك قال أهل الكتاب الأول دون عجل : — بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أولى بالحق منه .

يا للسخرية ! أصحاب الكتاب الأول وحملوا رسالة التوحيد يزعمون أن الوثنية خير من دعوة تدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، إنها ضلالة تستحق اللعن وقد لعنهم الله من فوق سبع سموات : ﴿ ألم تر إلى الذين أتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ﴾ أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا * أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نفيرا * أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما * فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه وكفى بجهنم سعيرا ﴿ (١) .

وسر قريش قول اليهود ودب النشاط فيهم وراحوا يتأهبون للحرب ، فاجتمعوا في دار الندوة وراح حكيم بن حزام وأبو سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وبنو المغيرة يدهرون للقضاء على نبي الإسلام والمسلمين .

وخرج كنانة بن أبي الحقيق يسعى في بنى غطفان ويحرضهم على قتال رسول الله — ﷺ — على أن لهم نصف تمر خيبر ، وأعلمهم أن قريشا قد بايعوه على ذلك فأجابه عيينة بن حصن الفزاري وكتبوا إلى حلفائهم من بنى أسد فأقبل إليهم طليحة بن أسد فيمن أطاعه .

وخرج من بطون قريش خمسون رجلا وتحالفوا وقد ألصقوا أكبادهم

بالكعبة معلقين بأستارها ، أن لا يخذل بعضهم بعضا ويكونوا كلهم يدا واحدة على محمد — ﷺ .

وعقد اللواء في دار الندوة وحمله عثمان بن طلحة بن أبي طلحة وقد ملأ الفيظ قلبه ، فأبوه طلحة قتل يوم أحد ، وكذا عماء عثمان بن أبي طلحة وأبو سعيد بن أبي طلحة ، وإخوته الأربعة وهم مسافع بن طلحة والحارث ابن طلحة وكلاب بن طلحة والجلال بن طلحة ، وكان يتحرق شوقا للقاء المسلمين ليثأر لأهله ، وبات يتمنى أن يقتل على بن أبي طالب الذي أذاق الأعزة المنون .

وخرجت قريش يقودهم أبو سفيان بن حرب وقد جمعوا أحايishهم ومن تبعهم من العرب ، وكانوا أربعة آلاف ومعهم ثلاثمائة فرس وألف بعير . انطلقوا حتى نزلوا مر الظهران فجاءهم من أجابهم من بنى سليم وهم سبعمائة يقودهم سفيان بن عبد شمس حليف حرب بن أمية . وخرجت بنو أسد يقودهم طليحة بن خويلد الأسدي ، وخرجت غطفان وفزارة معهما ألف بعير يقودهم عيينة بن حصن بن حذيفة ، وخرجت بنو مرة وهم أربعمائة يقودهم الحارث بن عوف بن أبي حارثة المري ، وخرجت أشجع وهم أربعمائة يقودهم مسعر بن ربيعة بن ثوير بن طريف ، وخرج معهم غيرهم .

وكانت الأحزاب عشرة آلاف وهم ثلاثة عساكر وملاك أمرها لأبي سفيان . وبدأ الزحف إلى المدينة وما من أحد من الخارجين يشك في أنها جولة واحدة ثم يصبح الإسلام والمسلمون كأمس الدابر ، فما كان لهم أن يصمدوا لصناديد قريش وفرسان العرب المتعطشين للدماء .

كانت خزاعة تميل إلى رسول الله — ﷺ — وكان مسلمهم وكافرهم

يحبه عليه السلام . فلما تهيأت قريش للخروج انطلق ركب من خزاعة قاصدا المدينة ، وراح الرجال يُغلون السير حتى بلغوا مسجد الرسول في أربع ليال فدخلوا عليه وأخبروه خبر سادات بنى النضير ودعوتهم قريشا وقبائل العرب لحرب رسول الله — ﷺ ، وخروج أبى سفيان لاستئصال الإسلام والمسلمين . فلما سمع رسول الله — ﷺ — دعا الناس وأخبرهم خبر عندهم وقال لهم :

— هل نبرز من المدينة أو نكون فيها ؟

وأسقط في أهدى الناس ، إنهم أشأورا عليه بالخروج يوم أحد وأكرهوه عليه فكانت الهزيمة التي منوا بها . وتغنى الأنصار والمهاجرون لو أن الله أوحى إلى رسوله بما يفعله وجحافل قريش والعرب يتقدمون ليطعنوا الإسلام طعنة قاضية . ولم تذهب نفوس المؤمنين شعاعا فقد كانوا على ثقة بأن الله ناصر من ينصره وأن الله موهن كيد الكافرين .

عشرة آلاف مقاتل يزحفون وقلوبهم تفيض بالحق على نبي الإسلام والمسلمين ، فقد هجم المسلمون على غطفان حلفاء قريش لما أرادوا أن يتحركوا للثأر لسادات قريش الذين جادلوا يوم بدر ، ومشوا إلى بنى سليم وأجبروهم على أن يتحصنوا في الدور ، وطردهوا يهود بنى النضير لما أضمرُوا من عداوة وغدر ، رجال ينشدون الخلاص من المتاعب التي أطلت عليهم من المدينة بعد أن هاجر إليها محمد وصحبه وألف بالدين الجديد بين قلوب عاشت على مر الزمن متنافرة قد ألقيت بينهم العداوة والبغضاء ! وثلاثمائة فرس يمتطيها فرسان تحت إمرة خالد بن الوليد قد عزموا على أن يتألوا نصرا مثل ذلك النصر الذي أحرزوه يوم أحد ، وآلاف الدروع تعكس أشعة الشمس فتملأ قلب أبى سفيان أملا بالنصر المبين .

عرف محمد — ﷺ — فضل الفرسان في المعارك فأنشأ مراكز للإكثار من نسل الخيول ، بيد أن المدة بين أحد وبين هذه المعركة لم تكن كافية لتمده بكل ما يحتاج إليه جيش المسلمين من جياذ . إنه يمتلك خمسين فرسا وما كان يمتلك يوم أحد غير فرسين ، ولكن ماذا يفعل خمسون فرسا من المؤمنين أمام ثلثمائة فارس من صناديد قريش وغطفان وبنى سليم ويهود بنى النضير ؟ .

وكان عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين في المدينة يرقب فرصته ليلسدد إلى قلب الإسلام ضربة قاضية . ترى لو خرج رسول الله — ﷺ — — لحرب الأحزاب الذين تعاهدوا على استئصال المسلمين أبغض ابن أبي المنافقون يشاهدون المعركة دون أن يقطعوا المسلمين من الخلف ؟ ويهود بنى قريظة الذين بقوا في المدينة والذين عاهدوا رسول الله — ﷺ — على أن يشتركوا معه في الدفاع عن المدينة ، أيوفون بعهدهم ويقومون بإخلاص في الدفاع عن المدينة حتى لو ساءت الأمور ، وقد قرر في أذهانهم أن نبي الإسلام قد طرد من جواره بنى قينقاع وبنى النضير أقوى قبائل يهود ؟

والمسلمون الذين ذاقوا طعم الهزيمة في أحد ، أكانوا قادرين على أن يستعيدوا الثقة في أنفسهم وأن يواجهوا ثلاثة آلاف مقاتل منهم عشرة آلاف من صناديد العرب الذين يأكل الحقد أكبادهم ؟

كان الخروج من المدينة للقاء هذه القوة الهائلة التي لم تكن أرض العرب قد عرفتها من قبل مخاطرة لا تحمد مغبتها ، وكان الواجب هو الدفاع عن المدينة ، وما كان ذلك أمرا سهلا ، فدور المدينة ملتصقة بعضها ببعض إلى مسافة طويلة فهي سور منيع ، والحدود الشمالية يحرسها حائط جرف

منحدر ، وبنو قريظة آخر قبيلة يهودية باقية في المدينة تحرس مؤخرة المدينة فهم ينزلون في حصن منيع ينبغي أن يدرك قبل أن يستطيع عدو اجتيازه . وكانت المعضلة المباشرة هي جنوب المدينة المكشوف ، والجنوب الشرق وهو الجانب الذي تنطلق فيه الطرق إلى حدائق المدينة ، وما أيسر أن يحترق العدو هذا الجزء وأن يتدفق منه إلى المدينة إذا ما شن عليه هجوما شديدا فتتأثر في لحظة كل التحصينات الأخرى !

وفكر المسلمون وأجهدوا عقولهم لرسم خطة الدفاع عن المدينة فأعيتهم الحيل ، فلم يستطيع خمسون فارسا أن يصدوا هجوم ثلاثمائة فارس ، ولن يقدر ثلاثة آلاف مقاتل أن يوقفوا زحف عشرة آلاف مجهزين أحسن تجهيز .

وكان سلمان الفارسي في المسلمين يفكر مع المفكرين ، وكان في قرارة نفسه راضيا متفرحا في الله فقد عاونه رسول الله ﷺ — والمسلمون على أن يتحرروا من رقه فصار حرا طليقا كما كان في بيت أبيه قبل أن يخرج للبحث عن الحقيقة . وأضاء الله ذهنه بالفكرة التي أصنت كل الرعوس ، فتقدم إلى رسول الله ﷺ — فقال :

— يا رسول الله إنا كنا بأرض فارس إذا تخوفنا الخيل خندقنا علينا . اقترح سلمان الفارسي حفر خندق عميق واسع على طول الجهة المفتوحة من المدينة ، وكان ذلك شيئا جديدا على العرب فقد اعتادوا أن يبرز رجل لرجل وأن يقاتلوا يدا ليد ؛ أما أن يضربوا حول المدينة خندقا فما عرفوا ذلك من قبل . وقد كره بعض المسلمين الرأي وحسوه ضربا من الحبن ، لكن رسول الله ﷺ — قبله فاقنع الناس به . وركب رسول الله ﷺ — فرسا له ومعه عدة من المهاجرين

والأنصار وحطط مكان الخندق ، واستعار المسلمون من بنى قريظة آلة كثيرة من مساحي وكرارين ومكائل وراحوا يعملون في حفر الخندق في جد وسلمان الفارسي يقدم إليهم نصائحه ، فقد كان عليهم أن ينتهوا منه قبل أن يقدم إليهم أبو سفيان بن حرب والأحزاب الذين تعاهدوا على استئصال الإسلام والمسلمين .

وراح المنافقون يحاولون أن يشعلوا الناس عن رسول الله ﷺ ، فجعلوا يقولون لإخوانهم :

— ما محمد وأصحابه إلا أكلة^(١) رأس ، ولو كانوا لحما لانتهمهم أبو سفيان وأصحابه ، دعوا هذا الرجل فإنه هالك .
وأرسل اليهود إلى المنافقين وقالوا :

— ما الذي يعملكم على قتل أنفسكم بيد أبي سفيان ومن معه ؟ فإنهم إن قدروا عليكم هذه المرة لم يستبقوا منكم أحدا ، وإنا لنشفق عليكم . أنعم إخواننا وجيراننا هلم إلينا .

فأقبل عبد الله بن أبي وأصحابه على المؤمنين يعوقونهم ويخوفونهم بأبي سفيان ومن معه وقالوا :

— ما ترجون من محمد ؟ فوالله ما يرقدنا (يعيننا) بخير وما عده خير .. ما هو إلا أن يقتلنا ههنا .. انطلقوا إلى إخواننا وأصحابنا .

وطلق عبد الله بن أبي والمنافقون يزينون الانطلاق إلى اليهود والدخول معهم في حصونهم وترك رسول الله ﷺ — وأصحابه للأحزاب ليلقوا مصيرهم ، فلم يزد المؤمنون بقول المنافقين إلا إيمانا واحتسابا .

(١) أي هم قليل يشبههم رأس واحد

استخلف — عليه السلام — على المدينة عبد الله بن أم مكتوم ، وخرج رسول الله عليه السلام بالمسلمين حتى عسكر بهم إلى سفح سلع وهو جبل يسوق المدينة وجعل سلعا خلف ظهره ، وغدا المسلمون يعملون في حفر الخندق وراح عليه السلام يعمل فيه ترغيا للمسلمين في الأجر ويأمرهم بالجد ويعددهم النصر إن هم صبروا .

وحمل عليه السلام التراب على ظهره ، وجعل المسلمون يادرون قدوم العدو ، وكان من جملة من يعمل في الخندق جُعيل فقير — عليه السلام — اسمه وسماء عمرا فجعل المسلمون يرتجزون ويقولون :

سماء من بعد جُعيل عمرا

فيقول عليه السلام :

— عمرا .

فيقولون :

وكان للباس يوما ظهرا

فيقول عليه السلام :

— ظهرا .

وظل عليه السلام ينقل التراب وقد وارى الغبار جلد بطنه ، فراح يتمثل بقول ابن رواحة ويقول :

ولا تصدقنا ولا صلينا	لا هم لولا أنت ما اهتدينا
وثبت الأقدام إذ لاقينا	فأنزلن سكينه علينا

والمشركون قد بغوا عليا وإن أرادوا فتنة أيينا
ولو عبدنا غيره شقيبا يا حذا ربا وحث ديننا

وحدوا في العمل ودأبوا ، وأبطأ عن رسول الله ﷺ — وعن
المسلمين في ذلك العمل رجال من المنافقين ، وجعلوا يورثون بالضعف عن
العمل ويتسللون إلى أهلهم بغير إذن رسول الله ﷺ . وجعل الرجل
من المسلمين إذا نابتة النائية من الحاجة ذكرها لرسول الله ﷺ —
وامتأذنه ، فبدأ له فإذا قضى حاجته رجع إلى عمله في الخندق ، فأنزل
الله تعالى في أولئك من المؤمنين قوله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله
ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنه إن الذين
يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فإذا استأذنتك لبعض
شأنهم فآذن لم شئت منهم واستعفر لهم الله إن الله غفور رحيم ﴾ (١) .
ثم قال تعالى في المنافقين : ﴿ لا تجعلوا دعاء الرسول يتكم كدعاء
بعضكم بعضا قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لو ادا ﴾ (٢) فليحذر الذين
يحالفون عن أمره أن تصيبهم فتة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ (٣) .
وكان سلمان رجلا قويا يعمل عمل عشرة رجال في الخندق ، فكان
يحفر في كل يوم - خمسة أذرع في عمق خمسة أذرع ، فتنافس فيه المهاجرون
والأنصار فقال المهاجرون :

— سلمان ما .

وقالت الأنصار :

(١) البور ٦١ (٢) الزلزال . الاستار بالشئ عذ الغرب .

(٣) البور ٦٣ .

— سلمان منا .

فقال رسول الله — ﷺ :

— سلمان منا أهل البيت .

وارتفعت منزلة سلمان بعد رقه فالمصطفى قد عده من أهل بيته .
وكان الغلمان بأجمعهم يعملون في حفر الخندق من بلع ومن لم يبلغ ،
وكان بين الغلمان عبد الله بن عمر بن الخطاب وزيد بن ثابت وأبو سعيد
الحدري والبراء بن عازب ، وكان زيد بن ثابت ممن ينقل التراب فقال
رسول الله في حقّه :

— أما إنه نعم الغلام .

وعليه عينه فقام في الخندق فأخذ عمارة بن حزم سلاحه وهو نائم ،
فلما قام فرز على سلاحه فقال له — ﷺ :
— يا بار قد نمت حتى ذهب سلاحك .

ثم قال :

— من له علم بسلاح هذا الغلام ؟

فقال عمارة :

— أنا يا رسول الله وهو عندي .

— رده عليه .

ونهى أن يروى المسلم ويؤخذ متاعه لاعبا .

واشتد على الصحابة كدية (محل صلب) فشكوا ذلك لرسول الله —
ﷺ ، فأخذ المعول وصرب فصارت رملا سائلا لا ترد فأسا ولا
مسحاة .

كانت الأهمام عشرة وكان المسلمون يعملون في الخندق دون ملل ،

فكان أبو بكر وعمر يحملان التراب في ثوبيهما إذا لم يجدا مكانا ، وكان الرجال يدأبون في العمل طوال النهار حتى إذا ما جن الليل استراحوا .
وضربت قبة من آدم لرسول الله ﷺ ، وكان ﷺ — يعقب فيها بين ثلاث من نسائه عائشة وأم سلمة وزينب بنت جحش فتكون عائشة عنده أباما . وكان طعام القوم أيسره . وكانت كل زوجة تحاول أن تبعث إلى زوجها بما يقوم به أوده ، فدعت عمرة بنت رواحة ابنة لها فأعطتها حفنة من تمر في ثوبها ثم قالت :

— أي بنية اذهبي إلى أبيك وخالك عبد الله بن رواحة بفدائهما .
فأخذتها وانطلقت بها إلى أبيها بشير بن سعد وخالها عبد الله ، فمرت برسول الله ﷺ ، وهي تلمس أباهما وخالها فقال :
— تعالى يا بنية ، ما هذا معك ؟
— يا رسول الله هذا تمر بعثتني به أمي إلى أبي بشير بن سعد وخالي عبد الله بن رواحة يتفديانه .
— هاتيه .

فصبته في كفي رسول الله ﷺ ، ثم أمر بثوب فبسط له ، ثم دحا بالتمر عليه فتدد فوق الثوب ، ثم قال لإنسان عنده :
— اصرح لي أهل الخندق أن هلم إلى الغداء .
فاجتمع أصحاب الخندق عليه فجعلوا يأكلون منه باسم الله وعلى بركة الله .

ومرت الأيام والمسلمون يحفرون والعرق يتفصد منهم والمافسون يتظاهرون بالعمل ولا يعملون ، ويهود بنى قريظة في الحصون يتأهبون ليفوا بمعهدهم لرسول الله عليه السلام أن يدافعوا معه عن المدينة إذا ما دهمها

خطر خارجي .
وعلى مر الأيام بدأ يظهر خندق عميق واسع أمام الجهة المفتوحة من
المدينة كان من المتعذر على فرس أن يتخطاه ، وراح سلمان يضرب
الأرض في قوة وعزم وإذا بكدية تشد عليه ، ورأى — عليه السلام — سلمان
وقد عجز عن تحطيم الكدية فنزل إليه وأخذ المحول من يده وقال :
— بسم الله .

وضرب صربة فكسر ثلثها وبرقت برقة فخرج نور من قبل اليمن
كالصباح في جوف ليل مظلم ، فكبر رسول الله — عليه السلام — وقال :
— أعطيت مفاتيح اليمن ، إني لأبصر أبواب صماء من مكاني الساعة
كأنها أبواب الكلاب .

ثم ضرب الثانية فقطع ثلثا آخر ، فخرج نور من قبل الروم فكبر رسول
الله — عليه السلام — وقال :

— أعطيت مفاتيح الشام ، والله إني لأبصر قصورها .
ثم ضرب الثالثة فقطع بقية الحجر ويرق برقة فكبر وقال :
— أعطيت مفاتيح فارس ، والله إني لأبصر قصور الحيرة ومدائن
كسرى كأنها أبواب الكلاب من مكاني هذا .

وراح جمع من المسافقين يتبادلون النظرات في استخفاف ، وقال معتب
ابن قشير معبرا عما يدور في حلداهم :

— ألا تعجبون من محمد ؟ يمتلكم ويهدم الباطل ويخبركم أنه يبصر من
يثرّب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنها تفتح لكم ، وأنتم إنما تحفرون
الخندق من الفرق^(١) لا تستطيعون أن تبرزوا .

وتصيب العرق من الأجسام ونحوت البعلون، وتذكر جابر بن عبد الله أن عنده شوية غير جد مينة فقال في نفسه :
— والله لو صنعتها لرسول الله — ﷺ .

فأمر امرأته فطحنتم لهم شيئا من شعر فصنعت لهم منه خبزا ، وذبحت تلك الشاة فشووها لرسول الله — ﷺ ، فلما أمسوا وأراد رسول الله الانصراف من الخندق قال جابر :

— يا رسول الله إلى قد صنعت لك شوية كانت عندنا وصنعنا معها شيئا من خبز هذا الشعر ، فأحب أن تنصرف معي إلى منزلي .
وإنما يريد جابر أن ينصرف معه رسول الله وحده ، ولكن رسول الله ﷺ — ما كان يؤثر نفسه بشيء دون سائر أصحابه فقال لجابر :

— نعم .

ثم أمر صارخا فصرخ أن انصرفوا مع رسول الله — ﷺ — إلى بيت جابر بن عبد الله .

فقال جابر في خوف :

— إنا لله وإنا إليه راجعون .

فأقبل رسول الله ﷺ ، وأقبل الناس معه ، فجلس وأخرج جابر الشوية إليه فأكل رسول الله عليه السلام وأكلوا باسم الله وعلى بركة الله .
وانقضى خمسة عشر يوما والرجال والعلماء يعملون في حمر الخندق حتى انتهى الحفر ، فأمر عليه السلام من لم يبلغ خمس عشرة سنة أن يرجع إلى أهله وأجاز من بلغ خمس عشرة سنة ؛ فممن أجازهم عبد الله بن عمر وزيد بن ثابت وأبو سعيد الخدري والبراء بن عازب . ولم يكن حصن أحسن من حصن بني حارثة فجعل النبي — ﷺ — النساء والعبيان

والفرارى فيه .

وأرسل عليه السلام سُلَيْمًا وَسُفْيَانَ بْنِ عَوْفٍ طَلِيعَةً لِلْأَحْزَابِ فَرَأَاهَا جَيْشًا يَكْسُو وَجْهَ الصَّحْرَاءِ بِتَحْرُكٍ فِي بَطْءٍ شَدِيدٍ مِنْ كَثْرَةِ عَدَدِهِ وَثَقُلَ مَا يَرْتَدِي رِجَالَهُ مِنْ دُرُوعٍ ، إِنَّهُ جَيْشٌ لَا قَبْلَ لِلْمُسْلِمِينَ بِهِ . وَوَقَفَ الرَّجُلَانِ مَشْهُوهِينَ حَتَّى وَقَعَا فِي الْأَسْرِ فَقَتَلَهُمَا أَبُو سُفْيَانَ بِنَ حَرْبٍ وَقَدْ اسْتَبْشَرَ خَيْرًا وَمَا خَافَهُ أَدْنَى شَكٍّ فِي الْإِنْتِصَارِ ، فَمَا كَانَ لِلْمُسْلِمِينَ قَبْلَ بَقْرِيشَ وَعُظْفَانَ وَبَنِي سَلِيمٍ وَمَنْ انْضَمَّ إِلَيْهِمْ فِي زَحْفِهِمْ مِنَ الْأَعْرَابِ . وَأَعْطَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لُؤَاءَ الْمُهَاجِرِينَ لِزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ وَلُؤَاءَ الْأَنْصَارِ لِسَعْدِ ابْنِ عُبَادَةَ ، وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ لثَمَانَ مَضِينَ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ وَعَسْكَرَ بَيْنَ مَعَا إِلَى سَفْحِ سَلْعٍ ، وَأَقْبَلَتْ قَرِيشٌ وَمَنْ مَعَهَا تَحْدُوهُمْ الْأُمَالُ الْعَرِيضَةُ فَلَمَّا رَأَوْا الْخَدَقَ ارْبَدَتْ وَجُوهُهُمْ وَانْقَبَضَتْ أَفْعَدَتُهُمْ وَانْهَارَتْ قُصُورُ الْأُمَانِ الَّتِي بُوِهَافِ الْمَوَاءِ وَقَالُوا فِي غَيْظٍ :

— وَاللَّهِ إِنْ هَذِهِ لِمَكِيدَةٌ مَا كَانَتْ الْعَرَبُ تَكِيدُهَا !

وَكَانَ أَكْثَرُهُمْ غَيْظًا حَيَّى بْنِ أَعْطَبٍ فَهُوَ الَّذِي خَرَجَ بِالْمُوتَوَرِينَ مِنْ بَنِي النَّضِيرِ لِيَحْرُضَ الْمُوتَوَرِينَ مِنْ قَرِيشَ وَعُظْفَانَ وَبَنِي سَلِيمٍ وَقِبَائِلَ الْعَرَبِ وَيَحْضَهُمْ عَلَى قِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَكَانَ طَوَالَ الرَّحْلَةِ يَسْتَشْعِرُ رَاحَةً بَلْ إِنَّهُ ذَاقَ بُوْهُمَهُ لَذَّةَ الْإِنْتِصَارِ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ ، وَإِذَا بِجَمِيعِ أَحْلَامِهِ تَنَاهَرَ فَجْأَةً أَمَامَ عَمَقِ الْخَدَقِ الَّذِي أَصْبَحَ يَفْصِلُ بَيْنَ جَيْشِ الْأَحْزَابِ وَجَيْشِ الْإِسْلَامِ .

أَتَذْهَبُ كُلَّ الْجُهُودِ الَّتِي بَذَلَهَا هَبَاءٌ ؟ ! وَهَذِهِ الْجِيُوشُ الَّتِي أَغْرَاهَا بِدَهَائِهِ وَدَهَاءِ الْيَهُودِ عَلَى أَنْ تَتَحَرَّكَ لِلْإِنْتِقَامِ أَتَعُودُ مِنْ حَيْثُ جَاءَتْ دُونَ أَنْ تَتَأَرَّ مِنْ عَدُوِّهِ وَعَدُوِّهِمْ ؟ إِنْ فِي الْمَدِينَةِ يَهُودًا قَدْ عَاهَدُوا مُحَمَّدًا عَلَى أَنْ

يقوموا بالدفاع معه عن مدينتهم ، فلو أمكنه أن يفرهم على نقض عهدهم
فإن تحصين المدينة كله سيهار وسيصبح القضاء على المسلمين ونبي
الإسلام أمرا لا مفر منه .

إنه قادر على أن يفرى بى قريظة على نقض عهدهم . سيقنعهم أن نبي
الإسلام صياد اليهود فإن كان سيستمين بهم اليوم فلن يكون مصيرهم إلا
مصير بنى قينقاع وبنى النضير غدا ؛ سيطردهم من جواره شر طردة .
واستراح حبيى أحطب إلى أفكاره بعض الشيء فقد عاوده الأمل بعد أن
كاد أن يقبر فى ذلك الخندق العميق الذى ضربه المسلمون حول المدينة .

ونزلت قريش بمجمع الأسيال ونزل عينة فى عطفان ومن معهم من
أهل نجد إلى جانب أحد ، وسار المشركون يتأهبون فيغدو أبو سفيان و
أصحابه يوما ويعتدو نخالد بن الوليد يوما ويعتدو عمرو بن العاص يوما
ويغدو هبيرة بن أبى وهب يوما ويعتدو عكرمة بن أبى جهل يوما ويغدو
صبرار بن الخطاب يوما ، فلا يزالون يحيلون حيلهم ويفترقون مسرة
ويجتمعون أخرى ويتأوشون أصحاب رسول الله ﷺ — ولم يكن بينهم
حرب إلا الرمي بالنبل والحصا .

وكان عبادة بن بشر على حرس قبة رسول الله ﷺ — مع غيره من
الأنصار يحرسونه كل ليلة ، وكان النساء والصبيان والذراري فى الحصن
وقد قال عليه السلام للنساء إن جاءكن أحد فأمس بالسيف ، فجاءهن
رحل من بى ثعلبة بن سعد يقال له عبدان أحد بنى جحاش ، على فرس
حتى كان فى أصل الحصن ثم جعل يقول للنساء :
— انزلن إلى خير لكن .

فحركن السيف فأبصره أصحاب رسول الله ﷺ — ، فأسرع إلى

حصص بنى حارثة قوم فيهم رجل من بنى حارثة يقال له ظفر بن رافع ،
وحاول نجدان أن يختبئ أو يلوذ بالفرار بيد أن ظفر رآه فقال :
— يا نجدان ابرز .

فبرز إليه فحمل عليه ظفر فقتله .

واستبشر النساء والصبيان والذراري بقتل نجدان ، ولكن جرأة ذلك
الرجل الثعلبي كانت لإيذانا بأن الذراري لم يكونوا في مأمن من العدر
والخيانة وأن الأمر قد أصبح يستوجب أن يقوم رجال بحراستهم .

وراحت الأهام تمر والمشركون في غيظ شديد فالخندق يحول بينهم
وبين المسلمين ، وبلغ الحق غايته بهوغل بن عبد الله بن المغيرة فأقل على
فرس ليوثبه الخندق فوقع فيه مع فرسه ، فراح المسلمون يرمونه بالحجارة
فجعل يقول :

— قتلة أحسن من هذه يا معشر العرب !

فنزل إليه على بن أبي طالب فضربه بالسيف فقطعه نصفين ، وارتح
المكان بالتكبير . وكرر ذلك على المشركين فأرسلوا إلى رسول الله —
ﷺ — أن أرسل إلينا بجسده ونعطيك اثني عشر ألفا .

فقال رسول الله — ﷺ — :

— لا خير في جسده ولا في ثمنه ، ادفعوه إليهم فإنه خبيث الجسد خبيث
الدية .

كان حُبي بن أخطب سيد بني النضير يقول لقريش في مسيره معهم :
 — إن قومي بني قريظة معكم وهم أهل حلقة (سلاح) وافرة ، وهم
 سبعمائة مقاتل وخمسون مقاتلا .

فلما رأى الأحزاب الخندق وتيقنوا أن لن يبالوا من محمد — ﷺ —
 والذين معه إلا إذا خان يهود بني قريظة العهد الذي كان بينهم وبين
 المسلمين وطمعوا نبي الإسلام ومن معه من الخلف فيسروا دخول
 المتورين ليقتضوا على ثورة المدينة قضاء مبرما ، عدئذ قال أبو سفيان
 لسيد بني النضير :

— أئت قومك حتى يقرضوا العهد الذي بينهم وبين محمد .
 فخرج حبي حتى أتى كعب بن أسد القرظي سيد بني قريظة وولى
 عهدهم الذي عاهدهم عليه رسول الله — ﷺ ، فذق عليه باب حصنه
 فأبى أن يفتح له ، وألح عليه في ذلك فقال له :
 — ويحك يا حبي إنك امرؤ مشعوم ! وإني قد عاهدت محمدا فلمست
 بنافض ما بيني وبينه ، ولم أر فيه إلا وفاء وصدقا .

— ويحك اتح لي أكلمك .

— ما أنا بفاعل .

فعاظه فقال له :

— والله ما أعلقت دوى إلا تخوفا على حشيشتك (الدشيش) أن أكل

معلك منها .

ففتح له فقال له :

— ويحك يا كعب ! جئت بعز الدهر . جئت بك بقريش حتى أنزلتهم بمجمع الأسياال ، وبغطفان حتى أنزلتهم بجانب أحد ، قد عاهدوني وعاهدوني ألا يبرحوا حتى يستأصلوا محمدا ومن معه .
— جئني والله بذل الدهر وكل ما يخشى ، فإني لم أرى محمدا إلا صدقا ووفاء . ويحك يا حيى دعنى وما أنا عليه .
فلم يزل حتى يكعب حتى أعطاه عهدا من الله وميثاقا لئن رجعت قریش وعطفاك ولم يقتلوا محمدا ، أن يكون معه فى حصنه وبصيه ما أصابه .

كان ما عرضه حى بن أخطب على كعب جد خطير : إنه نقض لعهد رجل يزن الأمور بميزان العدل لا يميل مع الهوى بل سبيله الحق ودرء كل خطر عن الدين الذى يدعو إليه ، فإن أحقق تدبير حى وكعب فسيذفع يهود بى قريظة أفدح ثمن يدفعه ناقضو العهود ، وإن نجح ذلك التدبير فستحقق أغلى أمنية لليهود : أن يقتل الرجل الذى اعترف بالسيد المسيح وبالحمل الطاهر فسفه بذلك أحلام آبائهم الذين أبوا أن يقرؤا أن عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول .

وكان فى عرض حى شىء حذاب وإن كان محفوفا بالمخاطر ، فدعا كعب رؤساء قومه وهم الزبير بن مطا وشاس بن قيس وعزال بن ميمون وعقبة بن زيد وراحوا يتبادلون قدام الرأى . وكان حى بن أخطب فى اليهود شيئا بأن جهل فى قریش يخشى الناس أن يعصوا له أمرا . فأتى الرأى إلى نقض العهد وقاموا إلى الصحيفة التى كان فيها العقد بينهم وبين رسول الله ﷺ — فمروها ، ولم يصح أمام الفريقين إلا أحد أمرين : أن يقضى على رسول الله ﷺ — وعلى الذين معه جميعا وأن يحق

الإسلام ، وما كان اليهود يشكون في ذلك ، أو يؤيد الله حربه وبغلت المسلمون من الغدر الذي بيت بليل ويواجه بنو قريظة مصيرهم المحتوم جراء وفاقا على نقض العهد وتعريض المسلمين جميعا للقتل . وقد أعمى الله بصورتهم لما أراد الله في هلاكهم .

وجاء الخبر إلى عمر بن الخطاب فسعى إلى رسول الله ﷺ — وقال :

— يا رسول الله بلغنى أن بنى قريظة قد نقضت العهد وحاربت . فاشتد الأمر على رسول الله ﷺ ، فنقص العهد يجعل المدينة كلها بمن فيها لقمة سائغة للأحزاب . وأرسل سعد بن معاذ سيد الأوس وسعد ابن عباد سيد الخزرج وأرسل معهما ابن رواحة وخوات بن جبير وأسيد ابن خضير وقال لهم :

— اطلقوا حتى تظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم ، فإن كان حقا فآلحوا إلى لحنا أعرفه دون القوم ، وإلا فاجهروا بذلك بين الناس .
كان رسول الله ﷺ يريد من القوم أن يوروا ويكنوا في كلامهم بما لا يفهمه القوم إذا كان بنو قريظة قد غدروا لكيلا يذب فيهم الوهن والضعف ولا تتضعضع روحهم المعنوية .

فخرجوا حتى أتوا بنى قريظة فوجدوهم قد نقضوا العهد وقالوا في لستخفاف :

— من رسول الله ؟

وتبرعوا من عقده وعهده وقالوا :

— لا عهد بيننا وبين محمد .

فشتهم سعد بن معاذ وكانوا حلفاءه ، وأغلظ لهم القول سعد بن

عبادة وكان فيه حدة وشائعه .

وقال سعد بن معاذ لسعد بن عباد :

— دع عنك مشائمتهم فما بيننا وبينهم أرى من المشائمة .

ثم أقبل السعدان ومن معهما إلى رسول الله — ﷺ — فكوا له عن نقضهم العهد ، قالوا :

— عضل والقارة .

أى غدروا غدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع ، فقال رسول الله — ﷺ — :

— الله أكبر ! أبشروا يا معشر المسلمين نصرة الله تعالى وعونه .

وتقنع — ﷺ — بثوبه واضطجع ومكث طويلا ، فاشتد على الناس

البلاء والخوف حين رأوه — ﷺ — اضطجع ثم رفع رأسه فقال :

— أبشروا بفتح الله ونصره .

وانتشر الخبر بين المسلمين فعظم عند ذلك البلاء عليهم ، والتفتوا إلى

رسول الله — ﷺ — يلتمسون منه العون فقال عليه السلام :

— حسبنا الله ونعم الوكيل !

وخيف على النساء والذراري من بنى قريظة ، فبعث عليه السلام سلمة

ابن أسلم في مائتي رجل وزيد بن حارثة في ثلاثمائة رجل يحرسون المدينة

ويظهرون التكبير ليلقوا الرعب في قلوب بنى قريظة الذين خافوا عهدهم .

وجاءهم قريش والأحزاب من فوقهم ، وتحركت بنو قريظة من أسفل

منهم حتى ظن المسلمون كل طى ، وتقدم رماة الأحزاب يرمون .

وظهر النفاق من المنافقين حتى قال بعضهم :

— كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصروا أحدنا اليوم لا يأمن

على نفسه أن يذهب إلى البعائط . ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا .
ولما رأى رسول الله — ﷺ — شدة الأمر بعث إلى عيينة بن حصن
الغزاري وإلى الحرث بن عوف المري في أن يقطعهما ثلث ثمار المدينة على
أن يرجعا بمن معهما عنه ، فحاجا مستحضين من أبي سفيان وطلبا نصف
ثمار المدينة ، فأفى عليهما إلا الثلث فرضيا ، وأحضرت الصحيفة والدواة
فكتب عثمان بن عفان الصلح ، فلما أراد رسول الله — ﷺ — أن يوقع
الصلح على ذلك بعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عباد فذكر لهما ذلك
واستشارهما فيه فقالا :

— يا رسول الله أمرا نحبه فنصنعه ، أم شيئا أمرك الله به لا بد لنا من
العمل به ، أم شيئا تصنعه لنا .

— إن كان أمرا من السماء فامض له ، وإن كان أمرا لم تؤمر به ولك فيه
هوى فسمع وطاعة ، وإن كان إنما هو الرأي فما لهم عندنا إلا السيف .
فقال رسول الله — ﷺ :

— لو أمرني الله لما شاورتكما . والله ما أصنع ذلك إلا لأنى رأيت
العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب ، فأردت أن
أكسر شوكتهم إلى أمر ما .
فقال له سعد بن معاذ :

— يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة
الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطعمون أن يأكلوا منائفة إلا قرى أو
يحا ، وإن كانوا لياكلون العلهز^(١) في الجاهلية من الجهد ، أحين أكرمنا

(١) العلهز : طعام من الدم والوبر كان يتخذ في الجاهلية .

الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه قطعهم أموالنا ؟ ما لنا بهذا من حاجة . والله لا نعطهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم .

فقال رسول الله — ﷺ :

— فأنت وذاك .

وذهب عليه السلام إلى عينة والحرب وقال لهما رافعا صوته :

— أرجعا بيننا وبينكم السيف .

واجتمع رؤساء الأحزاب بتشاورون . إن بنى قريظة قد نقضت عهدها وإن عليهم أن يقتحموا هذا الخندق لتدور بينهم وبين المسلمين معركة فاصلة ، فهم من فوقهم وبنو قريظة من أسفل منهم وإن هي إلا ضربات متابعات ثم يمسي الإسلام والمسلمون ذكرى يجبر عليها الرمن أذبال النسيان .

وصاروا إلى مكان ضيق أغفله المسلمون وأكرموا خيولهم على اقتحام الخندق ، وفيهم عكرمة بن أبي جهل وخبيرة بن أبي وهب زوج أم هانئ أخت علي بن أبي طالب وضرار بن الخطاب وعمرو بن عبدود . فتقدم عمرو بن عبدود وكان من أشهر فرسان العرب أصيب في بدر بجراحات ثم ولى الأدبار ولم يشترك في أحد ، وقد جاء مع الأحزاب لمحو عار فراره وليعلن للملأ أنه لا يزال الفارس الذي لا يشق له غبار ، ثم قال :

— من يبارز ؟

فقام على كرم الله وجهه وقال :

— أنا له يا نبي الله .

فقال — ﷺ — له في إشفاق :

— اجلس إنه عمرو بن عبدود .

ثم كرر عمرو النداء قال :

— من يبارز ؟

فلم يقم إليه أحد ، فحمل يوبخ المسلمين ويقول :

— أين جنتكم التي تزعمون أنه من قتل منكم دخلها ١٩ أفلا يبرز لي رجل ! وأنشد :

ولقد بحثت من النداء بجمعكم هل من مبارز ؟

إن الشجاعة في الفتى والجود من حير الغرائز

فقال على كرم الله وجهه فقال :

— أنا له يا رسول الله .

— إنه عمرو .

ثم نادى عمرو الثالثة :

— من يبارز ؟

فقال على كرم الله وجهه فقال :

— أنا له يا رسول الله :

— إنه عمرو .

— وإن كان عمرا !

فأذن له رسول الله ﷺ — وأعطاه سيفه ذا الفقار وألبسه درعه ،

وتقدم على وهو ينشد :

لا تعجلن فقد أنا لك عجيب قولك غير عاجز

ذو نية وبصيرة والصدق محي كل فائز

وشخص — ﷺ — بصره إلى السماء وقال في حرارة :

— إلهي أخذت عبيدة مني يوم بدر ، وحمزة يوم أحد ، وهذا على أحي

وابن عمى فلا تدري فردا وأنت خير الوارثين . اللهم أعه عليه .
ومشى على إلى عمرو بن عبدود فقال له :
— يا عمرو إنك كنت قد عاهدت الله لا يدعوك رجل من قريش إلى
إحدى خلتين إلا أخذتها منه .

— أجل .

— فأنا أدعوك إلى الله وإلى رسوله — ﷺ — وإلى الإسلام .

— لا حاجة لي بذلك .

— فإني أدعوك إلى البراز .

فضحك عمرو وقال :

— إن هذه لخصلة ما كنت أظن أن أحدا من العرب يروعى بها .

وتأهب على كرم الله وجهه للقتال ، فقال له عمرو :

— لم يا بن أخي ؟ فوالله ما أحب أن أقتلك .

فقال له على :

— ولكنى والله أحب أن أقتلك .

فأخذت عمرا الحمية وتقدم على فرسه ، فقال له على :

— كيف أقاتلك وأنت على فرسك ؟ انزل معى .

كان عمرو بن عبدود يكره أن يقتل عليا فأبى طالب كان صديقا وكان
عمرو له نديما ، ولكى عليا كرم الله وجهه أثار حفيظته فغضب فاقحم عن
فرسه ووسل سبعة كأنه شعلة نار فقهر فرسه وضرب وجهه وأقبل على
علي كرم الله وجهه . ولم يستطع رسول الله — ﷺ — أن يتابع المعركة
بيصره فقد أشفق على نفسه من أن يرى مصرع ربيه وحبيه وأخيه وابن
عمه وزوج الزهراء .

واستقبل على بن أبى طالب عمرو بن عبد ود بدرقه ، فضربه عمرو فيها فقتلها وأثبت فيها السيف وأصاب رأسه فشججه ، فاعلقت قلوب المسلمين ورسول الله عليه السلام يناشده أن يعين أبا الحسن والحسين على خصمه الذى تمرس على القتال على مر السنين . وغافل على كرم الله وجهه عمرا فضربه على حبل عاتقه ضربة فسقط يخط في دمه ، وكبر المسلمون . فلما سمع رسول الله ﷺ — التكبير عرف أن عليا الحبيب قتل عمرا ، فانقضت مخاوفه وتهللت أساريره وتقدم ليستقبل فارس الإسلام وهو مسرور ، وأقبل على وهو متفرح بصبر الله فقال له عليه السلام :

— كيف وجدت نفسك مع ما على ؟

— وجدته لو كان أهل المدينة كلهم فى جانب وأنا فى جانب لقدرت عليهم .

وحين قتل عمرو رجع من وصل إلى الخندق من المشركين بخيلهم هارين ، فبعهم الزبير بن العوام فحمل على هيرة بن أبى وهب فضرب ثغر فرسه فقطعه ، وسقطت درع كان جعلها على مؤخر ظهرها فأخذها الزبير ؛ وألقى عكرمة بن أبى جهل رجمه وهو منهمر ؛ وحمل ضرار بن الخطاب وهيرة بن أبى وهب على على كرم الله وجهه ، فأقبل على عليهما فأما ضرار مولى هاربا ولم يثبت ، وأما هيرة فقد ثبت ثم ألقى درعه وهرب ، وكان فارس قريش وشاعرها .

وراح المسلمون ينادون بشعارهم :

— حم لا ينصرون .

ورمى حيان بن العرقعة سعد بن معاذ بسهم فأصاب أكحله (عرق فى

وسط الذراع) فقال :

— خذها وأنا ابن العرقة .

سميت بذلك لطيب عرقها .

فقال سعد بن معاذ :

— اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئا فأبقني لها . فإنه لا قوم أحب إلى أن أجاهدهم من قوم آذوا رسولك وأخرجوه وكذبوه .

وفرت خيل الأحزاب حتى اقتحمت من الخندق ، ثم اجتمع رؤسائهم وقرروا أن يشنوا هجوما عنيفا على المسلمين في الغد ، فباتوا يعبثون أصحابهم وفرقوا كتائبهم حتى إذا ما كان النهار اقتحمت كتيبة عليظة فيها خالد بن الوليد الخندق ، فدار قتال عنيف بين المسلمين والمشركين ، قتال لا هوادة فيه ولا رحمة . وظل المسلمون لا يقدرُونَ أن يزولوا من موضعهم ، فلم يصلوا الظهر ولا العصر ولا المغرب ولا العشاء فقد كان القتال من سائر جوانب الخندق من فوقهم ومن أسفل منهم ، وحصار المسلمون يقولون :

— ما صلينا .

فيقول — ﷺ :

— ولا أنا .

وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ، ومضى من الليل ثلثه والقتال رهيب دائر . ثم كشف الله الكافرين وحلفاءهم فرجعوا متفرقين إلى منازلهم وعسكرهم وانصرف المسلمون إلى قبة رسول الله — ﷺ ، وقام أسيد بن حضير على الخندق في مائتين من المسلمين . وكر خالد بن الوليد في خيل من المشركين يطلبون غرة من المسلمين فاوشوهم ساعة

ومع المشركين وحشى ، فزرق الطمیل من النعمان بمزراقه فقتله ، وصمد المسلمون لخالد بن الوليد ومن معه ، ثم شنوا عليهم هجوما فاضطروهم إلى العودة إلى عسكرهم .

سار رسول الله ﷺ إلى قيته بعد أن ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلالا شديدا ، وأمر بلالا فأذن وأقام فصل العصر ، ثم أمره فأذن وأقام فصل المغرب ، ثم أمره فأذن وأقام فصل العشاء .

وخرجت طائفة من الأنصار ليدفوا ميتاتهم بالمدينة فصادفوا عشرين بعيرا لقريش محملة شعيرا وتمرا وتبا حملها ذلك حُيى بن أخطب شادا وتقوية لقريش ، فأتوا بها رسول الله ﷺ — فتوسع بها أهل الخندق ، ولما بلغ أبا سفيان ذلك قال :

— إن حيا لمشعوم قطع بنا ؟ ما نجد ما يحمل عليه إذا رجعا .

٤

صار أبو سفيان بن حرب ورؤساء الأحزاب يرسلون الطلائع بالليل
يطعمون في العارة فأقام المسلمون في شدة من الخوف ، ودعا رسول
الله ﷺ — على الأحزاب فقال :

— اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب . اللهم
اهزمهم وانصرنا عليهم وزلزهم .

وقام في الناس فقال :

— يا أيها الناس لا تتموا لقاء العدو وسألوا الله العافية ، فإن لقيم العدو
فاصبروا واعلموا أن الجمة تحت طلال السيوف .

ودعا — ﷺ — بقوله :

— يا صريح المكرويين ، يا مجيب المضطرين ، اكشف همي وعمي
وكرمي ، فإنك ترى ما نزل بي وبأصحابي .

وقال له المسلمون :

— هل من شيء نقوله فقد بلغت القلوب الحاجر ؟

— نعم قولوا : اللهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا .

وكان — ﷺ — يختلف إلى ثلثة في الخندق ، فإذا أحذه البرد جاء إلى
قبته فأدعاه عائشة في حضنها ، فإذا دقء خرج إلى تلك الثلثة ويقول :

— ما أحشى أن يؤتى المسلمون إلا مها .

فبينما رسول الله ﷺ — في حضن عائشة صار يقول :

— ليت رجلا صالحا يحرس هذه الثلثة الليلة .

(غزوة الخندق)

فسمع صوت السلاح فقال رسول الله ﷺ :
— من هذا ؟

فقال سعد بن أبي وقاص :
— سعد يا رسول الله ، أتيتك أحرسك .
— عليك هذه التلعة فاحرسها .

ونام رسول الله ﷺ — حتى غط ، وقام — ﷺ — في قبته يصل
فقد كان إذا أحرنه أمر فزع إلى الصلاة ، ثم خرج — ﷺ — من قبته
فقال :

— هذه حيل المشركين تطيف بالخنديق :
— يا عباد بن بشر .
— لبيك .
— هل معك أحد ؟
— أنا في نفر حول قبلك يا رسول الله .

وكان أكره الناس لقبة رسول الله ﷺ — يحرسها فبعته — ﷺ —
بطينة بالخنديق ، فذهب في جوف الليل ينظر فإذا بخيل المشركين تطيف
بهم وإذا أبو سفيان في خيل يطيفون بمضيق من الخندق ، فادى بشر
المسلمين فرماهم المسلمون حتى رجعوا ورسول الله ﷺ — يدعو
ربه :

— اللهم ادفع عنا شرهم وانصرنا عليهم واغلبهم لا يغلبهم غيرك .
وكان نعيم بن مسعود الأشجعي قد سار مع الأحراب . إنه خرج مع
قومه غطفان وهو على دينهم فلما حاصرت الأحزاب المسلمين راح نعيم
يفكر في ذلك الدين الذي جعل أهله يتمنون لقاء أعدائهم وهم

مستبشرون . وعكف على إيمان الفكر في الإسلام فأضاء الله صدره
بأنوار اليقين وقذف في قلبه الإيمان والتصديق ، فخرج حتى أتى رسول
الله ﷺ — بين المغرب والعشاء فوجده يهمل ، فلما رآه جلس ، ثم
قال له النبي ﷺ :

— ما جاء بك يا نعيم ؟

— جئت أصدقك وأشهد أن ما جئت به حق .

وصمت نعيم قليلا ثم قال :

— يا رسول الله إني قد أسلمت وإن قومي لم يعلموا بإسلامي فمرني
بما شئت .

— إنما أنت فينا رجل واحد ، فخذل عنا إن استطعت ، فإن الحرب
خدعة .

فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة وكان لهم ندما في المحاطية ،
فقال :

— يا بني قريظة قد عرفتم ودي إياكم وحاصة ما بيني وبينكم .

— صدقت ، لست عندنا بمتهم .

— إن قريشا وغطفان ليسوا كأنتم . البلد بلدكم به أموالكم وأبناؤكم
ونسائكم لا تقدرن على أن تجلوا منه إلى غيره ، وإن قريشا وغطفان قد
جاءوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهروهم عليه وبلدكم وأموالهم
ونسائهم بغيره فليسوا كأنتم ، فإن رأوا نهيضة (فرصة) أصابوها وإن كان
غير ذلك لحقوا ببلادهم وغلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ، ولا طاقة لكم
به إن خلا بكم ، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا من أشرفهم
ليكونوا بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمدا حتى تاجزوه .

— لقد أشرت علينا بالرأى .

كانوا قد عاهدوا رسول الله ﷺ ، ثم غدروا وأعلوا الحيانة على الملأ ومارقوا صحيفة العهد ، فلما جاءهم نعيم لم يندموا على ما فعلوا ولم يذهبوا إلى رسول الله ﷺ — يستعفرون ويتوبون إلى الله بل ظلوا على غدورهم وقبلوا رأى نعيم ريادة في الحيلة والأمان !

ثم خرج نعيم حتى أتى قريشا فقال لأبى سفيان ومن معه :
— قد عرفتم ودى لكم وفراق محمدا ، وإنه قد بلغنى أمر قد رأيته
على حقا أن أهلكموه بصحا لكم فاكنموا عسى .

— نفعل ، فما هو ؟

— اعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد وقد أرسلوا إليه : إنا قد ندما على ما فعلنا فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين — قريش و غطفان — رجالا من أشrafهم ونعطيكهم فتضرب أعناقهم ، ثم نكون معك على من بقى منهم حتى تستأصلهم ؟ فأرسل إليهم نعم .

فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رهنا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلا واحدا .

ثم خرج حتى أتى غطفان فقال :

— يا معشر غطفان إنكم أهل وعشيرة وأحب الناس إلي ولا أراكم تهملوني .

— صدقت ما أنت عندنا بمتهم .

— فاكنموا عسى .

— نفعل .

ثم قال لهم مثلما قال لقريش وحذرهم ما حذرهم . فلما كانت ليلة السبت أرسل أبو سفيان بن حرب ورعوس غطفان إلى بني قريظة عكرمة ابن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان فقالوا لهم :
— إنا لسنا بدار مقام قد هلك الخف والحافر ، فاغدوا للقتال حتى نناجز محمدا ونفرغ فيما بيننا وبينه .
فأرسلوا إليهم :

— إن اليوم يوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئا ، وقد كان بعضنا أحدث فيه حدثا فأصابه ما لم يخف عليكم . ولما مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمدا حتى تعطونا رهنا من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لما حتى نناجز محمدا ، فإننا نخشى إن صرستكم (طحتكم) الحرب واشتد عليكم القتال أن تنشمروا إلى بلادكم وتركونا والرحل في بلادنا ولا طاقة لنا بذلك منه .

فدما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة قالت قريش وغطفان :
— والله الذي حدثكم نعيم بن مسعود لحق .

فأرسلوا إلى بني قريظة :
— إنا والله لا ندفع إليكم رجلا واحدا من رجالنا ، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا .

فقالت بنو قريظة حين انتهت الرسل إليهم بهذا :
— إن الذي ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق . ما يريد القوم إلا أن يقاتلوا فإن رأوا فرصة انتهبوها ، وإن كان غير ذلك اشمروا إلى بلادهم واخلوا بينكم وبين الرجل .

فأرسلوا إلى قريش وغطفان :

— إنا والله لا نقاتل معكم حتى تعطونا رُهنا .

فأبوا عليهم وقال أبو سفيان :

— ألا أراى أستعين بإخوة القردة والخنازير !

وجاء نعيم بن قريظة وقال لهم :

— كنت عند أبي سفيان وقد جاءه رسولكم فقال : لو طلبوا منى

عناقا^(١) ما دفعتها لهم .

وضايق حبي بن أخطب أن تختلف كلمة الأحزاب وبنى قريظة فحاء

حبي لبنى قريظة وراح يزين لهم الخروج لقتال محمد ، فلم يجد منهم موافقة

له وقالوا :

— لا نقاتل معهم حتى يذفخوا إلينا سبعين رجلا من قريش وغطفان

رُها عندنا .

ووقع الاختلاف والخذلان بينهم ، وبعث الله تعالى ريح الصعا في ليال

شديدة البرد فقلقت ييوعهم وقطعت أطنابها ، وكفأت قدورهم على

أفواهها ، وصارت تلقى الرجال على أمتعتهم ، وأطفأت نيرانهم . وكانت

الريح صفراء ملأت عبونهم ودامت عليهم .

كانت تلك الليلة شديدة البرد والريح في أصوات ريحها أمثال

الصواعق ، شديدة الظلمة ، فجعل المنافقون يستأذنون ويقولون :

— إن بيوتنا عورة وحيطانها قصيرة يخشى عليها السرقة ، فأذن لنا أن

نرجع إلى نساءنا وأبنائنا وذرائعنا .

فأذن — ﷺ — لهم . ولم يبق معه عليه السلام تلك الليلة إلا

(١) العناق : الأثى من ولد المعز .

ثلاثمائة .

وبلغ رسول الله ﷺ — اختلاف كلمتهم فقال :
— ألا رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع ؟ أسأل الله أن يكون
معى يوم القيامة .

فما قام أحد من شدة الخوف والجوع والبرد .
وكرر عليه السلام قوله : ألا رجل يأتينى بخبر القوم يكون معى يوم
القيامة ؟ فلم يجبه أحد .

فقال أبو بكر الصديق :
— يا رسول الله حذيفة .
فمر رسول الله ﷺ — على حذيفة بن اليمان وما يحميه من العدو
والبرد إلا مرط لأمراته ما يجاوز ركبته . وهو جاث على ركبته فقال عليه
السلام :

— من هذا ؟

— حذيفة .

— حذيفة ؟ !

فتقاصر حذيفة بالأرض قال :

— بلى يا رسول الله .

— أما سمعت صوتى ؟

— نعم .

— فما منعتك أن تجيبنى ؟

— البرد .

— لا برد عليك حتى ترجع . قم !

فقام حذيفة فقال عليه السلام :

— إنه كائن في القوم خير فأتني بخير القوم .

— والله ما لي أن أقتل ، ولكن أخشى أن أؤسر .

— إنك لن تؤسر ، اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه ومن تحته .

فلما ولي ناداه عليه السلام فقال له :

— لا ترم بسهم ولا حجر ولا تصرين بسيف حتى تأتيني .

فانطلق حذيفة والريح ترمح وترمح وتقطع أطاب الخيام وتلقى القدور حتى جاء إليهم ودخل في غمارهم ، فسمع أبو سفيان يقول :

— يا معشر قريش ليتعرف كل امرئ منكم جليسه واحذروا الجواسيس والعيون .

وحشى حذيفة أن يفطن به فأخذ بيد جليسه على يمينه وقال :

— من أنت ؟

— معاوية بن أبي سفيان .

وقبض يد من على يساره وقال :

— من أنت ؟

— عمرو بن العاص .

فقال أبو سفيان :

— يا معشر قريش والله إنكم لستم بدار مقام ولقد هلك الكراع والخف ، واختلقتا بو قريظة وبلغنا عهم الذي نكره ولقينا من هذه الريح ما ترون ، فارتحلوا فإني مرتحل .

ووثب على جملة وكان الجمل معقولا ، فلما صر به وثب على ثلاث

قوام . ثم حل عقاله فقال له عكرمة بن أبى جهل :

— إنك رأس القوم وقائدهم تذهب وتترك الناس ؟

فاستحيا أبو سفيان وأناح حملة وأخذ بزمame وهو يقوده وقال :
— ارحلوا .

فجعل الناس يرحلون وهو قائم ، ثم قال لعمر بن العاص :

— يا أبا عبد الله نقيم في جريدة من الخيل بإراء محمد وأصحابه ، فإننا
لا نأمن أن نطلب .

فقال عمرو :

— أما أقيم .

وقال لخالد بن الوليد :

— ما ترى أبا سليمان ؟

— أنا أيضا أقيم .

فاقام عمرو وخالد في مائتي فارس ومار جميع العسكر . ورأى حديفة
ابن النعمان أبا سفيان وحده ، إنه يفكر في أن يصوب إليه سهمًا ويقضى عليه
لولا عهد رسول الله ﷺ — حين بعثه أن لا يحدث شيئا .

وسمعت غطفان بما فعلت فريش فدخلت العسكر ، فإذا الناس في
عسكرهم يقولون :

— الرحيل الرحيل لا مقام لكم .

والريح تقلبهم على بعض أمتعتهم وتضربهم بالحجارة . فلما اطمأن
حديفة إلى أن الأحزاب قد شدوا الرحال للرحيل عاد إلى رسول الله ﷺ —
فوحده قائما يصلي ، فأخبره الخبر فضحك حتى بدت ثيابه في
سواد الليل .

وعاود حذيفة اليرد فجعل يقرق ، فأوماً إليه رسول الله — ﷺ —
بيده فدنا منه فسدل عليه من فضل شملته فقام ، ولم يزل نائماً حتى
الصبح . فلما أن أصبح قال له رسول الله — ﷺ — :
— قم يا نومان .

ونظر رسول الله — ﷺ — إلى عسكر الأعداء فإذا بالأحزاب قد
رحلوا ، فقال عليه السلام :

— الآن نفروهم ولا يغزونا ، نحن نسير إليهم .

وأُنزل الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ
جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ مَعَ الْمُتَّقِينَ
بَصِيرًا ﴾ * إذ جمعوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار
وبلعت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا * هنالك ابتل المؤمنون
وزلزلوا زلزالا شديدا * وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما
وعدنا الله ورسوله إلا غرورا * وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام
لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن يئوتنا عورة وما هي
بعورة إن يريدون إلا فرارا * ولو دُحِلت عليهم من أقطارها ثم سفلوا الفتنة
لأتوها وما تلبسوا بها إلا يسرا * ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون
الأدبار وكان عهد الله مسئولا * قل لن يفعلكم الفرار إن فررتم من الموت
أو القتل وإذا لا تتمعون إلا قليلا * قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد
بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ولا يحدون لهم من دون الله ولها ولا نصيرا *
قد يعلم الله المعوقين منكم والقاتلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا
قليلا * أشمحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم
كالذي يُغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد

أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأجبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا * يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يدوا لو أنهم بادون في الأعراب يسألون عن أبيائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا * لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا * ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما ﴿١﴾ .

هزم الله الأحزاب وحده بعد أن زأغت أبصار المؤمنين وبلغت القلوب
 المحتاجر وظنوا بالله الظنون ، فنادى أبو سفيان بالرحيل ليلحق بمكة وقد
 انهارت آمال الأحزاب في امتصاص المسلمين . وقد عمر أبو سفيان في
 كتاب أرسله إلى رسول الله ﷺ — عن مشاعره عقب الانسحاب جاء
 فيه : « باسمك اللهم . فإنني أحلف باللات والعزى وإساف ومائلة وهبل ،
 لقد سرت إليك في جمع وأنا أريد أن لا أعود إليك أبدا حتى أستأصلكم
 فرائيتك قد كرهت لقاءنا واعتصمت بمكيدة ما كانت العرب تعرفها وإنما
 كانت تعرف ظل رماحها وشبا سيوفها ، وما فعلت هذا إلا قرارا من
 سيوفنا ولقائنا ولكم مئ يوم كيوم أحد » .

فأرسل إليه ﷺ — جوابه فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد
 رسول الله إلى صخر بن حرب ، أما بعد فقد أتاني كتابك وقد بما غرك بالله
 العرور . أما ذكرت أنك سرت إليا وأنت لا تريد أن تعود حتى تستأصلا
 فذلك أمر يحول الله بينك وبينه ويجعل لنا العاقبة ، وليأتين عليك يوم أكسر
 فيه اللات والعزى وإسافا ومائلة وهبل حتى أدركك ذلك يا سفيه بنى
 غالب » .

ورجع رسول الله ﷺ — من الحندق بعد حصار شديد دام خمس
 عشرة ليلة ابتلى فيه المؤمنون وارتزلوا زلزالا شديدا ، واستشهد منهم أس بن
 أوس بن عتيك من بنى عبد الأشهل قتله خالد بن الوليد ، وعبد الله بن
 سهل الأشهيلي وثعلبة بن عثمة بن عدى قتله هُبيرة بن أبي وهب ، وكعب

أبى ريد من بنى دينار قتله ضرار بن الخطاب والطُفيل بن النعمان ، وجرح سعد بن معاذ جرحاً شديداً . وقتل من المشركين عثمان بن أمية بن منبه من بنى عبد الدار ، ونوفل بن عبد الله بن المعيرة ، وعمرو بن عبد ود وابنه جحشل بن عمرو قتلها علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .

وبلغ رسول الله — ﷺ — المدينة وقت الظهر فصلى بالناس الظهر ، ثم دخل بيت عائشة ودعا ماء فاغتسل ، ودعا بالجمرة ليتمخر . وبها هو يستريح وقد وضع السلاح إذ نادى ما :

— عذيرك من محارب (أى من يعذرك) .

فارتاع لذلك رسول الله — ﷺ — ، وثب وثبة منكرة ، وجرح وخرجت عائشة في أثره فإذا رجل على دابة والى — ﷺ — يكلمه ، فرجعت عائشة وقال الرجل وكان جبريل عليه السلام :

— أو قد وضعت السلاح يا رسول الله ؟

— نعم .

— ما وضعت السلاح .

وكيف يصع جبريل السلاح وهناك هو قريظة الذين نقصوا العهد أثناء المعركة ، إن ما فعلوه ليس بخيانة فحسب بل هو تأمر على الدولة ، ولولا فضل الله لقضى على نبي الإسلام والإسلام ، فقال جبريل عليه السلام :

— إن الله يأمرك يا محمد بالمسير إلى بنى قريظة ، فإنى عامد إليهم

فمزّلزل بهم الحصون .

فقال رسول الله — ﷺ — :

— إن فى أصحابى جهداً فلو نظرتمهم أياماً

— أبهى إليهم .

ودخل رسول الله عليه السلام داره فقالت عائشة :

— من ذلك الرجل الذى كنت تكلمه ؟

— ورأيت ؟

— نعم .

— بمن تشبيهه ؟

— بدحية الكلبي .

— ذاك جبريل عليه السلام أمرنى أن أمضى إلى بنى قريظة .

فأمر عليه السلام بلالا أن يؤذن فى الناس : « من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة » . وبعث مناديا ينادى :

— يا خيل الله^(١) اركبى .

وتجمع المسلمون فى عدة القتال ، وخرج رسول الله — ﷺ — وقد لبس السلاح — الدرع والمعفر والبيضة — وأخذ قاة وتقلد السيف وركب فرسه اللجيف ، فالتفت الناس حوله قد لبسوا السلاح وركبوا الخيل وهم ثلاثة آلاف والخيل ستة وثلاثون فرسا له منها ثلاثة ، واستعمل على المديهة ابن أم مكتوم .

وكان اللواء على حاله لم يَحل من مرجعه — ﷺ — من الخندق ، فدفعه إلى على بن أبى طالب . فاندفع على بن أبى طالب فى رفاق بنى غنم من بنى السجار فإذا الغبار يتصاعد حتى كاد يحجب الرؤيا . فلما دنا على بن أبى طالب من الحصن ومعه نفر من المهاجرين والأنصار وعرز اللواء عند أصل الحصن ، سمع من بنى قريظة مقالة قبيحة فى حقه — ﷺ — وحق أزواجه ، فسكت

(١) يا فرسان الله .

المسلمون وقالوا :

— السيف بيننا وبينكم .

وكره على كرم الله وجهه أن يسمع رسول الله — ﷺ — من بنى قريظة ما يسيئه . فلما رأى رسول الله عليه السلام مقبلا أمر أبا قتادة الأنصاري أن يلزم اللواء ورجع إليه — ﷺ — فقال :

— يا رسول الله لا عليك أن تدنو من هؤلاء الأخاث .

— لعلك سمعت منهم لى أذى .

— نعم يا رسول الله .

— لو رأوتى لم يقولوا من ذلك شيئا .

فلما دعا رسول الله — ﷺ — من حصونهم قال :

— يا إخوان القردة ، هل أخزاكم الله وأنزل بكم نعمته ؟ أتستحمون ؟

فجعلوا يحلفون ويقولون :

— ما قلنا .

— يا أبا القاسم ما كنت جهولا .

وتقدم أسيد بن حضير إلى يهود فقال لهم :

— يا أعداء الله لا تبرحوا من حصنكم حتى تموتوا جوعا ، إنما أنتم بمنزلة

ثعلب فى جحر .

— يا ابن الحضير نحن مواليك .

وعافوا ، قال :

— لا عهد بينى وبينكم .

وكيف يكون بينه وبينهم عهد وقد نقضوا عهد رسول الله — ﷺ —

فى الوقت الذى جاءت الأحزاب لتستأصل المسلمين والإسلام ، ولم

يكتفوا بنقض العهد بل تأمروا على سلامة الدولة .

وشعل جماعة من الصحابة ما لم يكن لهم مه بد عن المسير لبني قريظة ليصلوا بها العصر ، فأخروا صلاة العصر إلى أن جاعوا بعد عشاء الآخرة وبعضهم قال :

— نصل ، ما يريد رسول الله ﷺ — منا أن ندع الصلاة ونخرجها عن وقتها ، وإنما أراد الحث على الإسراع .

فصلوا في أمأكم ثم ساروا فما عاينهم الله في كتابه ولا عفيهم رسول الله ﷺ .

واستمر حصار بني قريظة وطعام الصحابة التمر يرسل به سعد بن عباد . وكان حبي بن أحطب دخل مع بني قريظة في حصصهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان وفاء لكعب بن أسد ، فلما جهدهم الحصار وقذف الله في قلوبهم الرعب وأيقنوا أن رسول الله ﷺ — غير منصرف عنهم حتى يناجزهم ، قال كعب بن أسد لهم :

— يا معشر يهود قد نزل بكم ما ترون ، وإني عارض عليكم خللا ثلاثا فخلوا أيها شتم .

— ما هي ؟

— نتابع هذا الرجل ونصدقه ، فوالله لقد تبين لكم أنه نبي مرسل وأنه الذي تجدون في كتابكم ، فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم وسائكم ، وما معنا من الدحول معه إلا الحسد للعرب حيث لم يكن من بني إسرائيل . ولقد كنت كارها لنقض العهد ولم يكن البلاء والشؤم إلا من هذا الجالس .

والتفت العيون إلى حبي بن أحطب وقد ملئت حقدا . واستمر كعب

في مقالته :

— أتذكرون ما قال لكم ابن خراش حين قدم عليكم : إنه يخرج بهذه القرية نبي فاتبعوه وكونوا له أنصارا وتكونوا آمتم بالكتاب الأول والآخر .

فارتفعت الأصوات قائلة :

— لا نفارق حكم التوراة أبدا ولا سنبدل به غيره .

فقال كعب في يأس :

— فإذا أبيتم على هذه فهلهم فليقتل آباءنا وساءنا ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالا مصلتين بالسيوف ولم نترك وراءنا ثقلا حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلا يحشى عليه . وإن نظفر فلعمرى لحدن الساء والأبناء ؟

— يقتل هؤلاء المساكين ؟! فما حير العيش بعدهم ؟

— فإن أبيتم على هذه فإن الليلة ليلة السبت وإن عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنوا فيها ، فانزلوا معنا نصيب من محمد وأصحابه غرة — بعد سبنا ومحدث فيه ما لم يحدث فيه من كان قبلنا إلا من علمت وأصابه ما لم يخف عليك ؟

ولم يكن عمرو بن سعدى معهم لما نقصوا عهد رسول الله — ﷺ ،
إنه قال لهم قبل أن يقدم النبي — ﷺ — لخصارهم :

— يا بني قريظة لقد رأيت عبرا : رأيت دار إخواننا حالية بعد ذلك العر والحد والشرف والرأى الفاضل والعقل . تركوا أموالهم قد تمسكها غيرهم وخرجوا خروج ذل . لا والتوراة ما سلط هذا على قوم قط والله بهم

(غروة الخندق)

حاجة . وقد أوقع بنى قيسفاح وكانوا أهل عدة وسلاح ونخوة ، فلم يخرج أحد منهم رأسه حتى سباهم ، فكلّم فيهم فتركهم على إجلالهم من يثرب .

يا قوم قد رأيتم ما رأيتم فأطيعوني وتعالوا تتبع محمدا ، فوالله إنكم لتعلمون أنه نبي وقد بشرنا به علماؤنا .

ثم لا زال يخوفهم بالحرب والسبي والجلاء ، ثم أقبل على كعب بن أسيد وقال :

— والتوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام يوم طور سيناء إنه للعز والشرف في الدنيا .

فبينما هم على ذلك لم يرعهم إلا مقدمة النبي — ﷺ — قد حلت بساحتهم فقال :

— هذا الذي قلت لكم .

كان ذلك منه عقب الخندق ، فلما طال الحصار واشتد الجدل قال :
— قد خالفتم محمدا فيما خالفتموه ولم أشر ككم في غدركم ، فإن أبيتم أن تدخلوا معه فاثبتوا على اليهودية وأعطوا الحزبية ، فوالله ما أدرى يقبلها أم لا ؟

— نحن لا نقر للعرب بخراج في رقابنا يأخذونه ، القتل خير من ذلك .
— فإن يري منكم .

وخرج في تلك الليلة فمر بحرس رسول الله — ﷺ — وعليه محمد بن مسلمة ، فقال محمد بن مسلمة :

— من هذا ؟

— عمرو بن سعدى .

— مر ، اللهم لا تحرمنى إقالة عثرات الكرام .

و غاب عمرو بن سعدى فى سواد الليل ، ثم وجدت ريمته وأحبر رسول

الله — ﷺ — خبره فقال :

— هذا رجل نجاه الله بوفاة .

مرت الأيام ويهود بنى قريظة في الحصون وقد استمر المسلمون في حصارهم ، وبدأت المؤن تعد ووجعت القنوب فالموت جوعا يهدد الذين محروا في عهدهم وانقادوا إلى حبي بن أحطب المشنوم .

وراح زعماء بني قريظة يتشاورون فرأوا أن يرسلوا ساس بن قيس إلى رسول الله ﷺ — أن يرلوا على ما نزلت عليه بنو النضير من أن هم ما حملت الإبل إلا الحلقة (السلاح) فأبى رسول الله ﷺ — أن يخس دماءهم ويسلم لهم نساءهم والنزيرة .

وعاد زعماء بني قريظة يتشاورون وقد ألقى الرعب في قلوبهم وقد ملأت جريعتهم أقطار رعو سهم : إنهم قبلوا أن يسلموا محمدا عليه السلام والدين معه إلى أعدائهم وإن الحكم في مثل هذه الحياة هو الإعدام ، فإن استطاعوا أن يقدوا رعو سهم فقد نالوا حيرا كثيرا ، فأرسلوا ثانية ساس بن قيس إلى رسول الله ﷺ — بأنه لا حاجة لهم بشيء من لأموال لا من الحلقة ولا من غيرها ، فأبى رسول الله ﷺ — إلا أن يزلوا على حكم رسول الله ﷺ — .

وعاد ساس بن قيس إلى الحصن وقد بكس رأسه ولاح في وجهه أعرق الأسى وقد ذهبت نفسه شعاعا ، وما إن أعلن تصميم رسول الله ﷺ — على أن يزلوا على حكمه حتى راعت الأبصار وطاشت العقول وتعلقت العيون بساداتهم وقد ملئت ضراعة أن يبتدوا إلى رأي ، فقد كادوا جميعا أن يموتوا من الحرع والخوف .

كان أبو لبانة مناصحاً لهم وكان ولده وعياله فيهم ، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ :

— ابعث إلينا أبا لبانة لنستشيره في أمرنا .

فدعا رسول الله ﷺ — أبا لبانة وقال له :

— اذهب إلى حلفائك فإنهم أرسلوا إليك من بين الأوس .

فذهب إليهم فلما رأوه قام إليه الرجال وحش إلى النساء والصبيان يكون في وجهه من شدة الحصار وتشنيت ما لهم ، فرق لهم فقام كعب بن أسيد فقال :

— يا أبا بشير قد عرفت ما بيننا ، وقد اشتد علينا الحصار وهلكنا ومحمد لا يفارق حصننا حتى تنزل على حكمه ، فلو رال عنا لحقنا بأرض الشام أو حير ولم يطلأ له أرضاً ولم نكثر عليه جمعاً أبداً . ما ترى — قد احترناك على غيرك — أنزل على حكم محمد ؟

فقال أبو لبانة :

— نعم فانزلوا .

وأوماً إلى حلقه بالدبح فوالله ما رالت قدماه من مكاهما حتى عرف أنه خان الله ورسوله ، فدم وقال في خوف شديد .

— إنا لله وإنا إليه راجعون .

وسر به الخزى وعلاه القهر وجعل ضميره يؤنبه ويخزه وعزاً شديداً ، فقال له كعب :

— مالك يا أبا لبانة ؟

فقال في صوت متهدح وقد غلفه الدم :

— خنت الله ورسوله .

وملأت عينيه الدموع ، ثم انطلق على وجهه فلم يأت رسول الله ﷺ ، وذهب إلى المسجد وكان الحر شديدا ، ولكن النار التي تلمظت في جوفه كانت أشد حرا ففكرة أنه خان الله ورسوله كانت تلسمه لسما يعذبه عذاب الهون .

وارتبط بالمسجد إلى عمود من عمدته بسلسلة ثقيلة ، وكان العمود عند باب أم سلمة زوج النبي — ﷺ ، وكان أكثر تقبل رسول الله — ﷺ عند ذلك العمود ، وكان يصرف إليه من صلاة الصبح فكان يستبق إليه الفقراء والمساكين ومن لا بيت له إلا المسجد ، فيجئ إليهم — ﷺ ، ويتلو عليهم ما أنزل إليه من ليلته ويحدثهم ويحدثونه .

وكان ما فعله أبو لبانة غير مألوف ، فخف إليه أناس من المسلمين يسألونه الخبر فقال في انفعال شديد :

— والله لا أذوق طعاما ولا شراها حتى أموت أو يتوب الله على مما صنعت .

وعاهد الله أن لا يطأ بى قريظة أبدا ولا يرى في بلد خان الله ورسوله فيه أبدا .

واستبطأ رسول الله عليه السلام أبا لبانة ، وفيما هو يرقب وفوده عليه إذ جاء أناس من المدينة وأحبروه عليه السلام خبره فقال :

— أما لو جاءنى لاستغفرت له ، وأما إذ فعل ما فعل فما أنا بالذى أطلقه حتى يتوب الله عليه .

وظل أبو لبانة مرتبطا في العمود تأتبه امرأته في كل وقت صلاة فضحله للصلاة ثم تعود فتربطه . وكان في مسجد رسول الله — ﷺ — خيام يداوى بها جرحى الحمقى ، وكان سعد بن معاذ سيد الأوس في خيمة

لامرأة من أسلم يقال لها ربيعة كانت تداوى الجرعى محتسبة .
وما كان أمام يهود بنى قريظة إلا أن يسلموا أو يموتوا جوعاً ، فنزلوا على
حكمه — ﷺ ، فأمر بهم فكتفوا وجعلوا ناحية وكانوا سبعمائة وخمسين
مقاتلاً ، وأخرج النساء والذراوى من الحصون وجعلوا ناحية وكانوا
ألفاً ، واستعمل إليهم عبد الله بن سلام .
وتذكر الأوس أن رسول الله — ﷺ — قد وهب بنى قينقاع لعبد الله
ابن أبى بن سلول بعد أن نزلوا على حكمه عليه السلام ، فطمعوا فى أن يهب
إليهم حلفاءهم فتوالت الأوس وقالوا :
— يا رسول الله موالينا وحلفاؤنا وقد فعلت فى موالى إخواننا بالأمس
ما قد فعلت .

طلبت الأوس من رسول الله — ﷺ — أن يهب لهم بنى قريظة كما
وهب بنى قينقاع للحزرج ، ولكن شتان بين جريمة بنى قينقاع وجريمة
بنى قريظة ؛ لقد سخر بنو قينقاع بامرأة مسلمة بيننا تأمر بنو قريظة على أمن
الدولة ، ولولا لطف الله لاستأصلت الأحزاب الإسلام والمسلمين . فلما
كلمته الأوس أبى أن يفعل ببنى قريظة ما فعله ببنى قينقاع ثم قال :
— أما ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم ؟
قالوا :

— بلى .

فقال رسول الله — ﷺ — لليهود بنى قريظة :

— اختاروا من شعثكم من أصحابى .

— نزل على حكم سعد بن معاذ .

كان سعد بن معاذ في المسجد في خيمة رفيدة ، وقد كان — ﷺ —
 قال لقوم سعد بن معاذ حين أصابه السهم في الخندق : « اجعلوه في خيمة
 رفيدة حتى أعوده عن قرب » . فأتاه قومه فحملوه على حمار ووطئوا له
 وسادة من آدم ثم أتوا به رسول الله — ﷺ — وهم يقولون له :
 — يا أبا عمرو أحسن في مواليك ، فإن رسول الله — ﷺ — إنما ولاك
 ذلك لتحسن فيهم .. فأحسن فيهم فقد رأيت ابن أبي وما صنع في حلفائه .
 فلما أكثروا عليه قال :

— لقد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم .

فقال بعضهم :

— واقوماه !

فرجع بعض من كان معه من قومه إلى دار بني عبد الأشهل فعلى لهم
 رجال بني قريظة قبل أن يصل إليهم سعد لكلمته التي سمع منه ، فقد كان
 واضحا وصوح البهار أن جزاء الخيانة التي تهدد أمن الدولة هو القتل إن أراد
 القاصي العدل المطلق دون أن يتأثر بهوى أو حلف ، وقد أعلنها سعد بن
 معاذ ناصعة لاشية فيها أن قد آن له ألا تأخذه في الله لومة لائم .

وانتهى سعد إلى رسول الله — ﷺ — والمسلمين ، فقال رسول الله —
 ﷺ :

— قوموا إلى سيدكم فأنزلوه .

فقال عمر بن الخطاب :

— السيد هو الله .

وقال المهاجرون من قريش :

— إنما أراد رسول الله الأنصار .

والأنصار يقولون :

— قد عم بها رسول الله — ﷺ .

فقاموا إليه فقالوا :

— يا أبا عمرو إن رسول الله — ﷺ — قد ولاك أمر مواليك لتحكم

فيهم .

وانتهى إلى رسول الله — ﷺ — فقال عليه السلام :

— احكم فيهم يا سعد .

— الله ورسوله أحق بالحكم .

— قد أمرك الله أن تحكم فيهم .

فالتفت سعد إلى الناحية التي ليس فيها رسول الله — ﷺ — فقال :

— عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم كما حكمت ؟

— نعم .

وأشار إلى الناحية التي فيها رسول الله — ﷺ — وهو معرض عن

رسول الله عليه السلام إحلالا له فقال :

— وعلى من ههنا مثل ذلك ؟

فقال رسول الله — ﷺ — :

— نعم .

قال سعد لبني قريظة :

— أترضون بحكمي ؟

— نعم .

فأخذ عليهم عهد الله وميثاقه أن يحكم ما حكم به ثم قال :
 — إني أحكم فيهم أن تقتل الرجال وتقسّم الأموال وتسبى الذراري
 والنساء وتكون الديار للمهاجرين دون الأنصار .
 فقالت الأنصار :

— إخواننا لنا معهم .

فقال سعد :

— إني أحببت أن يستغنوا عنكم .

فقال رسول الله — ﷺ — لسعد :

— لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات .

وأمر — ﷺ — أن يجمع ما وجد في حصونهم من الحلقة وال سلاح
 وغير ذلك فجمع ، فوجد فيها ألفا وخمسمائة سيف وثلاثمائة درع وألفي
 رح وخمسمائة ترس وجحفة ، ووجد أثاثا كثيرا وآنية كثيرة وجمالا
 نواضع يسقى عليها الماء وماشية وشياها كثيرة . وخمس ذلك مع النخل
 والسبى حتى الرثة وهي السقط من أمتعة البيت خمسة أجزاء ، فوزع أربعة
 أسهم على الناس فجعل للفارس ثلاثة أسهم سهمها له وسهمين لفروسه ،
 وللراجل سهمها وهو أول فيء وقعت فيه السهام ، وأخذ هو — ﷺ —
 جزءا وهو الخمس ليرده على الفقراء والمساكين وأصحاب الحاجات .

ووجد حرار خمر فأهريق ولم يحمس . ثم إن رسول الله — ﷺ — أمر
 بالأسارى أن يكونوا في دار أسامة بن زيد . والنساء والذرية في دار ابنة
 الحرث النخارية ، فقد كانت تلك الدار معدودة لنزول الوفود من
 العرب . وبالمتاع أن يحمل ، وترك المواشي هناك ترعى الشجر .

وانصرف رسول الله ﷺ — إلى المدينة ، وانطلق أسارى بنى قريظة والأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون وقد نكسوا رءوسهم خربا وما دروا بحكم سعد بن معاذ فيهم ، ولو كان قد يلهم حكمه لابتلقت أصوات الجزع من الخناجر ولسالت الدموع على الخدود ، وحبس الأسارى في دار أسامة بن زيد ، ووضع النساء والذرية في دار بنت الحارث ، وبات يهود بنى قريظة ينتظرون ما يفعل بهم .

خرج رسول الله ﷺ — إلى سوق المدينة فحفر بها خنادق وحلّس هو وأصحابه ، وجاء سعد بن عبادَة والحباب بن المنذر فقالا :
 — يا رسول الله إن الأوس قد كرهت قتل بنى قريظة لمكان حلفهم .
 فقال سعد بن معاذ :

— ما كرهه أحد من الأوس فيه حرم ، فمن كرهه فلا أرضاه الله .
 فقام أسيد بن حضير فقال :

— يا رسول الله لا تبق داراً من دور الأوس إلا فرقتهم فيها .
 ففرق بعضهم في دور الأوس ليصربوا أعناقهم ، وبعث إلى من بقى منهم في دار أسامة بن ثابت فجاءوا إليه أرسلوا . فالتفت بعضهم لسيدهم كعب بن أسد وقال :

— يا كعب ما تراه يصنع بنا ؟

— في كل موقع لا تعقلون ، ألا ترون أن من يذهب مكم لا يرجع ،
 هو والله القتل ، قد دعوتكم إلى غير هذا فأبيتم على .
 — ليس حين عتاب .

وألقى بحُيى بن أخطب وعليه حلة له في لون الورد حين هم أن يفتح ،
 قد شقها عليه من كل ناحية قيد أئمة لثلاث يسلبها ، مجموعة يدها إلى عنقه
 بحبل . فلما نظر إلى رسول الله ﷺ — قال :

— أما والله ما لمت نفسي في عداوتك ، ولكن من يحذل الله يُخذل .
 ثم أقبل على الناس فقال :

— أيها الناس إنه لا بأس بأمر الله ، كتاب وقدر وملحمة كُتبت على
بني إسرائيل . ثم جلس فصرع عنقه ، فقال جل بن حوَال الثعلبي :
لعمرك ما لام ابن أعطى نفسه

ولكنه من يحذل الله يُحذل
لجاهد حتى أبلع السفس عُذرها
وقلقل^(١) يخفى العز كل مقلقل

وراح على بن أبي طالب والزيبر بن العوام بقطان الرعوس على شعل
السعف في جوف الليل ، وقد صاحت نساء بني قريظة وشقت جيوبها
وبشرت شعورها وضربت خدودها وملأت المدينة نواحا ، وأوتى بكعب
ابن أسيد فاشتد العويل وصرب الحدود فسيد بني قريظة قد جلس ليضرب
عنقه ، فقال له — عليه السلام :

— يا كعب .

— نعم يا أبا القاسم .

— ما انتعمت بنصح ابن خراش لكم وكان مصدقا لي ، أما أمركم
باتساعى وإن رأيتموني تقرئوني منه السلام ؟

— بلى والتوراة يا أبا القاسم ، ولولا أن تعيرني يهود بالجزع من السيف
لا تبعثك ولكنه على دين يهود .

فأمر رسول الله — عليه السلام — أن يضرب عنقه .

ودخلت امرأة من سائهم يقال لها بنانة امرأة الحكم القرظي على عائشة
أم المؤمنين وكانت جارية حلوة ، فطفقت تتحدث مع عائشة وتضحك

(١) قلقل : تحرك .

ظهرا وبطنا ورسول الله عليه السلام يقتل رجالها في السوق ، إذ هتف هاتف باسمها فقالت :

— أنا والله .

فقالت لها عائشة في دهش :

— وبلك ؟ مالك ؟

— أقتل .

— ولم ؟

— قتلتي زوجي .

— كيف قتلتك زوجك ؟

— أمرني أن ألقى رحي على أصحاب محمد كانوا تحت الحصن

مستظلمين في فيه ... كان بيني وبينه كأشد ما يتحاب الزوجان . فلما

اشتد أمر المحاصرة قلت لزوجي : يا حمرني على أيام الوصال كادت أن

تقضى وتبدل بلبالي الفراق . وما أصنع بالحياة بعدك ؟ فقال زوجي :

إنك صادقة في دعوى الخبة ، تعالى فإن جماعة من المسلمين جالسون في

ظل حصص فألقى عليهم حجر الرحا لعله يصيب واحدا منهم فيقتله . فإن

ظفروا بنا فإنهم يقتلونك بذلك . فألقيت عليهم حجر الرحا فأدركت

خلاد بن سويد فشددت رأسه فمات وأنا أقتل به .

وخرجت للقتل ، وعائشة أم المؤمنين تعجب لطيب نفسها وكثرة

ضحكها وقد عرفت أنها تقتل .

وكان الزبير بن باطا القرظي وكان يكسأ أبا عبد الرحمن قد من على

ثابت بن قيس بن شماس في الجاهلية يوم بعث ، أحذه فجر ناصيته ثم خلا

سبيله ، فحاه ثابت وهو شيخ كبير فقال :

- يا أبا عبد الرحمن هل تعرفنى ؟
 — وهل يجهل مثلى مثلك !
 — إني قد آت أن أحزبك بيدك عندي .
 — إن الكريم يجزى الكريم .
 ثم أتى ثابت رسول الله ﷺ — فقال :
 — يا رسول الله قد كان للزبير عدى يدوله على منة . وقد أحببت أن
 أحزبه فهب لى دمه .
 فقال رسول الله ﷺ :
 — هو لك .
 فأتاه فقال :
 — إن رسول الله ﷺ قد وهب لى دمك .
 — شيخ كبير لا أهل له ولا ولد ، فما يصنع بالحياة ؟
 فأقى ثابت رسول الله ﷺ — فقال :
 — يا رسول الله أهله وولده .
 — هم لك .
 فأتاه فقال :
 — إن رسول الله ﷺ — قد أعطانى امرأتك وولدك فهم لك .
 — أهل بيت بالحجاز لا مال لهم فما بقاؤهم على ذلك ؟
 فأقى ثابت رسول الله ﷺ — فقال :
 — يا رسول الله ماله .
 — هو لك .
 فأتاه فقال :

- إن رسول الله ﷺ — قد أعطاني مالك فهو لك .
- أي ثابت ، ما فعل الذي كان وجهه مرآة صبيبة يتراءى فيها عذارى الحى ، كعب بن أسيد ؟
- قُتل .
- فما فعل سيد الحاصر والبادى حبي بن أخطب ؟
- قُتل .
- فما فعل مقدمنا إذا شددنا وحاميتنا إذا كررنا عرآل بن صموئيل ؟
- قُتل .
- ما فعل المجلسان ؟
- وفهم ثابت أنه يقصد بنى كعب بن قريظة وبى عمرو بن قريظة فقال :
- ذهبوا وقتلوا .
- فإني أسألك بيدى عدك يا ثابت إلا ألحقنى بالقوم ، فوالله ما فى العيش بعد هؤلاء خير . أأرجع إلى دار قد كانوا حلولا فيها فأخلد فيها بعدهم ؟ لا حاجة لى فيها . ألحقنى بهم فليست معايرا عهم إفراغة دلو حتى ألقى الأحبة .
- ما كنت لأقتلك .
- لا أبالي من قتلتى .
- فقتله الزبير بن العوام . ولما بلغ أبا بكر مقالته « ألقى الأحبة » قال :
- يلقاهم والله فى نار جهنم حالدا فيها محمدا .
- كان القتل لكل من أبيت ، ومن لم يبت يكون فى السبي . وكان عطية القرظى غلاما فوجدوه لم يبت فحلوا سبيله عن القتل ، وقد شرح الله قلبه

للإسلام بعد ذلك فدخل في دين الله . وكان رفاعة قد أبت فأرادوا قتله
فلاذ بسلمي بت قيس أم المنذر وكانت إحدى حالات حده عند
المطلب ، فقالت :

— نأى أنت وأمي يا رسول الله ، هب لي رفاعة .
فوهبه لها ، فألقى الله في قلبه أنوار اليقين فأسلم وجهه لله رب
العالمين .

وكان سعد بن معاذ يطر إلى قتل بني قريظة وهو راضى النفس ، فإبه
لما أصيب بالسهم في الحندق قال يا حي ربه : لا تمتني حتى تفر عيني من
بني قريظة ، وقد أقر الله عينه وشفى صدره فلم يعد يحفل على أى حب
يموت .

وانفجر جرح سعد بن معاذ وسال الدم ، واحتضه — ﷺ —
فجعلت الدماء تسيل على رسول الله — ﷺ — ، فمات معه وحمل إلى
مزله . وراح أشرف الرجال يحفرون قبر سعد بن معاذ سيد قومه وفي
القلوب حسرة وفي الحلق عصاة وفي العيون دمع ، وحمل بعش سعد
وكان جسيما فلم يستشعر الذين حملوه ثقله فالخزن الذي برل بالأثدة كان
ثقيلا ، أنسى الرجال وطأة الحسم الثقيل الذي كانوا يحملونه .

ودفن سعد ، ورسول الله — ﷺ — يظفر وقد لاح في وجهه الأسى
العميق ومن حوله صحابته من الأنصار والمهاجرين ، فسبح رسول الله —
ﷺ — ، فسبح الناس معه ، ثم كبر فكير الناس معه .

وجاءت أم سعد وبطرت إليه في اللحد وقالت وهى تشرق بدموعها :
— أحسبك عند الله .

وعزاها رسول الله — ﷺ — وهو واقف على قدميه على القبر ، فلما

سوى التراب على قبره مات عليه أمه ، فقال — ﷺ :

— كل نائحة تكذب إلا نائحة سعد بن معاذ .

ثم أمر رسول الله — ﷺ — بالعام فجمعت ، فاصطفى لنفسه ريحانة بنت عمرو بن حنافة إحدى ساء عمرو بن قريظة . ثم أخرج الخمس من المتاع والسبي ، ثم أمر بالباقي فبيع فبعت يزيد وقسمه بين المسلمين . وكانت السهمان على ثلاثة آلاف واثني وسبعين سهما ، لفرس سهمان ولصاحبه سهم . واستعمل عليه السلام محمية بن جزء الزبيدي وكان من مهاجرة الحبشة على الأحماس ، فكان رسول الله — ﷺ — يعتق منه ويهب ويخدم منه من أراد . وقال عليه السلام لمن أحدوا السبايا :

— من فرق بين والدته ولدها فرق الله بينه وبين أحته يوم القيامة .

كان المسلمون لا يمتلكون إلا جوادا واحدا يوم بدر . وقد نصرهم الله ببدر وهم أدلة . وكانت غزوة أحد وقد فعل فرسان المشركين بالمسلمين الأفاعيل ، فرأى رسول الله — ﷺ — أن يهتم بفرسان المسلمين وأن يسلحهم تسليحا حقيقيا ، فاهتم بتربية الخيل ولكن ذلك يحتاج إلى وقت طويل . فلما أصبحت الأموال بين يديه بعد غزوة بني قريظة بعث سعد ابن زيد الأنصاري إلى نجد ليشترى لهم خيلا وسلاحا ، وبعث سعد بن عبادة إلى الشام ليشترى سلاحا ، فصار عنده — ﷺ — حيل كثير وسلاح كثير فقسمها على المسلمين . وكون عليه السلام أول فرق فرسان المسلمين تلك الفرق التي سترزله ملك الروم وتدنك حصون العرس وترفع رايات الإسلام خفاقة على الحصون .

ودخل عليه السلام المدينة فاستقبله المسلمون بالنكير . وتجاوبت في أرجاء المكان عن طول الطريق أهاليج النصر المبين ودخل عليه السلام

المسجد لبصلي ركعتين لله شكرا قبل أن يتجه إلى دار ابنته فاطمة الرهراء ليحيى أهل البيت قبل أن يدخل على سائه ، فإذا بأبي لسانه لا يزال مربوطا بسلاسل إلى أسطوانة قريبة من دار أم سلمة ، فهو ينتظر أمر الله فيه ، فم يندفع عليه السلام ليفكه فما كان له أن يفعل بعد أن قال أبو لبابة : « والله لا أدوق طعاما ولا شرابا حتى أموت أو يتوب الله عليّ » .

وعاد المسلمون إلى دورهم والحر شديد ، وأبو لبابة قد ارتبط بالمسجد إلى عمود من عمده وقد دب في جسده الوباء وراح العرق يتفصد من جسده ، تأتيه امرأته أو ابنته في وقت كل صلاة فتحله للصلاة ، ثم يعود فيربط بالعمود حتى كاد يذهب سمعه وبصره .

وفي عمارة الصبح حرح رسول الله ﷺ — يتصل عد الأسطوانة التي ارتبط بها أبو لسانه . ثم انصرف إليها بعد صلاة الصبح فراح يستنشق إليها الفقراء والمساكين ومن لا بيت له إلا المسجد ، فراح رسول الله عليه السلام يتلو عليهم ما أنزل إليه : ﴿ وأنزل الدين طاهروهم من أهل الكتاب من صياصيمهم وقدف في قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا ﴾ وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطلوها وكان الله على كل شيء قديرا ﴿ (١) .

وحمل أبو لبابة يرهف سمعه لعله يسمع أن الله قد تاب عليه ، ولكن رسول الله عليه السلام قد تلا ما أنزل إليه من ربه وما كان فيه إشارة إلى توبة الله عليه ، فاستشعر حزنا على حرته وإن لم يقسط من رحمة ربه ، فقد كان على يقين من أن الله يعقر الذنوب جميعا .

وأبت ربحانة بنت عمرو الإسلام فعرفها — ﷺ — ووجد في نفسه لذلك ، فيبدا هو في مجلس من أصحابه إذ سمع وقع نعلين خلفه فقال :

— إن هاتين لنعلا مبشرى بالإسلام ربحانة

فجاء رجل وأخبره أن ربحانة أسلمت فسر بذلك فأعتقها . وبعد استيرائها بحمضة تروحها وأصدقها اثني عشرة أوقية وشا . ولم يشأ أن تكون في ملكه يظنوها بالملك فقد جاء عليه السلام ليخفف رواد الرق ويشجع الناس على العتق .

ودخل عليه السلام بيت أم سلمة ، حتى إذا ما كان السحر سمعت أم سلمة رسول الله — ﷺ — يصحك فقالت :

— مم تصحك يا رسول الله أصحك الله سكت ؟

— تيب على أبنى لبانة .

فنهلت أم سلمة بالفرح وقالت :

— أفلا أبشره يا رسول الله ؟

— بلى إن شئت .

فقامت على باب حجرتها فقالت :

— يا أبا لبانة أبشر فقد تاب الله عليك .

كانت فاطمة الزهراء تنظر إلى أبنى لبانة وقد ارتبط بأسطوانة المسجد والأهام تمر فتستشعر أعماق الأسى ، فلما مس أذنها نداء أم سبعة أحست قلبها يخفق بالفرح ، فثارت إليه مع الناس الذين هرعوا إليه ليطلقوه ، فلما رأوا الزهراء تتقدم لتحل وثاقه تأخروا ، ولكن أبا لبانة أبى أن تطلقه وقال :

— لا والله حتى يكون رسول الله — ﷺ — هو الذي يطلقني بيده .

وبلغ ذلك رسول الله ﷺ — فقال :

— فاطمة بضعة مني .

وحرج رسول الله ﷺ — ليصلي الصبح ، فلما مر عليه السلام على
أبي لبانة أطلقه فأذا بالدموع تنهمر من عيني الرجل ويقول في انفعال :
— من تمام توبتي أن أهجّر دار قوم أصبت فيها الذنب ، وأن أخلع من
مالى .

— يكفيك الثلث أن تتصدق به .

ولم يأمره — ﷺ — أن يهجّر تلك الدار التي أصاب فيها الذنب ،
وراح المسلمون يتلون في المساجد ما أنزل الله فيه : ﴿ وآخرون اعترفوا
بدنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم إن الله
غفور رحيم ﴾ (١) .

عاد عمرو بن العاص بعد غزوة الخندق إلى مكة فراحت الأفكار تنثال على رأسه ، وراح يفكر في تلك الريح التي هبت فاقتلعت حياهمم وكفأت قدورهم على أفواهاها وصارت تلقى الرجال على أمتعتهم وأطفأت نيرانهم بعد أن قلت بنو النضير أن تفخر في عهدهما لمحمد وصحبه وكاد النصر أن يتم للأحزاب ، فاستشعر في أعماقه أن قوة فائدة تسايّد ابن عبد الله وتمده بالعون وتؤيده ، وأن كل الدلائل لتدل أنه سيظهر على قومه وسيكون صاحب الكلمة العليا على قريش بل وعلى الأحزاب ١

وتقاصرت نفس عمرو وتذكر ما كان يفعله برسول الله عليه السلام أيام أن كان بمكة ؛ إنه كان يؤديه ويشتمه ويضع في طريقه الحجارة ، وبما طالما هجا رسول الله ﷺ — وآله هجاء كثيرا كان يعلمه صبيان مكة فيشدونه ويصيحون برسول الله إذا مر بهم رافعين أصواتهم بذلك الهجاء ، فقال رسول الله ﷺ — وهو يصلي بالحجر : « اللهم إن عمرو بن العاص هجاني ولست بشاعر ، فاعنه بعدد ما هجاني » . ورن في أعوار عمرو هجاء حسان بن ثابت له حيث هجاء مكافئا له عن هجاء رسول الله ﷺ — :

أبوك أبو سفيان لا شك قد بدت

لنا فيك منه بينات الدلائل

ففاخر به إما فحسرت ولا تكسن

تفاخر بالعاص المهجين^(١) بن وائسل

(١) المهجين : كرم الأب .

وإن التي ذاك بما عمرو حُكِّمَتْ
فَقَالَتْ رَجَاءٌ عِنْدَ ذَلِكَ لَنَائِلِ
مِنَ الْعَاصِ عَمْرُو تَخْبِرُ النَّاسَ كُلَّمَا
تَجَمَّعَتِ الْأَقْدَامُ عِنْدَ الْحَافِظِ

وتفصد العرق من جبينه فالطاعنون في نسبه يقولون إن أمه السابقة
كانت أمة لرجل من عزة فسيب ، فاشتراها عبد الله بن جدعان التيمي
مكة فكانت بغيا ، ثم أعتقها فوقع عليها أبو لب بن عبد المطلب وأمية بن
خلف الجمحي وهشام بن المغيرة المخرومي وأبو سفيان بن حرب والعاص
ابن وائل السهمي في طهر واحد ، فولدته فادعاه كلهم ، فحكمت أمه فيه
فقالت :

— هو من العاص بن وائل .

وذلك لأن العاص بن وائل كان ينفق عليها كثيرا ، وقال الطاعنون في
نسبه إنه أشبه بأبي سفيان !

وعمره خزي وخوف فقد ملأت رأسه صورته هو وعقبة بن أبي معيط
وعمر بن هشام وقد حملوا بينهم سلا^(١) حمل ووضعوه على رأس محمد
ابن عبد الله وهو ساجد بفناء الكعبة ، فصر ولم يرفع رأسه وبكى في
سجوده ودعا عليهم ، فجاءت ابنته فاطمة وهي باكية فاحتضنت ذلك
السلا فرفعته عنه فألقته وقامت على رأسه تبكي .

ورن في جنات عمرو قول محمد في ذلك الوقت : « اللهم عليك
بقريش ... إني مظلوم فانتصر ... إني مظلوم فانتصر » . فإذا بقشيرية

(١) كرش الجمل .

تسرى في ابن العاص من الرأس إلى القدم .

ورأى عمرو نفسه وقد حرح مع الذين خرجوا إلى زينب بنت محمد لما خرجت مهاجرة من مكة إلى المدينة فروعوها وقرعوا هودجها بكعوب الرماح حتى أجهضت جنبها ميتا من أبى العاص من الربيع .

وظافت بذهبه رحلته إلى الحبشة ؛ إنه خرج يريد الجاشي مع أصحاب السفينة ليأتي بمعمر وأصحابه إلى أهل مكة . وسرى في وحدانه ذلك الشعر الذي قاله لما حرح من مكة إلى الجاشي :

تقول ابنتي أين هذا الرحيل	وما السير منى بمستنكر
فقلت : دريسى فإني امرؤ	أريد الجاشي في جمع
لأكويته عنده كيئة	أقيم بها نخوة الأصعر ^(١)
وشأني أحمد من بينهم	وأقولهم فيه بالسكر
وأجرى إلى عتة جاهدا	ولو كان كالذهب الأحمر
ولا أشي عن بني هاشم	وما استطعت في الغيب والعصر
فإن قيل العتب منى له	والا لسويت له مشعري

إنه همما محمدا بسبعين بيتا من الشعر وأعلى عدلوته لبني هاشم فلا مقام له في مكة ، وهو يحس أن أمر محمد يعلو وأن مكة أصبحت قرية من قبضته ، فجمع رجالا من قريش كانوا يرون رأيه ويسمعون منه فقال لهم :

— والله إنى لأرى أمر محمد يعلو الأمور علوا مكررا ، وإنى قدرأيت رأيا فما ترون فيه ؟

— ما رأيت ؟

(١) الأصعر : الذي يميل بجلده كناية عن التكبر .

— أرى أن نلحق بالنحاشي فكون عده ، فإن ظهر محمد على قومه أقمنا عبد النحاشي ، فإن نكون تحت يده أحب إلينا من أن نكون تحت يد محمد ، فإن طهر قوما فحس من قد عرفوا قلن يأتيها مهم إلا خير .
— إن هذا الرأي .

— فاجمعوا ما يهدي له .

وكان أحب ما يأتيه من أرض الحجاز الأدم فجمعوا له أدما كثيرا ، فانطلقوا إلى مرفأ مكة وركبوا البحر وعمرو بن العاص يفكر فيما كان بينه وبين عمارة بن الوليد يوم أن خرجا معا إلى أرض الحبشة ليؤلبا النجاشي على جعفر بن أبي طالب وصحبه ، كان عمارة شاعرا عارما فأنكا وكان رجلا جميلا وسيما تنبوا النساء صاحب محادثة لمن ، فركبا البحر ومع عمرو بن العاص امرأته ، حتى إذا صاروا في البحر ليالي أصاب من الخمر معهما ، فلما انتشى عمارة قال لامرأة عمرو بن العاص :

— قبليني .

وكانت الخمر قد لعبت برأس عمرو فقال لامرأته :

— قبلي ابن عمك .

فقبلته فهو بها عمارة وجعل يراودها عن نفسها فامتنعت منه .

ورأى عمرو بعين خياله نفسه وقد جلس على سكاّن السفينة يبول فدفعه عمارة في البحر .

فلما وقع سبح حتى أخذ بسكاّن السفينة ، ورن في أذنيه قول عمارة كأنما قد أتى من جوف بحر :

— أما والله لو علمت أنك سابع ما طرحتك ، ولكسي كنت أظن أنك

لا تحسن السباحة .

وخفق قلب عمرو بين جسيه ، ومد بصره إلى الأفق البعيد وقد تحرك
 حقهده على أخفى خالده بن الوليد الذى أراد قتله ، وسرعان ما تذكر ما
 أرسل به إلى أبيه . إنه ما إن وطأت قدماه أرض الحبشة حتى أرسل إلى أبيه
 العاص بن وائل أن اخلعنى وتبرأ من جريرتى إلى بى المغيرة وسائر بنى
 مخزوم .

ورفت على شفتى عمرو بسمه خفيفة فقد علم بعد عودته أن أباه مشى
 إلى رجال بنى المغيرة وبنى مخزوم لما قدم عليه الكتاب فقال :

— إن هذين الرجلين قد خرجا حيث قد علمتم وكلاهما فانتك صاحب
 شر غير مأمونين على أنفسهما ولا أدرى ما يكون مهما ، وإلى أبرأ إليكم
 من عمرو وجريرته فقد خلعتهم .

فقال عند ذلك بنو المغيرة وبنو مخزوم :

— وأنت تخاف عمرا على عمارة أو نحن فقد خلعتنا عمارة وتبرأنا إليك
 من جريرته ، فخل بين الرجلين .
 — قد فعلت .

واتسعت اهتسامة عمرو والسفينة تمحر عباب الماء ، وإنه كان أذكى
 من أن يقتل عمارة وأن يثير العداوات بين بى سهم وبى المغيرة وبنى
 مخزوم . إنه داهية لم يعرض عنقه لسيف خالد بن الوليد ، فعمارة الوسيم
 الجميل ما اطمأن بأرض الحبشة حتى دب لامرأة النجاشى فأدخلته
 فاختلف إليها وجعل إذا رجع من مدخله ذلك يخبره بما كان من أمره
 فيقول :

— لا أصدقك أنك قدرت على هذا ، إن شأن هذه المرأة أرفع من
 ذلك .

ورأى من حاله وهيبته وما تصنع المرأة به إذا كان معها ، ما أكد له صدق قوله . إنه يأتيه مع السحر وكأنا في منزل واحد ، فلو احتال عليه ليأتيه بشيء لا يستطيع دفعه لرفع شأنه إلى الجاشي ولعله يحضر قره بأطافره ، فقال له في بعض ما يتذكرون من أمرها :

— إن كنت صادقا فقل لما قلته لك بدهن الجاشي الذي لا يدهن به غيره فأني أعرفه ، واثنى بشيء منه حتى أصدقك .
— أقفل .

ووقع عمارة الجميل الصبح الوسم في الفح الذي نصبه له ، فعاد من عدها يفوح منه أطيب عبر وقد أعطته شيئا في قارورة فقال له :
— أشهد أنك قد صدقت ! لقد أصبت شيئا ما أصاب أحد من العرب مثله قط ، ونلت من امرأة الملك شيئا ما سمعا بمثل هذا .
ثم سكت عنه حتى اطمأن ودخل على النجاشي فقال :

— أيها الملك إن ممي سعيها من سفهاء قريش وقد خشيت أن يعرني عندك أمره وأردت أن أعلمك بشأنه ، وألا أرفع ذلك إليك حتى أستثبت أنه قد دخل على بعض نسائك فأكثر ، وهذا دهنك قد أعطته وأذهن به .
فلما شم النجاشي الدهن قال :

— صدقت ، هذا دهني الذي لا يكون إلا عند نسائي .

فلما أثبت أمره دعا بعمارة ثم ألقاه في الأحراش ليهم على وجهه مع الوحوش ، وراح عمرو يفرك يديه سرورا وهو يعلو ويروح على ظهر السفينة فقد انتقم من عمارة شر انتقام دون أن يرتكب حماقة تثير الحروب بين بني سهم وبني المغيرة .

وراح يترجم بأبيات يذكر فيها ما صنع بعمارة وما أراد عمارة من

امرأته :

تعلم عمار أن من شر سنة
على المرء أن يدعى ابن عم له ابناً
أئن كنت ذا بردين أحوى مُرجلاً
فلست براع لابن عمك محرماً
إذا المرء لم يترك طعاماً يحبه
ولم ينه قلباً غاوياً حيث يمحما
قضى وطراً منه يسيراً وأصبحت
إذا دكرت أمثلاً تملأ العمما

ومرت أيام وليالي والسفينة تشق طريقها في الماء ، وعمرو بن العاص
يدكر ما كان بينه وبين ابن عبد الله وما كان بينه وبين المسلمين في الحشة
وفي مكة وفي المدينة أثناء يقظته ومسامه ، فلم يعد يشعل تفكيره غير
الإسلام ونبي الإسلام . وفي جوف الليل وقد أطبق الطلام على الكون
واحتفت نجوم السماء ، رأى نفسه وهو يسير في طرقات قصر الحاشي
يستأذن في الدخول عليه ، فلما أذن له قدم هدايا الملك إليه ثم قال :

— أيها الملك قد فر إلى بلادك ما علمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم
يدخلوا في دينك ، جاءوا بدين استدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا
فيهم إليك أشراف قوما من آبائهم وأعمامهم وعشائهم لتردهم عليهم
فهم أعلى بهم عيياً وأعلم بما عابوا عليهم وعابوه منهم .
وسرعان ما دوى في عير داته صوت جعمر بن أفي طالب وهو يكلم
الملك كأنه هزيم الرعد :

— أيها الملك إنا كنا قوما في جاهلية بعد الأصنام وبأكل الميتة وبأفنى

العواشش ونقطع الأرحام ونسئ الحوار وبأكل القوى منا الضعيف ، فكما على ذلك حتى بعث الله عز وجل علينا رسولا ما نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لوحيد ونعبده ونخلع ما كنا عليه نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان . وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن التحاور والكف عن المحارم والدماء ، وبها عن سائر العواشش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد الله لا نشرك به شيئا وبالصلاة والزكاة والصيام فصداقه وآما به واتباعه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده فلم يشرك به شيئا . وحرما ما حرم علينا وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قوما فعذبونا وفتنونا عن دينا لهدونا إلى عبادة الأصنام والأوثان من عبادة الله ونستحل ما كنا نستحل من الحباث . فلما قهرونا وظلموا وصيقوا علينا وحالوا بينا وبين ديننا خرجنا إلى بلدك واحترناك على من سواك ورعبنا في جوارك وروحونا ألا نظلم عندك أيها الملك .

وعجب عمرو بن العاص من نفسه ، فما أكثر أن رنت هذه المقالة في أعماقه فلم يعمل بها افعاله بها في ثلث الليلة ترى أيرجع تأثره إلى أنه حرج من مكة إلى الحبيشة وقد احتار بلد الحاشي وحوار الحاشي على من سواه كما فعل جعفر والذين معه من قتل ؟! إن جعفر اوصحبه قد فروا من اصطهاد قريش خشية أن يعتوا عن دينهم ، فما الذي دعاه إلى الفرار ؟ إنه يرى أمر محمد يعلو الأمور علوا منكرا وأن قريشا كلها مستصحو دات يوم لتحد نفسها في قبضته ، فهل تشخص الأيام عما يشئ فراسته وثاقب رأيه أم أنه قد فر من وهم ؟

وبعث من أعماقه صوت يتلو ﴿ كهيعص ﴾ ذكر رحمة ربك عبده

زكربا * إذ نادى ربه بداء خفيا * قال رب إني وهن العظم مني واشتعل
الرأس شيئا ولم أكس بدعائك رب شقيا * وإني خفت الموالي من ورائي
وكانت امرأتى عاقرا فهب لي من لدنك وليا * يرثني ويرث من آل يعقوب
واجعله رب رضيا ﴿١﴾ .

فأحس رقة تكشفه ومولد عبرات تزحف لتترق في عييه وبصيص نور
بجاهد ليتألق في ظلام فؤاده .

ورست السفينة فانطلق عمرو بن العاص إلى قصر صديقه الجاشي ، وبينما
هو ينتظر الإذن بالدخول إذ قدم عمرو بن أمية الصمري وكان رسول الله —
عليه السلام — بعثه إلى الجاشي في شأن جعفر بن أبي طالب وأصحابه .

ودخل عمرو بن أمية ليحبر الجاشي أن رسول الله عليه السلام يطلب عودة
جعفر وأصحابه بعد أن استقر الإسلام في المذمة وأيده الله ببصره ، فجعل
الجاشي يصفى إلى الصمري متהל الأसारير وقد وعد بأن يحمل المسلمين إلى
رسول الله — صلى الله عليه وآله .

وخرج عمرو بن أمية الصمري من عند الجاشي فقال عمرو بن العاص
لأصحابه :

— هذا عمرو بن أمية لو دخلت على الجاشي فسأنته إياه فأعطانيه فضربت
عقه ، فإذا فعلت ذلك رأيت قريش أني قد أجزأت عنها (قمت مقامها) ،
فقلت رسول محمد .

فدخل عمرو بن العاص عليه فسجد له ، فقال :
— مرحبا بصديقي أهديت إلى من بلادك شيئا ؟

— نعم أيها الملك . قد أهديت لك أدما كثيرة .

ثم قربه إليه فأعجبه واشتياه ، ثم قال له :

— أيها الملك إني قد رأيت رجلا حرح من عدك وهو رسول رجل
عدو لنا فأعطنيه لأقتله ، فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا .

فغضب الملك ثم مده فضرب بها أنفه ضربة ظن عمرو بن العاص أنه
قد كسره ، فلو انشقت له الأرض لدخل فيها فرقا من الملك ، ثم قال .

— أيها الملك والله لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتكه .

— أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الماموس الأكبر الذي كان

يأتي موسى لثقلته ؟

— أيها الملك أكذلك هو ؟

— إى والله ! أظننى وبحك واتبه فإنه والله لعل حق وليظهرن على من

خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجوده .

وترادفت على ذم عمرو بن العاص صور مثيرة : رأى أتباع محمد
عليه السلام يقتلون آباءهم وأبناءهم وإخوانهم وأعمامهم ما يزيدهم ذلك

إلا إيمانا وتسليما . ومضوا على الجادة والصراط المستقيم وصبروا على
مصصر الألم وجدوا في جهاد العدو ، ولقد كان الرجل منهم والآخر من

عدوهم يتصاولان تصاول الفحلين يتخالسان أنفسهما أيهما يسقى
صاحبه كأس الموت ، فمرة لهم من عدوهم ومرة لعدوهم منهم ، فلما

رأى الله صدقهم أنزل بعدوهم الكبت وأنزل عليهم النصر .

إنه ليحس الساعة أن الإسلام صدق وأن رسالة محمد — ﷺ —

حق . وإيم الله لتحبلنها قريش دما ولتبعنها دما ندما إن لم تدخل في دين
الله ، فقال عمرو للنجاشي :

— فبايعني له على الإسلام .

فبسط النحاشي يده فبايعه على الإسلام .

وأعرو رقت عينا عمرو بالدموع . إنه كان أشد الناس على رسول الله
— ﷺ ، فلو مات قبل أن يبايع النحاشي على الإسلام لوجبت له النار ،
وامتلاً رغبة في أن يتطلق إلى المدينة ليبايع رسول الله عليه السلام ، فخرج
إلى الميناء ليستقل سفينة تحمله إلى مكة ليأتي محمداً عليه صلوات الله
وسلامه ليبايعه على أن يغفر له ما تقدم من ذنبه .

أصاب الأشرف دما في الجاهلية فأقى المدينة فحالف بنى المصير فشرف
 منهم وتزوج عقيلة بنت أوى الحقيق فولدت له كعبا ، وكان طويلا جسيما
 ذا بطن وهامة ، وكان سعيدا مجيدا ، وكان ساد يهود الحجاز بكثرة ماله ،
 وكان يعطى أخبار اليهود ويصلهم ، فلما قدم النبي — ﷺ — المدينة
 جاءه أخبار يهود من قيقاع وبنى قريظة لأخذ صلته على عادتهم فقال لهم :
 — ما عندكم من أمر هذا الرجل ؟

— هو الذى كما ننتظر ما أنكرنا من نعوته شيئا .

— قد حرمتم كثيرا من الخير فارجعوا إلى أهليكم فإن الحقوق في مالى
 كثيرة .

فرجعوا عنه خائبين ثم رجعوا إليه وقالوا له :

— إنا أعمحلك فيما أحبرناك به ، ولما استأنا علما أنا غلطنا وليس هو
 المتظر .

فرضى عنهم ووصلهم وحمل لكل من تابعهم من الأخبار شيئا من
 ماله .

ولما انتصر — ﷺ — يوم بدر ، وقدم زيد بن حارثة وعبد الله بن
 رواحة مشريين لأهل المدينة بذلك وصاروا يقولون قتل فلان وفلان وأسر
 فلان وفلان من أشراف قريش ، صار كعب يكذب في ذلك ويقول :
 — هؤلاء أشراف العرب وملوك الناس . والله إن كان محمد قتل هؤلاء
 (غروة الخندق)

القوم فبطن الأرض حير من ظهرها .

فلما تبين الخبر خرج حتى قدم مكة فجعل يهجو رسول الله — ﷺ — والمسلمين ويمدح عدوهم ويحرضهم عليه وينشد الأشعار ويكلى من قتل ييدر من أشرف قريش ، فقال — ﷺ :
— اللهم اكفنى ابن الأشرف بما شئت .

كان كعب بن الأشرف قد وضع رحله عند عبد المطلب بن وداعة ، وأكرمه زوجته عبد المطلب وهي عاتكة بنت أسيد ، فدعا رسول الله — ﷺ — حسان وأخبره بذلك فهجا المطلب وزوجته ، فلما بلغها هجاء حسان ألقت رحله وقالت :

— ما لنا ولهذا اليهودى ؟

وصار كلما تحول عند قوم من أهل مكة صار حسان يهجوهم فيلقون رحله ، فاضطر إلى أن يعود إلى المدينة . فلما وصل إلى المدينة لم يمكس لسانه وصار يشيب بنساء المسلمين حتى آداهن ، فقال رسول الله — ﷺ :
—

— من يتدب لقتل كعب بن الأشرف ؟ إنه يؤدى الله ورسوله .
فقال له محمد بن مسلمة الأوسى :

— أيا لك به يا رسول الله ، هو خالى أنا أقتله .

وخرج محمد بن مسلمة إلى نفر من الأوس إلى كعب بن الأشرف فقتلوه ، وعند ذلك أصبحت يهود مذعورين فأتوا السبي — ﷺ — فقالوا :

— قتل سيدنا غيلة .

فذكر لهم النبي ﷺ — صبيعه من التحريض عليه وأذنه المسلمين فازدادوا خوفاً .

ولما قُتِلَ سريّة محمد بن مسلمة — وكانت من الأوس — كعب بن الأشرف الأوسى ، تذاكر الخزرج من يشابه كعب بن الأشرف في العداوة لرسول الله ﷺ — من الخزرج ، فذكروا أبا رافع سلام بن أبي الحقيق لأنه كان يؤذى رسول الله ﷺ ، ولأنه كان ممن أعان غطفان وغيرهم من مشركي العرب بالمال الكثير على رسول الله ﷺ ، وهو الذي حزب الأحزاب يوم الخندق .

كان الأوس والخزرج يتخاصمان فيما يقرب إلى الله وإلى رسول الله ﷺ ، لا تفعل الأوس شيئاً من ذلك إلا فعلت الخزرج بطيره ويقولون — والله لا يذهبون بها فضلاً علينا أبداً .

فانتدب لقتل ابن أبي الحقيق حمزة من الخزرج هم عبد الله بن عتيك ومسعود بن سنان وعبد الله بن أبيس وأبو قتادة الحارث بن ربيعة وحراعى ابن أسود حليف لهم من أسلم ، واستأدوا رسول الله ﷺ — في أن يتكلموا بما يتوصلون به إليه من الحيلة فأذن لهم وأمر عليهم عبد الله بن عتيك ، وأمرهم أن لا يقتلوا وليداً ولا امرأة .

فخرجوا حتى قدموا حبير فكموا ، فلما هدأت الرجل جاءوا إلى منزله فصعدوا درجة له ، وقدموا عبد الله بن عتيك لأنه كان يربط باليهودية فاستفتح وقال :

— جئت أبا رافع بهدية .

ففتحت له امرأته وقالت :

— ذاكم صاحبكم فادخلوا عليه .

فلما دخلوا عليه أغلقوا عليهم وعليها باب الحجره ، فلما رأت السلاح أرادت أن تصيح فأشار إليها ابن عتيك بالسيف فسكتت ووجدوه وهو على فراشه ما دلم عليه في الظلمة إلا بياضه كأنه قطبية بيضاء ، فابتدروا بأسياقهم ، ووضع عبد الله بن أنيس سيفه في بطنه وتحامل عليه حتى أنقذه وهو يقول :

— قطبي قطني (يكمنى بكفى) .

وعند ذلك صاحبت المرأة ، فلما صاحبت جعل الرجل مهم يرفع عليها صيحه ثم يتذكر نبي رسول الله — ﷺ — فيكف يده . وخرجوا من عنده وكان عبد الله بن عتيك رجلا من البصر فوقع من الدرجة فوثبت رجله وثبا شديدا ، فحملته صاحبه حتى أتيا محلا استحفوا فيه ، وكان ذلك المحل من أميينم التي يلقون فيها كاساتهم .

وصك صباح المرأة آذان القوم فهرعوا إليها ، فلما علموا بمقتل ابن أبي الحقيق أوقفوا البراء وتفرقوا في كل وجه يطلبونهم . كانوا ثلاثة آلاف يحملون المشاعل يتلفتون كأنهم كلاب صيد ، حتى إذا أيسوا رجعوا إلى ابن أبي الحقيق فاكتفوه وهو بينهم يحود بنفسه .

وقال بعض المسلمين لبعض :

— كيف نعلم أن عدو الله مات ؟

— أنا أذهب فأنظر لكم .

فانطلق حتى دخل في السور فوجد امرأة ابن أبي الحقيق تنظر في وجهه وفي يدها المصباح ، ورجال يهود حوله وهي تحدثهم وتقول :

— أما والله لقد سمعت ابن عتيك ثم أكذبت نفسي .

ثم أقبلت تنظر في وجه روجها ثم قالت :

— فاضت وإله يهود .

وتيقن الرجل أن ابن أبي الحقيق قد فاضت روحه ، فما سمع من كلمة كانت ألد إلى نفسه منها .

ثم جاء وأخبر أصحابه فوجد ابن عتيك قد عصب رجله وانطلق حتى جلس على الباب ، وقال :

— لا أحرص الليلة حتى أعلم أي قتلته أولا .

فلما صاح الديك قام الساعى على السور فقال :

— أهي أبا رافع تاجر أهل الحجاز .

فقام ابن عتيك يمشى لا يحس بالألم لما هو فيه من الاهتمام . ولما وصل إلى أصحابه وعاد عليه المشى أحس بالألم ، فحمله أصحابه حتى قدموا المدينة على البى — عليه السلام ، فلما رأهم قال :

— أفلحت الوجوه .

قالوا :

— أفلح وجهك يا رسول الله .

وأخبروه بقتل ابن أبي الحقيق واختلفوا عده — عليه السلام — في قتله كل منهم ادعاه ، فقال رسول الله — عليه السلام :

— هاتوا أسيافكم .

فجاءوه بها فنظر إليها فقال لسيف عبد الله بن أنيس :

— هذا قتله ، أرى فيه أثر الطعان .

وقال حسان بن ثابت في قتل سلام بن أبي الحقيق وكعب بن الأشرف :

يا ابن الحقيق وأنت يا ابن الأشرف	لله در عصابة لا قيتهم
مرحاً كأسد في عرين مُعَرَف ^(١)	يسرون بالبيض الخفاف إليكم
فسقوكم ختفاً بيض دُفَع ^(٢)	حتى أنوكم في محل دياركم
مستصغرين لكل أمر مجحف ^(٣)	مستصغرين لنصر ديس سيهم

(١) البيض الرقاق . السيوف . مرحاً : شطاً . العرين : عابدة الأسد .
ومعروف : ملفف الأعصان .

(٢) يبيض دمع : سيوف سريعة القتل .

(٣) مجحف : ذاهب بالنفوس والأموال .

جاء الليل وصل المسلمون العشاء خلف رسول الله ﷺ ،
 واصصرف الناس إلى دورهم ، ولكنهم لم يصرفوا عنه ، فقد صار الله في
 وجدانهم يذكرونه قياما وقعودا وعلى حوبهم . وفي جوف الليل راح
 المؤمنون والمؤمنات يدعون ربهم وقد تعلقت به أقدتهم ، فالارتجاع إلى
 السع الروحي وقرع أبواب الملكوت بملاً الصدور نورا على نور .
 وراح رسول الله ﷺ عليه صلوات الله وسلامه يقول :

— سبحانه ربي العلي الأعلى الوهاب ، لا إله إلا الله وحده لا شريك
 له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، رب كل
 شيء ومليكه ، أشهد أن لا إله إلا أنت . أعوذ بك من شر نفسي وشر
 الشيطان وشركه .

اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي ، اللهم
 استر عورتي وآمن روعاتي وأفل عثراي واحفظني من بين يدي ومن خلفي
 وعن يميني وعن شمالي ومن هوق ، وأعوذ بك أن أعتال من تحتني .

اللهم لا تؤمسي مكرك ، ولا تولني عيرك ، ولا تنزع عني سترك ، ولا
 تنسي ذكرك ، ولا تجعلني من العافلين

اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت . خلقتني وأنا عبدك ، وأنا على عهدك
 ووعدك ما استطعت . أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بمعصيتك على
 وأبوء بذنبي ، فاعف عني فإنه لا يحضر الذنوب إلا أنت .

اللهم عافني في بدني وعافني في سمعي وعافني في بصري ، لا إله إلا أنت . اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء ، وبرد العيش بعد الموت ، ولذة النظر إلى وجهك الكريم ، وشوقاً إلى لقائك من غير ضراء مضرة ، ولا فتنة مضلة ، وأعوذ بك أن أظلم أو أظلم أو أعشى أو يعشى علي ، أو أكسب خطيئة أو ذنبا لا تغفره .

اللهم إني أسألك الثبات في الأمر ، والعزيمة في الرشد ، وأسألك شكر نعمتك ، وحسن عبادتك ، وأسألك قلبا حاشعا سليما ، وحلقا مستقيما ، ولسانا صادقا ، وعملا متقبلا ، وأسألك من خير ما تعلم ، وأعوذ بك من شر ما تعلم ، وأستغفرك لما تعلم ، فإنك تعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب .

اللهم اعمر لي ما قدمت وما أحرت ، وما أسررت وما أعلمت ، وما أنت أعلم به مني فإنك أنت المقدم وأنت المؤخر ، وأنت على كل شيء قدير ، وعلى كل غيب شهيد .

اللهم إني أسألك إيمانا لا يرتد ، وبيما لا يعد ، وقرة عين الأبد . اللهم إني أسألك الطيبات ، وفعل الخيرات ، وترك المنكرات وحب المساكين . أسألك حبك ، وحب من أحبك ، وحب كل عمل يقرب إلى حبك ، وأن تتوب علي وتعلم لي وترحمي ، وإذا أردت بقوم فتنة فاقبضي إليك غير مفتون .

اللهم بعلمك الغيب ، وقدرتك على الخلق ، أحیی ما كانت الحياة خيرا لي ، وتوفی ما كانت الوفاة خيرا لي . أسألك خشيتك في الغيب والشهادة ، وكلمة العدل في الرضا والنصب ، والنقص في النفس والفقر ، ولذة النظر إلى وجهك ، والشوق إلى لقائك ، وأعوذ بك من

ضراء مضرة ، وفتنة مضلة .

اللهم زيننا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين ، اللهم اقسم لنا من حشيتك ما نحول به بيننا وبين معاصيك ، ومن طاعتك ما تلغنا به حنتك ، ومن اليقين ما نهون به علينا مصائب الدنيا والآخرة .

اللهم املأ وجوهنا منك حياء ، وقلوبنا منك فرقا ، وأسكن في نفوسنا من عظمتك ما تذلل به جوارحنا لخدمتك ، واجعلك اللهم أحب إلينا ممن سواك ، واجعلنا أحسنى لك من سواك .

اللهم اجعل أول يومنا هذا صلاحا ، وأوسطه فلاحا ، وآخره نجاحا . اللهم اجعل أوله رحمة ، وأوسطه نعمة ، وآخره تكرمة ومغفرة . الحمد لله الذي تواضع كل شيء لعظمته ، وذل كل شيء لعزته ، وخضع كل شيء لمملكته ، واستسلم كل شيء لقدرته . والحمد لله الذي سكر كل شيء لهيته ، وأطهر كل شيء بحكمته ، ونصاغر كل شيء لكبريائه .

اللهم بقدرتك على تب على إنك أنت الثواب الرحيم ، وبحلمك عني اعف عني إنك أنت الغفار الخليم ، وبعلمك في ارفق في إنك أنت أرحم الراحمين ، وبملكك في مكنتي نفسي ولا تسلطها على إنك أنت الملك الخبار . سبحانهك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت تحملت سوءا وظلمت نفسي ، فاغفر لي ديبى ، إنك أنت ربي ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت . اللهم ألهمني رشدى وقنى شر نفسى . اللهم ارزقنى حلالا لا تعاقبى عليه ، وقمنى بما رزقتنى ، واستعملنى به صالحا تقبله منى . أسألك العفو والعافية وحسن اليقين والمعافة في الدنيا والآخرة ، يا من لا تضره الذنوب ولا تنقصه المغفرة ، وهب لي ما لا يضررك ، وأعطني ما لا ينقصك .
ربا أفرع علينا صبرك وتوفا مسلمين . أنت ولي في الدنيا والآخرة

توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين . أنت وليا فاعف عننا وارحما وأنت خير
الغافرين . واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة إنا هدنا
إليك . ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير .

ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ، ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واعف
لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم . ربنا اغفر لنا دنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت
أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين .

ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلا
للذين آمنوا ، ربنا إنك رؤوف رحيم . ربنا آتانا من لدنك رحمة وهبنا لنا
من أمرنا رشداً . ربنا آتانا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقمنا عذاب
ال نار . ربنا إنا سمعنا منادياً ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاعف
لنا دنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوعدنا مع الأبرار . ربنا وآتانا ما وعدتنا على
رسلك ولا تحزننا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد .

كان يقوم الليل ويناحى ربه أثناء الليل وأطراف النهار . وكانت عبه
تنام ولا ينام قلبه فأنكشف له الأمر وفاص على صدره النور ، فمس كان الله
كان الله له ، وكان أسوة حسنة لأتباعه فكانت عائشة أم المؤمنين تدعو :
— اللهم إني أسألك من الخير كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم
أعلم ، وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم ،
وأسألك الحمة وما قرب إليها من قول وعمل ، وأعوذ بك من النار وما
قرب إليها من قول وعمل ، وأسألك من الخير ما سألك عبدك ورسولك
محمد — ﷺ ، وأسألك ما قصيت لى من أمر أن تجعل عاقبته رشداً
برحمتك يا أرحم الراحمين .

وقال رسول الله ﷺ — لفاطمة الزهراء سيدة نساء المؤمنين .
 — يا فاطمة ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيك به أن تقولي : يا حي يا قيوم
 برحمتك أستغيث ، لا تكلي لي نفسي طرفة عين وأصلح لي شأني كله .
 وعلم رسول الله ﷺ — أبا بكر الصديق أن يقول :
 — اللهم إني أسألك محمد نبيك ، وإبراهيم خليلك ، وموسى
 نبيك ، وعيسى كليمك وروحك ، بتوراة موسى ، وإنجيل عيسى ،
 وزبور داود ، وفرقان محمد ، وبكل وحى أوحيت . أو قضاء قصيته ، أو
 سائل أعطيته ، أو غنى أفقرته ، أو فقير أغنيته ، أو ضال هديته ، وأسألك
 باسمك الذي أنزلته على موسى ، وأسألك باسمك الذي بثت به أرزاق
 العباد ، وأسألك باسمك الذي وضعت على الأرض فاستقرت ، وأسألك
 باسمك الذي وضعت على السماء فاستقرت ، وأسألك باسمك الذي
 وضعت على الجبال فرست ، وأسألك باسمك الذي استقل به عرشك .
 باسمك الطهر الطاهر الأحد الصمد الوتر ، المنزل في كتابك من لدنك من
 النور المين ، وأسألك باسمك الذي وضعت على النار فاستنار ، وعلى الليل
 فأطلم ، وبِعَظمتك وكبريائك ، وبنور وجهك الكريم ، أن ترزقني
 القرآن والعلم به وتخلطه بلحمي ودمي وسمعي وبصري ، وتستعمل به
 جسدي بحولك وقوتك ، فإنه لا حول ولا قوة إلا بك يا أرحم الراحمين .
 وقال — ﷺ — لبُرَيْدة الأسلمي :
 — يا بريدة ألا أعلمك كلمات من أراد الله به خيرا علمهن إياه ، ثم لم
 يُنسهن إياه أبدا ؟
 — بلى يا رسول الله .

— قل اللهم إني ضعيف فقو في رضاك ضعفي ، وأخذ إلى الخير

بناصيتي ، واحمل الإسلام مني رضى . اللهم إني ضعيف فقوى ، وإني
دليل فأعزنى ، وإني فقير فأغننى ، يا أرحم الراحمين .
وراح أبو الدرداء يدعو عما علمه رسول الله ﷺ :

— اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت ، عليك توكلت وأنت رب العرش
العظيم . لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . ما شاء الله كان وما يشأ لم
يكن . أعلم أن الله على كل شيء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً ،
وأحصى كل شيء عدداً . اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي ، ومن شر كل
دابة أنت أخذ بناصيتها ، إن ربي على صراط مستقيم .

كانوا في الليل يتوجهون بكل قلوبهم إلى الله فتهب عليهم نسائم الألفاف
وتنكشف الحجب عن أعين الأفتدة بلطف حفي من الله تعالى ، فيلمع في
القلوب من وراء ستر الغيب شيء من غرائب العلم كالبرق الخاطف ،
وتتلا في حقائق الأمور الإلهية . ولا غرو فقد كانوا يعيشون في الله وبالله
والله . يدعونه مخلصين له الدين فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل
منكم من ذكر أو أنثى بعضهم من بعض . فالذين هاجروا وأخرجوا من
ديارهم وأوذوا في سبيل وقاتلوا وقتلوا لا أكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم
جنت تجري من تحتها الأنهار . ثوابا من عند الله والله عنده حسن الثواب .

اجتمعت قريش يوما في عيد لهم عند صمم من أصنامهم كانوا يعظمونه
 ويحرون له ويعكفون عنده ويلبسون به ، وكان ذلك عيدا لهم في كل
 سنة يوما ، فخلص منهم أربعة نفر نجيا هم ورقة بن نوفل وعبيد الله بن
 جحش — وكانت أمة أميمة بنت عبد المطلب — وعثمان بن الحويرث بن
 أسد وريد بن عمرو بن نفيل ، ثم قال بعضهم لبعض :
 — تصادقوا وليكنم بعضكم على بعض .
 — أجل .

— تعلموا والله ما قومكم على شيء ! لقد أحطوا دين أبيهم إبراهيم !
 ما ححرر تطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يصر ولا يبع ! يا قوم اتمسوا
 لأنفسكم دينا فإياكم والله ما أنتم على شيء .
 فتفرقوا في البلدان ينتمسون الحيفية دين إبراهيم ، فأما ورقة بن نوفل
 فاستحکم في الصرانية واتبع الكتب من أهلها حتى علم عدما من أهل
 الكتاب ، ومات قبل أن يؤمر رسول الله — ﷺ — بأن ينذر عشيرته
 الأقرين .

وأما عثمان بن الحويرث فقدم على قيصر ملك الروم توجه وولاه أمر
 مكة ، فلما جاءهم بذلك أنفوا أن يدينوا للملك وصاح الأسود بن أسد بن
 عبد العزى :
 — ألا إن مكة حى لقاح لا تدين للملك .

فلم يتم له مراده فعاد إلى قيصر وتصر وحسنت منزلته عنده ، وكان

يقال له البطريق . ومات بالشام مسموما سمه عمرو بن جفنة الفسائي الملك .

وأما زيد بن عمرو بن نفيل فوقف فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية ، وفارق دين قومه فاعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التي تذبح على الأوثان ، ونهى عن قتل الموعودة وقال :
— أعبد رب إبراهيم .

ونادى قومه يعيب ما هم عليه ، وكان يسد طهره إلى الكعبة ويقول :
— يا معشر قريش ، والذي نفس زيد بن عمرو بيده ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غمري . اللهم لو أن أعلم أى الوجوه أحب إليك عبدتك به ولكنى لا أعلمه .
ثم يسجد على راحته . ومات زيد قبل أن يبعث رسول الله عليه السلام .

وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الانتباس وتزويج رملة بنت أمي سفيان زعيم مكة وسيد بني أمية ، وكان الزفاف يبيع بسيلة حرب بن أمية وسيل بن أسد وبني هاشم ، وما انقضت شهور حتى ذاع في مكة نبأ اتصال محمد بن عبد الله بالسماء ونزول الوحي عليه ، فطعى هذا الحدث العظيم على كل الأحداث .

وانقسمت مكة إلى فريقين فريق آمن بالله ورسوله وفريق كفر عما جاء به ابن عبد الله ، وكان على رأس ذلك الفريق أبو سفيان بن حرب . وشرح الله صدر رملة للإسلام وألقى في قلبها أنوار اليقين فأمنت برسالة السماء ، ودخل زوجها عبيد الله بن جحش في دين الله .

وكاد أبو سفيان أن يحزن لما اكتشف أن ابنته رملة صبأت عن دين قومها

وأنها قد تبعت دين أى كبشة ، فعذا يحاول أن يشيها عن عزها ليححو ما لحقه من خرى ، ولكنها ثبتت على دين محمد وعجز أبو سفيان عن أن يعتبها أمام إرادتها الصلبة التى رادها الإيمان قوة ومضاء .

ووثبت القبائل على من أسلم منها فاحتمل المسلمون ألوان العذاب وذاقوا مرارة الاضطهاد ، حتى إذا ما طفح الكيل فكروا فى الفرار بدينهم فاستأذنوا رسول الله فى الهجرة فأذن لهم أن يهاجروا إلى الحبشة ، فهاجر عبيد الله بن جحش فيمس هاجر وحمل زوجه رملة وكانت حاملا ، حتى إذا ما استقروا فى الحبشة وضعت رملة ما فى بطنها فكانت أنثى ، وكانت حبيبة بنت عبيد الله فكنيت بها فأصبحت تدعى أم حبيبة .

وكان المسلمون فى أرض العرب يتراورون ، فكانت أم حبيبة وأم سلمة وأسماء بنت عميس روح جعفر بن أبى طالب ورقية بنت رسول الله — ﷺ — يتمتع ويتذكر أيام مكة وفى القلوب حنين وفى العيون دموع وفى الخلوقة عصف . وما كان يخفف عيش أسى العرب إلا لإيمانهم العميق بأنهم على الصراط وأنهم يتحمل ما يتحمل فى سبيل الله ومروضة لرب العالمين .

وراح عبيد الله يختلف إلى الرهبان والقساوسة ويطلب المكث معهم فكان يعجب بهم على مر الأيام ، وذات ليلة أدخلت أم حبيبة محدها فنامت فرأت عبيد الله بأسوأ صورة ، فقامت من نومها مغزوعة مهورة الأنفاس ، ولم يسكن روعها أبدا فقد حمر الحلم المروع فى وجدانها حتى صار أصدق من الحقيقة وأعظم أثرا من الواقع الذى كانت تعيش فيه .

وفى الصباح جاءها تأويل ما رأت ، قال لها عبيد الله إنه ارتد عن الإسلام وإنه اعتنق المسيحية ، وحاول أن يردّها عن الإسلام فأبوت

وصبرت على دينها .

وكان لا بد من الفراق فاعتكفت أم حبيبة في دارها لا تزور ولا تزار
تمضى سحابة نهارها تمضغ أساها وتقوم الليل تاحي رها وتبته همومها
وتشكو إليه حالها ، فهي لا تستطيع أن تعود إلى مكة ليفتنها أبوها عدو
الإسلام اللدود عن دينها ، ولا تستطيع أن تهجر إلى المدينة فهي لا تريد أن
تكون كلا على ربيب بنت جحش أخت روحها عبيد الله .

وهزم الله الأحراب وحده ونزلت سو قريظة على حكم رسول الله —
ﷺ ، وبلغه عليه السلام أن أم حبيبة بت أفي سفيان المسلمة المؤمنة التي
هاحرت في سبيل الله إلى الحبشة تعيش في العربة وحدها بعد أن ارتد
زوجها عن دينه ، فرأى أن يكرمها وأن يحزبها حيرا عن صبرها وعن
تمسكها بأهداب دينها . فعزم على أن يتزوجها وأن يشرفها بأن تكون أما
للمؤمنين .

كانت أم حبيبة قد تحاورت الأربعين وما كانت رائعة الجمال ، ولكنه
عليه السلام قد وطم العزم على أن يرفعها فوق مكانتها لو أنها طلعت على دين
قومها واستقرت في بيت أفي سفيان ، وإبه بذلك الزواح سيحقق إحدى
الحسينين : جدع أنف أبيها عدوه اللدود ، أو أن يلين قلبه الغليظ فيشرح
صدره للإسلام .

وبعث رسول الله — ﷺ — فيها إلى النجاشي عمرو بن أمية
الضمري ، فيها كانت أم حبيب في دارها تفكر في وحدتها وفيما صار إليه
أمرها بعد أن هاجر ابن خالها عثمان بن عفان إلى المدينة ، إذ برسول
النجاشي حارية يقال لها أبرهة كانت تقوم على ثيابه ودهه تستأذن عليها ،
فاذنت لها فقالت :

— إن الملك يقول لك إن رسول الله — ﷺ — قد كتب إلى أن أزوجك .

فأحسنت أم حبيبة بالفرح بغيرها ولم تستطع أن تسيطر على عواطفها ، فقالت وهي متفرحة متهللة :

— بشرك الله بغير .

— يقول لك الملك وكل من يزوجك .

فأرسلت إلى خالد بن سعيد فوكته ، وأعطت أبرة سوارى فضة كانا عندها وحوام فضة كانت في أصابعها سرورا بما بشرتها .

فلما كان العشي أمر النجاشي جعفر بن أبي طالب ومن هناك من المسلمين يحضرون ، وخطب النجاشي بعد أن بايع عمرو بن العاص على الإسلام فقال :

— الحمد لله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار .
وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمد رسول الله ، وأنه الذي بشر به عيسى ابن مريم . أما بعد فإن رسول الله — ﷺ — كتب إلى أن أزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان فأجبت إلى ما دعا إليه رسول الله عليه السلام ، وقد أصدقها أربعمائة دينار .

ثم سكب الدنانير بين يدي القوم ، فتكلم خالد بن سعيد فقال :
— الحمد لله أحمدوه وأسمعوه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

أما بعد فقد أجبت إلى ما دعا إليه رسول الله — ﷺ — وزوجته أم حبيبة بنت أبي سفيان فبارك الله لرسوله .

ودفع النجاشي الدنانير إلى خالد بن سعيد فقضها ، ثم أرادوا أن يقوموا فقال النجاشي :

— اجلسوا فإن سنة الأنبياء عليهم السلام إذا ترو حوا أن يؤكل طعام على الترويح .

فدعا بطعام فأكلوا ثم تفرقوا . وعدا المسلمون الذين كانوا بالحبيشة يتأهبون للهجرة إلى المدينة فقد استقر بها الإسلام ، وكانوا في شوق إلى لقاء رسول الله — ﷺ — والأحبة ، وكانت أم حبيبة أكثرهم شوقا وهفة ، فما إن تدخل دور النبي عليه السلام حتى تصيح أم حبيبة أم المؤمنين ، وإنها لأمنية غالية قد نالتها بإيمانها وصبرها وإنه لشرف عظيم بتقاصر دونه كل شرف .

تأهب رسول الله ﷺ — للخروج من داره فراح يقول :
 — اللهم إني أعوذ بك من البخل ، وأعوذ بك من الجبن ، وأعوذ بك
 من أن أرد إلى أرذل العمر ، وأعوذ بك من فتنة الدنيا ، وأعوذ بك من
 عذاب القبر . اللهم إني أعوذ بك من طبع يهدي إلى طمع ، ومن طمع في
 غير مطمع ، ومن طمع حيث لا مطمع .

اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ، وقلب لا يخشع ، ودعاء لا
 يسمع ، ونفس لا تشبع . وأعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع ، ومن
 الحيانة فإنه بئس الطائنة .

وخرج عليه السلام إلى أصحابه فبعث محمد بن مسلمة إلى القرطاء
 وهم بنو بكر بن كلاب في ثلاثين راكبا ، فإذا برهبان الليل يصيحون في
 غمضة عين فرسان النهار ، وأمره أن يسهو الليل ويكمن النهار ، وأمره أن
 يشن عليهم الغارة ، فقد كان عليه السلام يبعث السرية في إثر السرية إلى
 القبائل التي تنجم لقتال المسلمين قبل أن تلم فعلها ، وكانت مفاجأة
 الأعداء في عقر دورهم تحبط كل عمل وتلقى الرعب في قلوب أعداء
 الإسلام .

وسار محمد بن مسلمة الليل وكمن النهار ، وصادف في طريقه ركبانا
 نازلين فأرسل إليهم رجلا من أصحابه يسأل من هم ؟ فذهب الرجل ثم
 رجع إليه فقال :

— قوم من عذرة .

فتزل قريبا منهم ثم أمهلهم حتى إذا بركوا الإبل حول الماء أعار عليهم فقتل نفرا منهم وهرب سائرهم ، واستاق نعما وشاء ولم يتعرض للنساء ، ثم انطلق حتى إذا كان بموضع يطلعه على بى بكر بعث عابد بن بشير إليهم ، وخرج محمد بن مسلمة في أصحابه فشن عليهم الغارة فقتل منهم عشرة واستاقوا النعم والشاء ، وأخذوا فيمن أخذوا ثمانية بن أنال الحنفى من بى حنيعة وكان سيد أهل الثمامة وهم لا يعرفونه .

وانحدر محمد بن مسلمة والدين معه إلى المدينة فخمس رسول الله — ﷺ — ما جاء به وعدل الخروز بعشرة من النعم ، وكان النعم مائة وخمسين بعيرا والنعم ثلاثة آلاف شاة .

وحىء بثمامة إلى رسول الله — ﷺ — فقال لهم :

— أتدرون من أحذتم ؟ هذا ثمامة بن أنال الحنفى فأحسنوا إيساره .
فربط بسارية من سواري المسجد ، فدخل — ﷺ — على أهله فقال :

— اجمعوا ما كان عندكم من طعام فامضوا به إليه .

وأمر له — ﷺ — بناقية يأتيه ليها مساء وصباحا ، وما كان ذلك الطعام ليرضى سيد أهل الثمامة . وكيف يقع طعام الزاهدين عند من اعتاد أن ينحر كل يوم شاة موقعا من كفافته ؟

وجاء إليه رسول الله — ﷺ — فقال :

— ما لك يا ثمام ، هل أمكن الله منك ؟
— قد كان ذلك .

وامتصر ثمامة مربوطا بسارية من سواري المسجد يرى صلاة المسلمين ويصلى إلى أحاديث رسول الله — ﷺ — ، ويمتلى عجباً باجتماع رسول الله

كل ليلة بأهل الصفة من فقراء المسلمين الذين انقطعوا للعبادة بالمسجد .
إنه لا يأكل إلا معهم ويسخ عليهم عطفه وبغمرهم بحان لا يتدفق إلا من
قلب كبير .

وصار رسول الله — ﷺ — يأيته فيقول :
— ما عندك يا ثمامة ؟

— يا محمد عندي خير : إن تقتل تقتل ذا كرم ، وإن تعف تعف عن
شاكرك ، وإن كنت تريد المال فسل تعط ما شئت .

وكان أهل الصفة يلقون سمعهم إلى هذا الحوار فيقولون :
— نبيا — ﷺ — ما يصنع بدم ثمامة ، والله لأأكله جزور سمينة من
فدائه أحب إلينا من دم ثمامة .

وانصرف عنه رسول الله — ﷺ — ، وما كان عليه السلام يفكر في أكلة
جزور سمينة بل كان يحب أن يهدي الله سيد أهل الإمامة إلى الإسلام ، فالإمامة
في أرض اليمن كانت ريفاً لأهل مكة إنما تمدهم بالحنطة ، فالإسلام سيد الإمامة
يهدد قريش بقطع الحرة عنهم .

ونقضى يومان والحوار دائر بين رسول الله عليه السلام و ثمامة .
وبذور من الإيمان تلقى في أعماق سيد أهل الإمامة وأحقاد الرجل
تكشط بركة رسول الله — ﷺ — ، ثم إن رسول الله — ﷺ — في اليوم
الثالث قال :

— أطلقوا ثمامة .

ثم التفت إلى ثمامة وقال :

— قد عفوت علك يا ثمامة .

لم يطلب منه مالا بل أطلق سراحه دون مقابل وهو يعلم أن أهل الإمامة

أشدّ الناس بغضا له ولرسالته . إن سيد بنى الإمامة مبهور بسماحة نبي الإسلام وكرمه . إنه قد سعد وهو في إيساره بالحكمة التي كانت تندفق من فم ابن عبد الله ... إنه استشعر كأن النور المبعث من مسجد الرسول عليه السلام قد ملأ جوانحه وقاض ، فانطلق إلى ماء جار قريب من المسجد فأغسل وطهر ثيابه ثم دخل المسجد وقال في انفعال :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .

وسالت عبرات رقيقة على لحيته ، ثم دنا من رسول الله عليه السلام وقال :

— يا محمد والله ما كان على الأرض من وجه أبغض إليّ من وجهك ، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إليّ . والله ما كان على الأرض من دين أبغض إليّ من دينك ، فقد أصبح دينك أحب الدين كله إليّ . والله ما كان بلد أبغض إليّ من بلدك ، فقد أصبح بلدك أحب البلاد إليّ .

فلما أمسى جرى له بما كان يأتيه من الطعام فلم ينل منه إلا قليلا ولم يصب من حلاّب الناقة إلا يسيرا ، فعجب المسلمون فقال رسول الله ﷺ :

— هم تعجبون ؟ أمن رجل أكل أول النهار في متى كافر وأكل آخر النهار في متى مسلم ؟ إن الكافر ليأكل في سعة أمعاء وإن المسلم يأكل في متى واحد .

نحر قلب ثمامة فلم يعد مأخوذا بسحر الملموس والمرق المسموع ، بل تعلم مراقبة الصمير فاكسبت ذاته عمقا وخصبا وثراء فإذا بأنوار المعارف تشرق من باطن قلبه ، وإذا به يستشعر أنه قد انقرب من الله تعالى قربا بالمعنى والحقيقة والصفة ، وأن الله افتتح عليه من مزايا لطفه ورحمته

المبثولة بحكم الجود والكرم . وقد تيقن بعد أن ذاق حلاوة الإيمان أن القلوب المشغولة بغير الله لا تدخلها المعرفة بجلال الله ، وأنها محرومة من الكشف عن باب الفوز الأكبر .

نهل ثمامة من معين السوة فأصبح متفرحا بالله يعيش في الله وبالله ومع الله ، قد امتلأ فؤاده بحب رسول الله ﷺ — حتى إنه صار لا يطيق أن يفارقه . ولكن حتى متى يبقى سيد أهل الإمامة في المدينة ؟ وإذا بقي في المدينة أيعمل أمواله إليها ؟ إنه يرى أن عودته إلى الإمامة أكثر نفعا للإسلام من بقاءه مع صحابة رسول الله ﷺ . إنه هناك سيدعو قومه إلى دين الله وإبه لرجو أن يشرح الله صدورهم للإسلام ، ولكنه رأى أن يستشير رسول الله عليه السلام قبل أن يتخذ قرارا ، فأتى السى — ﷺ — وقال له :

— يا رسول الله إني خرجت معتمرا وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة ، فإذا ترى ؟

فأمره أن يحتر فامتطى راحلته واطلق إلى مكة فإذا به يرى الكعبة بخياله وقد خلعت من أصنام قومه ، إنها كعبة أبيه إبراهيم خليل الرحمن منارة التوحيد وأول بيت وضع للناس .

إنه حصل بالإسلام على شرف المعلومات وأمد قلبه بمجنود العلم والحكمة والتفكر ، وسعد طوال الرحلة بمشاهدة ربه ومراقبته والنظر إلى وجهه الكريم . وتهلل بالفرح لما انجلى في فؤاده حقيقة الحق في الأمور كلها فهانت في عينيه كل القوى الأرضية . واستصغر كل سلطان بعد أن عرف سلطان الله وحوله وقوته فزمز على أن يعلن إسلامه في مكة معقل الشرك وحسن أعداء الإسلام الحصين .

وقدم بطى مكة ورأى الناس يظوفون بالحرم وقد امتلأ بالأضنام
ونداءات الشرك ترتفع هنا وهناك ، فلبى بصوت جهورى :
— لبيك اللهم لبيك ! لبيك لا شريك لك لبيك ! إن احمد والعمرة
لك والمملك ، لا شريك لك .

وتعلقت أنظار سادات قريش بسيد أهل الإمامة وقد ملكت عجا ، فما
بال ثمامة لا يشرك في تليته كما يشركون ؟ إن تليتهم كانت منذ تفتحت
أعينهم على الدنيا : لبيك اللهم لبيك ! لبيك لا شريك لك لبيك ! إلا
شريك هو لك ، تملكه وما ملك .

وقاموا إليه يناقشونه في أمر هذه التلية وكانت أول تلية في مكة يعلن
فيها أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، واشتد الحوار وأعلن ثمامة على الملأ
أنه قد أسلم وأنه يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله .
وثار الدماء حارة في العروق فأخذت قريش فقالوا :
— لقد اجترأت علينا ، أنت صوت يا ثمامة .

ولم يحفل بشورهم ، كان مطمئنا .. إنه عرف الهدى بعد الصلاة ،
وتفتح قلبه على نور بعد الظلمات ، وذاق لذة الأنس بالله وحمل الأمانة
والنظر إلى ملكوت السماء . كان على نور من ربه فقال وهو ثابت الجنان :
— أسلمت وتبع حير دين ، دين محمد . والله لا يصل إليكم حبة من
حنطة حتى يأذن فيها رسول الله — ﷺ .

وعضبوا غضبا شديدا فهذا القول يعلى شأن ابن أبى كبشة في أرض
عداوته ، ويفتن أناسا تميل قلوبهم إلى دين ابن عبد الله ، ويزيد في هوة
الشفاق الذى بدت ملامحه في قريش . فارتفعت أصوات حانقة تقول :
— اضربوا عنقه .

فقدموه ليصربوا عنقه فإذا هو ثابت كالطود ، وإذا بهدشة مشوبة
بأعجاب قد ملأت العيون التي امتدت إلى سيد بني الإمامة ، وإذا بذكريات
خبيب وأتباع محمد الدين تلقوا الموت مستبشرين تعود إلى الأذهان ، وإذا
بأسئلة حائرة تدور في العقول .

— أكانوا يتلقون الموت فرحين لو كانوا يؤمنون بسر اب ١٩ ؟ وقال قائل

مهم :

— دعوه فإنكم تحتاجون إلى الإمامة .

حقا لهم يحتاجون إلى الإمامة فقد كانوا يعتمدون عليها في ميرتهم فهي
أرض الحنطة ، وإن قتل سيدهم حتى لو عرف أنه قد أسلم سيدفعهم إلى
حبس الحنطة عنهم إن لم يثأروا لدمه .

فخلوا سبيله وما كان أمامهم إلا أن يفعلوا ، فحرح ثامة إلى الإمامة فمنع
قومه أن يحمّلوا إلى مكة شيئا فقد كان يعنى ما يقول عندما أعلمهم أنه لن
يصل إليهم حبة من حنطة حتى يأذن فيها رسول الله — ﷺ —

وأضر بقريش الحويع بعد أن منع ثامة عنهم ما كان يأتي من الإمامة ،
وفكروا في أن يبعثوا إلى رسول الله — ﷺ — كتابا يلتمسون فيه أن يأمر
ثامة بأن يحل بينهم وبين ميرتهم ، ولكنهم رأوا في ذلك إدلالا لهم ،
هوأصوا بالعصر انتظارا للفرح — ومن أين يأتيهم ذلك الفرح بعد أن عادوا
الله ورسوله ! وبعثوا إلى ثامة يسألونه أن يعدل عن قراره فقال لهم :

— إني أقسمت برب الكعبة لا يصل إليكم من الإمامة شيء مما تنتفعون
به حتى تتبعوا محمدا عن آخركم .

إن ما يسألهم ثامة إنما هو شيء قد رفضوه وحاصوا في سبيله حروبا
وفقدوا الأبناء والأحبة لكيلا يقرؤا بالإسلام ودعوة ابن عبد الله ،

أُيحصعون لـصـفـط ثـمـامـة دـفـعـا لـلـجـوع ؟ إن المـسـلـمـين تـعـمـلـوا الـجـوع أـيـام حـصـار هـم فـي شـعـب أـبـى طـالـب حـتـى أـكـلـوا خـشـاش الأـرـض و هـم لـيـسـوا أـقـل إـيـمـانـا بـآلـهـتـهـم مـن إـيـمـان أـصـحـاب مـحـمـد .

وصـرـوا عـلـى الـجـوع و راحـوا يـخـلـطـون الدـم بـأـوـبـار الإـيـل و يـشـوى عـلـى الـبـار ، إنـه العـلـهـر أـسـوأ الطـعـام . و ما اسـتـطـاعـوا أن يـحـتـمـلـوا ما احـتـمـل المـسـلـمـون أـيـام الحـصـار فـكـتـوا إـلـى رـسـول اللـه — ﷺ — و قد حـلـمـهم الدـل و اسـتـشـعـروا الهـزـيـمـة فـي أـعـماقـهـم :

« أـلـمـت تـر عـم أـنـك بعـثت رـحـمـة لـلـعـالـمـين ؟ فـقد قـتـلت الـآبـاء بـالـسـيـف و الـأـبـنـاء بـالـجـوع . عـهـدنا بـك و أنت تـأمر بـصـلة الرـحـم و تـحـث عـلـيـها ، و إن ثـمـامـة قـد قـطـع عـما مـيرتنا و أصرُّ بـنا ، فـإن رأيت أـد تـكـتـب إـلـيـه أن يـحـلـي بـنا و يـبـين مـيرتنا فافـعـل . »

فـكـتـب إـلـيـه رـسـول اللـه — ﷺ — أن حـلُّ بـين قـومـي و بـين مـيرتـهـم ، و حـمـلت الـخـنـطـة مـن الـيـمـامـة إـلـى مـكـة فـفـرح النـاس بـها ، و قد فـعـل كـرم مـحـمـد عـلـيـه السـلام و شـهـامـتـه فـي قـلوب المـكـيـين الـذـين كان هـوا هـم مـع سـي الإـسـلام عـلـيـه السـلام فـعـل السـحـر ، فـقد زادت فـي صـدور هـم دـائـرة البـور و أـصـبـحوا أكـثـر رـغـبـة فـي أن يـطـلـقـوا إـلـى رـسـول اللـه — ﷺ — لـيـشـهـدوا أن لا إـلـه إـلا اللـه ، و أن مـحـمـدا عبـده و رـسـولـه .

كان أبو سفيان بن حرب وخالده بن الوليد وحكيم بن حزام وصفوان
ابن أمية مجتمعين عند الحرم وقلوبهم شتى ، وإن كان كل تفكيرهم يدور
حول محمد بن عبد الله وما جاء به من دين . فأبو سفيان يجتر ذكريات
مجده وما فعله لتكون له السيادة في قومه ، إنه تزوج في قبائل العرب
والعشائر وأصهر بيه لسادات القوم وأدخل بناته على دوى الحسب والجاه
حتى يكون الأصهار والأسباء ذو عدد وذوى جاه وذوى قوة ليكسب
بهم شيئا يضيف به سببا إلى الأسباب التي تمهد له السيادة والسلطان .

كانت زعامة قريش هدفه وكانت كل أمله ومحور تفكيره ومصدر
أعماله والمتحكمة في كل تصرفاته وعلاقاته بالأساس . وكان يحسب أن
صحبة أبيه حرب بن أمية لبشر بن عبد الملك أخى أكيدر بن عبد الملك
صاحب دومة الجندل ستعطي من شأنه في أعين قومه . ولما قدم بشر إلى مكة
وتزوج الصهباء بنت حرب أخته أثليج صدره فما من أحد غيره في قومه قد
ارتبطت الأسباب بينه وبين الملوك !

لأنه سافر إلى فارس ودخل على كسرى وعاهد ملوك الحيرة وارتفع
شأنه ، ولم يعد في قريش من يناقسه الرعامة بعد أن مات أبو طالب والزيبر
ابن عبد المطلب وشيوخ الهاشميين . وقد تأكدت رعامته يوم أن أهدى
ملك اليمن عشر جزائر إلى مكة وأمر أن ينحرها أعز قريش ، إنها قدمت
وهو عروس بهند بنت عتبة وبلغها ما قال ملك اليمن فقالت له :

... لا يشعلك النساء عن هذه المكرمة التي لعلها أن تفوتك .

فقال لها :

— يا هذه دعى زوجك وما يختاره لنفسه ، والله ما نحرها غيرى إلا

نحرته .

وظلت النحائر فى عقلها حتى خرج فى اليوم السابع وكان ذلك بمثابة

تنويجه والاعتراف بزعامته على قريش بلا منازع .

واطمأن إلى السؤدد والسلطان وطن أن الزعامة قد انتزعت من البيت

الهاشمى لتستقر فى البيت الأموى ، حتى إذا ما كادت تثبت فى الضمائر

هذه الحقيقة قام محمد بن عبد الله يدعو إلى دين جديد ويقول إنه نبي يأتيه

الوحي من السماء ، فقام فى وجه دعوته يقاومه فى ضراوة فقد أحس أن

شرف النبوة لا يمكن أن يدانيه شرف ، ولو أن هذه الدعوة قد بقيت فى

الأرض فلن يدرك بيت — مهما مما — ذلك الشرف الذى ناله البيت

الهاشمى ، فأقسم أن لا يؤمن به أبدا ولا يصدق .

إنه يعلم أن محمدا صدوق لا يكذب ، ولكنه قد جاء أمرا لا يبقى معه

شرف . فراح يقاوم دعوته ويؤلب سادات قومه وسمهاءها على الهاشمى

الذى سينتزع منه الرئاسة والشرف ، فما كان يستطيع بهشأته أن يتصور

أن هناك ما وراء الملك وسلطان الأرض .

وأسلمت ابنته أم حبيبة فاستشعر مرارة الخزي والعار ، فدعوة محمد

الهاشمى قد دخلت عقر داره ووجدت استجابة من إحدى فلذات كبده ،

وززع ذلك لإيمانه الواهى بعدالة قضيته فلم يشأ أن يمدح نفسه واعترف

فى عيب ذاته لذاته أنه يقاتل ابن عبد الله حمية وكرهية أن يذهب شرفه .

وهاجرت ابنته أم حبيبة مع من هاجر إلى الحشة فعادت تؤكد أن حبها

الله ورسوله يفوق حبها أهلها وعشيرتها . إنها تركت الأهل والأوطان فرارا

بدينها خشية الفتنة فأعلنت على الملأ أن ما جاء به محمد بن عبد الله يهون في سبيله الآباء والأبناء ، فجلبته مرة أخرى بالعار .

وكان القتال في بدر وإذا بأبي جهل وعتبة وسادات قريش يلقون مصارعهم ، وإذا بهزيمة حمة البيت تنتشر في القبائل ، وإذا بالحزن ينزل في فؤاد أبي سفيان حتى ليكاد أن يمزقه . وفي ظلمات الياض لمع بصيص من أمل ؛ ارتد عبيد الله بن جحش زوج أم حبيبة عن دين محمد واعتنق الصراية دين الأحباش . إن هي إلا أيام حتى تعود أم حبيبة إلى دار أبيها باكية نادمة مستغفرة ، وستكون عودتها طعنة قاتلة للدعوة الجديدة . ولكن الأيام مرت والسنين كرت وأم حبيبة هناك في الحبشة صابرة على دينها قد أثرت العزلة وقطعت عن قلبها جواذب الدنيا لتجذب إلى السماء .

وطاف بذهن أبي سفيان بن حرب ما كان يسه ويسه محمد وصحبه يوم أحد فهمت نفسه أن تشرح ، ولكن سرعان ما تذكر تلك الرياح التي قلبت قدورهم واقتلعت خيامهم يوم الحندق وذلك الهمس الذي سرى في ذلك اليوم بين الناس بأن إله محمد قد منعه ، فاضطرب نفسه وخفق قلبه واربد وجهه فقدا يتلفت بعيون زائغة ها وهناك حتى لا يفتن جالسوه إلى ما يعانى من كرب .

وجاشت الذكريات في وجدانه وكانت جميعها تحز نفسه وخزا أليما ، فقد أثارها ابته أم حبيبة بعد أن جاء من الحبشة من يحبره أن محمدا كتب إلى الساحشي أن يزوج بنت أبي سفيان وأنها قد وكلت خالد بن سعيد ليزوجها من نبي الإسلام .

وتعلم أبو سفيان في مجلسه علم يحتمل نار العبط التي اندلعت في

خوفه ، وزاد في حقه أن الرسول الذي جاءه من الحبشة أخبره أن ابنته كادت تظهر من الفرج لما علمت أن محمد بن عبد الله قد بعث بخطبها ، وأنها أعطت الجارية التي بشرتها سوارين ، وأنها قالت لها بعد أن قبضت الصداق : « كنت أعطيتك السوارين بالأمس وليس يبدى شيء من المال ، وقد جاءني الله عز وجل بهذا » . فأبى الجارية أن تأخذ شيئا وردت السوارين وقالت : « إن الملك أحزل لها العطاء وأمرها ألا تأخذ من أم المؤمنين شيئا » .

أم المؤمنين ؟ ابنته أم حبيبة تصبح أما لأعدائه ؟ لقد دارت به الأرض لما بلعه النبا وبذل جهدا عظيما ليبدو هادئا ، ولكن الكلمات فرت من بين شفتيه فقال :

— هذا الفحل لا يجدد أنفه .

* * *

وشرد حكيم بن حزام يصكر وهو حزين ؛ إنه يخشى إن ظهر محمد أن تذهب دار النبوة مكرمة قريش ، إنه صاحبها وقد دخلها وهو ابن خمس عشرة سنة ولم يدخلها أحد من قريش للمشورة حتى يبلغ أربعين سنة . ورأى الناس طوهمون بالبيت العتيق فامتلاً فؤاده شفقة أن يأتي يوم ينقطع فيه الطوام ، حول البيت ، ولكن سرعان ما انقشع خوفه لما رآه في أعماق نفسه ما جاء في قرآن محمد عن الحرم : « إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين » . إنه يوقر البيت وقد جعله قبلة أتباعه ، ولكنه يسفه الآلهة وسائلهم إلى الإله الأعظم .

أريد محمد أن يكفروا بؤد وسواع ويعوث ويعوق ونسر واللات والعزى ومناة وهبل وإساف ونائلة ، وأن يؤموا بأن لهذا الكون العريض

إلها واحدا لا شريك له وأنهم مبعوثون ليوم عظيم ١؟ إنه لا يستطيع أن يؤمن
أن الأجساد تبعث بعد أن تصبح ترابا وعظاما ، وراح يشدد مرثية أهل
بدر :

فماذا بالقلب — قلب بدر — من « الشيزى » تكلل بالدمام
يخبرنا الرسول : بأن منجيا — وكيف حياة أصداء وهام
إنه كان يحب محمدا زوج عمته حديجة ، وكان يهرع إلى دار الطاهرة
سيدة نساء قريش ليلقى سمعه إلى الأمين قبل أن يرعم أن الخير يأتيه من
السماء ، أما بعد أن قال زوج عمته إنه رسول رب العالمين فقد ابتعد وتبرا
مه ، فما استطاع أن يؤمن أن الله يبعث بشرا رسولا .

* * *

وكان قلب صفوان بن أمية يطفح بالحقد على محمد ، إنه لا يستطيع أن
ينسى أنه قد وتره وقتل أباه أمية بن خلف يوم بدر وقتل عمه أبي بن خلف
يوم أحد ، ولن تخمد النار التي تنلظى في أحشائه قبل أن يدرك مه ثأره ،
فوطن النفس على محاربة محمد ولو لم يبق في قريش على عداوته غيره .

كان يحز في نفسه أن الإسلام أخذ يتفشى في قريش وأن بعض الموتورين
قد نسوا ثأرهم وخرجوا إلى المدينة وأتوا ابن أفى كبشة وأعلنوا إيمانهم
برسالته ، وما كان بقادر على أن يتصور أن أنوار اليقين قد أشرقت في
قلوبهم . وكيف لمن أعمى الغضب بصيرته أن ينظر إلى ملكوت السماء ؟

جلس رسول الله ﷺ — يحدث أصحابه فأتقوا إليه السمع
 مستبشرين متفرحين في الله ، فقد أصبحوا يعيشون مع الله وبالله وفي الله ،
 يستشعرون هدوياً نفسياً وإن كانت أهدئهم ترنجف هرقاً من خشية الله .
 فقد عرفوا لذة النظر إلى الله والأنس به وتصفية قلوبهم وتركيتها وجلاها
 بذكره ، ففاضت عليهم الرحمة وانشرحت صدورهم ، وأشرقت فيها
 الأنوار وانكشفت الأسرار وتألقت فيها حقائق الأمور ، فهم على نور من
 ربه قد توكلوا على الله وكفى بالله وكيلاً

كانوا يعيشون في فراغ ديني وفراغ سياسي ليس بينهم إلا الأحقاد
 والشحاء والغصاء يخشون أن يتحطفهم الموت ، قد راى عليهم حزن
 أبدى ، تفشعر جلودهم كلما راودتهم فكرة الفناء ويزيد شقاوتهم ذلك
 الغور الشديد بين العقل والوجدان ويحرك شجن أصحاب الصنائع الحية
 منهم ذلك الظلم الذى يزله الأقوياء بالضعفاء وهضم الأغنياء لحقوق
 الفقراء . فلما اصطفى الله رسوله وآتاه الحكمة والعلم والكتاب المبر ،
 وهداهم ربهم إلى الصراط المستقيم إذا هم ينحرون من الخوف والقلق
 ورهبة الموت ، فالتمائم التي تنزل على الرسول من السماء تؤكد لهم أن
 الدنيا دار ممر وأن الآخرة دار مقر ، فخصدت أشواك الموت وصحت
 أبواب الخلود لشباب دائم قرير العين . وكبحت جماح الطغيان ، وبذرت
 في سويداء القلوب الحب فحببت الأغنياء في الفقراء وحببت الفقراء في
 الأغنياء ، وقصت على ما كان يمكن أن يشأ من صراع بين الطبقات .

وكان لهم في رسول الله أسوة حسنة ؛ إنه يعمل ولكنه لا يعمل لجمع المال بل لإسعاد البشرية جمعاء ، لا فصل لعرفى عنده على عجمى إلا بالتقوى . إذا ما حصل على أموال وكثيرا ما أفاء الله عليه فقد كان ينفقها على الفقراء والمساكين لا يدخل بيته إلا بعد أن يتحلص من كل صفراء وبيضاء عنده ، فضمرت النزعات المادية التي كانت تسيطر على المجتمع المكى واجتمع اليربى على السواء ، واشتدت الطاقات الروحية الإبداعية فانتسعت منابع الرحمة والعمل الصالح لوجه الله . وكانوا جميعا يعملون بعد أن لقوا أن العمل عبادة ، ونصرة المظلوم عبادة ، ومساعدة الضعفاء عبادة ، وأن استقبال الناس بالبشر صدقة .

كانت ظلمات الجهل تجثم على يثرب ، وما كان يتنفس فيها إلا أساطير اليهود وبعض قشور من العلم الأول والكتاب الأول ، وكان العرب يرون إلى ذلك العلم مبهوتين . فلما جاء الرسول الكريم إلى المدينة ووضع أسس مجتمع جديد يشرع له رب العالمين إذا بمدينة الرسول تصبح مدينة مثالية تفوق كل المدن الفاضلة التي ما كان لها وجود إلا في محيلة طائفة من العلاسفة الخالمين ، وإذا ملكوت الله الذي ابتهل السيد المسيح في صلواته أن يأتي قد أصبح حقيقة واقعة في الأرض ينزل عليها العلم من العليم والحكمة من أحكم الحاكمين ؛ فإذا برعاة الإبل يتبأون ليكونوا رعاة الشعوب .

وما كان يستمد سلطانه من ملك عظيم أو إمبراطور جليل بل من رب العالمين ، فكانت كلمته قانونا فما يطق عن المحوى ، إن هو إلا وحى يوحى ، علمه شديد القوى ، وكانت أفعاله سمة ، فهم يقرعون في المساجد قول الله تعالى : ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن ﴾ (غزوة الخندق)

كان يرحو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ﴿١﴾ . وقد فخر بأعماله ثورة اجتماعية تدعو إلى مكارم الأخلاق ، وبذر بذور الروحانية التي كبحت جماح التحلل الاجتماعي ، وغرس في النفوس دعائم قوية قادرة على حمل أمانة العمل على نشر دين عالمي رسالته إسعاد البشرية والأخذ بأيدي الناس من غياهب القلق والغناء إلى رحاب الطمأنينة والحنود .

إنه رأى سلمان الفارسي يوم أن كانوا يحفرون الخندق قد عجز عن تحطيم الكدية التي اعترضته فزل — ﷺ — إليه وأخذ المعول من يده وضرب ضربة فكسر ثلثها ، وبرزت برقة فخرج نور من قبل اليمن كالمصباح في جوف ليل مظلم فكبر رسول الله وقال : أعطيت مفاتيح اليمن ، ثم ضرب الثانية فقطع ثلثا آخر فخرج نور من قبل الروم فكبر رسول الله — ﷺ — وقال : أعطيت مفاتيح الشام ، ثم ضرب الثالثة فقطع بقية الحجر وبرز برق ففكر وقال : أعطيت مفاتيح فارس . وقد بات أصحابه منذ ذلك الوقت يؤمنون أنهم ورثة الفرس والروم .

لقد انبثق من المدينة ضوء وكان رسول الله — ﷺ — وصحبه على ثقة بأن ذلك الضوء سيفمر العالمين ، ولكن جيران المدينة من مكسين وغطفانيين وأسديين ويهود يريدون أن يطمئثوا نور الله بأغواهم وبأنى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . فكان عليه السلام لا ينتظر حتى يفجأه عدوه في عقر داره ، بل يبعث سرايا شأن القائد المحنك الخير ليشتت الجموع قبل أن تتحرك ، ويلقي الرعب في قلوب أعدائه ، فما كان يؤمن بالسلام الموهوم وقد تعلم من القرآن أنه لو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض

لفسدت الأرض .

صار المسجد ملاذ المؤمنين من الفراغ قد وجدوا في تعاليم السماء خلاص نفوسهم البشرية ، وكان رسول الله عليه السلام يشعل طاقات إبداعية في المجتمع الذي كان هاجما من أمد قريب ، ويرشد الناس إلى الطريق لينكشف للناس باب الفوز الأكبر .

أصبحت القلوب صالحة صافية تطلب الحق قد حسنت صلاحها بالله وبالأخرين ، ولا جرم فرسول الله يعلمهم الجهاد في الله ليهديهم الله سله ويقول لهم على الدوام : لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه . فاستطاع أن يؤلف بين العقل والوجدان ، وأن يقضى على الشعور بالوحدة ، وأن يجعل للحياة هدفاً أسمى من جمع المال وتغذية الحياة المادية وأيجاد الأرض .

وكان رسول الله ﷺ — يحدث أصحابه والحزن يعتصر قواده ، فقد وجد على عاصم بن ثابت وأصحابه أصحاب الرجيع وجداً شديداً ، فقد بعثهم عيوناً إلى مكة يتحسسون أخبار قريش ليأتوه بها وأمر عليهم عاصم بن ثابت الأنصاري .

إن عمه العباس بن عبد المطلب كان يبعث إليه بأخبار قريش وكانت خزاعة تحمل إليه أنباء أعدائه ، ولكنه كان يبعث أصحابه ليعرف أخبار مكة التي أبت أن تحمل بينه وبين العرب .

وراح عاصم وأصحابه يسيمون الليل ويكمنون النهار حتى إذا كانوا بالرجيع — وهي ماء هذيل — نفر إليهم ما يقرب من مائة رام من بني لحيان فاقتفوا آثارهم حتى وجدوا نوى تمر أكلوه في منزل نزله ، فلما أحس عاصم والذين معه باللحيانيين صعدوا في جبل هالك فقال لهم اللحيانيون :

— انزلوا ولكم العهد أن لا يقتل منكم أحدا .

فقال عاصم :

— أما أنا فلا أنزل على ذمة وعهد كافر .

فرموهم بالبل فقتلوا عاصما وستة منهم ، ونزل إليهم ثلاثة على العهد وهم حبيب وزيد وعبد الله بن طارق ، فلما أمسكواهم أطلقوا أوتار قسيهم فربطوا حبيبا وزيدا وامتنع عبد الله وقال :

— هذا أول الغدر بعهد الله ، لا أصحبكم .

والتفت إلى القتل وقال :

— إن لي بهؤلاء أسوة .

فما لحوه فأبى أن يصحبهم فقتلوه ، وانطلقوا بحبيب ورید ودخلوا بهما مكة في شهر القعدة فباعوهما بأسيرين من هديل كانا في مكة ، فحبس حبيب ورید إلى أن تقضى الأشهر الحرم .

فلما انقضت الأشهر الحرم خرجوا بحبيب من الحرم ليقتلوه في الخيل ، فلما قدم للقتل قال لهم : دعوني أصل ركعتين ، فركعه ركعتين وقال لهم : والله لولا أن تحسبوا أن ما بي من حزع لردت . ثم صلبوه ليراه الوارد والصادر فيذهب بخيرها إلى الأطراف ثم قالوا له :

— ارجع عن الإسلام محل سبيلك وإن لم ترجع لقتلتك .

قال :

— إن قتل في سبيل الله لقليل ، اللهم إني ليس ها أحد يبلغ رسولك

عنى السلام ببلعه أت عى السلام وبلعه ما يصعب يا .

كان رسول الله جالسا مع أصحابه فأخذ ما كان يأخذه عد برول
الوحي فسمعه أصحابه يقول :

— وعليه السلام ورحمة الله وبركاته .

فلما سرى عنه — صلى الله عليه وسلم — قال :

— هذا جبريل عليه السلام يقرئني من خبيب السلام ، خبيب قتلته

قريش .

لم ينس نبي الإسلام عليه السلام ما لقي أصحابه من غدر بني لحيان فأظهر أنه يريد الشام ، وعسكر لفترة هلال شهر ربيع الأول سنة ست من مهاجرة في مائتي رجل معهم عشرون فارساً واستخلف على المدينة عبد الله ابن أم مكتوم ، ثم أسرع المسير حتى انتهى إلى بطن غران وبينها وبين عسفان خمسة أميال حيث كان مصاب أصحابه ، فترحم عليهم ودعا لهم ، فسمعت بهم بنو لحيان فهربوا في رعوس الجبال فلم يقدر منهم على أحد ، فأقام يوماً أو يومين فبعث السرايا في كل ناحية فلم يجدوا على أحد ، ثم خرج حتى أتى عسفان ، ثم انصرف — صلى الله عليه وسلم — إلى المدينة بعد أن غاب أربع عشرة ليلة وهو يقول :

— آيئون تائبون عابدون ، لربها حامدون . أعوذ بالله من وعشاء السفر

وكتابة المقلب وسوء النظر في الأهل والمال .

ركب أبو ذر راحلته وأطلق في الفضاء العريض وقد خلف غفار وراءه . إنه خارج إلى مدينة الرسول وقد عزم على أن لا يفارق نبي الإسلام عليه السلام بعد أن فاتته حير كثير ، فهو لم يخرج إلى مياه بدر مع البدرين ولم يشهد أول انتصار للمسلمين ، ولم يذب بسيفه عن رسول الله ﷺ — يوم أحد ، ولم يعمل في الخندق مع العاملين . وإن ما نزل من القرآن في هذه المواقف العظيمة يتراقص على شفتيه ويجعل الدموع تتفرق في مقلتيه . وراح يرن في وجدانه قول الله تعالى : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه ، إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله ، فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم » .

وراح أبو ذر يقلب وجهه في معبد الله وهو مشدوه؛ كانت الروابي والمضارب وسفوح الجبال والشواخخ والشواحق قد كسيت بالنوار الأصفر، ورادها روعة تلك الفضة التي كانت تنسك على الأرض من القمر الذي اكتمل بدراء والسماء الصافية الزرقاء التي كانت تلثم عند الأفق البعيد البساط الأصفر الذي يمجج باللحيج، فامتلاّت نفس أبي ذر بشوقه، واستشعر أنه قريب من الله قربا بالمعنى والحقيقة والصفقة، وإذا به يبادى بكل وجوده : ﴿ ربما ما خلقت هذا باطلا سبحانهك ﴾ (١) .

* * *

وشرد أبو ذر يتذكر تلك الأيام التي كان يخرج فيها مع رفاقة من غفار
ليشن الغارة على القوافل ويقطع الطريق ؛ إنه كان ينقض على المسافرين
الأمينين انقضاض الليث على فريسته ، وكان الرفاق الذين يعيشون على
السلب يغمرونه بالمديح ولكن كان بين حبيبه قلب متأهب لاستقبال
السرور ، فما إن مد عينيه إلى مواقع النجوم وفكر ، سر السماوات
والأرض حتى اهتدى إلى أن لهذا الكون ربا ، فهجر قطع الطريق وراح
يصلي لله ويتوجه حيث وجهه الله ؛ قد استعد لمعرفة ربه بقلبه لا بحارحة
من جوارحه .

وقد بلغه أن رجلا ظهر بمكة يزعم أنه نبي يأتيه الخبر من السماء وأن
قومه كذبوه وآذوه ومنعوا الناس عنه فلا يمر به أحد إلا حذروه إياه ، فشد
الرجال إلى الحرم ، وقاده على بن أبي طالب إلى حيث كان رسول الله —
عليه السلام .

ورن في ضميره صوت النبي عليه السلام وهو يقرأ عليه القرآن ثم قوله
له :

— ممن أنت يا أخا العرب ؟

— من غفار .

إنه ليرى وهو يخب على راحلته في سكون الليل وجه النبي عليه السلام
وقد أشرق بانتسامة خفيفة وهو يرفع بصره فيه ويصوبه تعجبا لما كان يعلم
من غفار ، وداعب أذنيه قول النبي عليه السلام :

— إن الله يهدي من يشاء .

— إن أحداث تلك الأيام قد حفرت في عين ذاته ؛ إنه شهد وهو
مستريح الضمير أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . وإن رسول الله —

ﷺ — قال له :

— يا أبا ذر اكنم هذا الأمر وارجع إلى بلدك فإذا بلمك ظهوراً فأقبل .

ولكنه كان وثاقاً بربه معتزاً بدينه فقال :

— والذي بعثك بالحق لأصرعن بها بين أظهرهم .

وخرج إلى المسجد فقال :

— يا معشر قريش إني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده

ورسوله .

فقاموا إليه ومالوا عليه وضربوه ، وأقبل العباس فأكب عليه ثم أقبل على

القوم فقال :

— ويلكم ! تقتلون رجلاً من عمار وتجركم ومركم على عمار !

فأقلعوا عنه فذهب إلى زمزم وغسل عه الدم ، وفي صبيحة اليوم التالي

انطلق إلى الحرم ووقف صاح بأعلى صوته :

— يا معشر قريش .. يا معشر قريش . إني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن

محمداً رسول الله .

فقاموا إليه وأشعوه ضرباً فخر مغشياً عليه ، وأقبل العباس يومئذ .

العباس ؟! إنه في حيرة من أمر هذا الرجل ، إنه يخف لتخليص المسلمين من

أدى قريش ، وقد خرج مع ابن أخيه يوم العقبة ليأخذ له البيعة من

الأبصار ، وإن الرسل تمشي بينه وبين رسول الله عليه السلام بالأخبار .

وقد نبى رسول الله عن قتله يوم بدر !

وراح أبو ذر يتذكر يوم جاء رسول الله ﷺ — إلى غفار ، فقد

خرج الناس لاستقبال الرسول الكريم ، فلما رآه أبو ذر هتف : « هو والله

رسول الله » . فقال الجميع في فرح : « جاء نبي الله » . وحل الولائد

والصبيان والإماء يقولون : « هذا رسول الله قد جاء » .
 ونزل رسول الله عن راحلته وسار أبو بكر معه ، وقد أقبل الناس
 يسلّمون على النبي الحبيب وفي الوجوه استبشار وفي العيون عرات وفي
 الصدور فرح فياص . وحلّس الرسول عليه السلام وقام أبو بكر يذكر
 الناس ، ثم قرأ النبي القرآن وراح يدعو الناس إلى الإسلام فأقبلوا يبايعون .
 وطلب خفاف بن رخصّة الغفاري من النبي — صلى الله عليه وسلم — أن يكتب
 كتاباً لقومه ، فكتب عليه السلام لبني غفار : أنهم من المسلمين لهم ما
 للمسلمين وعليهم ما على المسلمين ، وأن النبي عقد لهم دمة الله ودمة
 الرسول على أموالهم وأنفسهم والنصر على من بدّأهم بالظلم ، وأن النبي
 إذا دعاهم ليصروه أحابوه وعبيد نصره إلى من حارب في الدين ما بل بحر
 صوفة ، وأن هذا الكتاب لا يحول دون إثم .
 ثم قال عليه السلام : « غفار غفر الله لها » .
 ونامت غفار التي كانت تمش على السطو وقطع الطريق في رعاية الله ،
 والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم



ولاحت المدينة لعبي أي در فحقق قلبه شوقاً ، إن هي إلا مرحلة حتى
 يدخل المدينة التي افتحت بالقرآن وعمرت بالوحي والتزليل وتردد بها
 جبريل وصحت جنباتها بالتقديس والتسبيح وانتشرت منها أنوار اليقين .
 إن بين ضلوعه لوعة وصباة وتشوقاً متوقداً لجمرات الرسول ومدينة
 الرسول وأهلها الذين دعا لهم النبي — صلى الله عليه وسلم — فقال : « اللهم بارك لهم
 في مكياهم وبارك لهم في صاعهم ومُدّهم » .
 وورد أبو ذر المدينة فزجل ومشى باكياً فقد بلغ الانفعال عاينه ، إنه

يرى مسجد الرسول وإن هي إلا أن يجتاز باب الرحمة حتى يرى محمدا الحبيب . وتقدم على استحياء ودلف إلى المسجد فإذا سوارى من جنوع المحل طرحت عليها العوارض والخصف والإذخر وإذا هو أقل من مائة في مائة ، وراح يتلفت في رهبة فإذا برسول الله ﷺ — جالس في مجلس المهاجرين عند الأسطوانة التي بعد أسطوانة التوبة إلى الروضة ، وهي عمود من عمد المسجد ارتبط فيه أبو لسان لما خان الله ورسوله حتى تاب الله عليه .

ووجع قلب أبي ذر ، وسار وهو مأخوذ بروعة اللقاء حتى إذا قام على رأس الجالسين قال :

— السلام عليك يا رسول الله .

ورحب السى عليه السلام بفتى عفار وجلس أبو ذر يصغى إلى سحر البيان حتى إذا حان أوان الصلاة قام بلال على مارة في دار حفصة أم المؤمنين يؤذن ، فأقبل الناس ليصلوا حلف رسول الله ﷺ ، وقام أبو ذر ليصلي أول صلاة مع نبي الإسلام والمهاجرين والأنصار .

وجاء الليل فانضم أبو ذر إلى أهل الصفة ، وكانوا قوما عاكفين على العبادة قد أعرضوا عن الدنيا وربتها لا سارل لهم وما لهم مأوى غير المسجد ، يدعوهم الرسول إليه إذا تعشى فيفرقهم على أصحابه وتعشى طائفة منهم معه ، وقد كان أبو ذر من هذه الطائفة .

وانكف الناس وطرح رسول الله ﷺ — حصيرا وراء بيت فاطمة ووقف في الممراب مكان يساره إلى باب عثمان ، وراح يصل وأبو ذر يرقبه وقد ألقى إليه سمعه فإذا به عليه السلام يقرأ : ﴿ إن تعدبهم فإنه عبادك

وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ^(١) .
 إن رسول الله عليه السلام يركع ويسجد بها طوال الليل حتى أصبح ،
 فقام أبو ذر إليه فقال :
 — يا رسول الله ما زلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت تركع وتسجد
 بها .

فقال عليه السلام :
 — فإني سألت الله الشفاعة فأعطانيها وهي نائلة إن شاء الله لمن لا
 يشرك بالله عز وجل .

وصار أبو ذر يمسى في المسجد النهار والليل ، يرى على بن أبي طالب
 وهو يقوم الليل عند الأسطوانة التي خلف أسطوانة التوبة ، فتوطدت
 بينهما الصداقة وكان حبيبا لله وفي الله ، ويصغي إلى أحاديث رسول الله
 فيمتلئ حكمة ، ويشاركها بكر وعمر وعثمان وسلمان وسادات
 المهاجرين والأنصار مجالسهم فأشرقت أنوار المعرفة في قلبه فإذا هو على
 نور من ربه .

و ذات يوم دخل عمر المسجد وأبو ذر جالس وحده ، فقال عمر :
 — لم تجلس وحدك ؟

— اجلس ! الصاحب الصالح خير من الوحدة ، والوحدة خير من
 صاحب السوء ، وممل الخير خير من ممل الشر ، والأمانة خير من
 الخاتم ^(٢) ، والخاتم خير من ظن السوء .
 ونال أبو ذر الحظوة عند النبي — ﷺ ، فكان عليه الصلاة والسلام

(٢) أو هي كثر يظهر .

يتدثه إذا حضر ويفقده إذا غاب . وذات يوم أتى أبو ذر رسول الله ﷺ وهو نائم وعليه ثوب أبيض ، ثم أتاه وقد استيقظ ، فقال الرسول لما رأى أبا ذر :

— ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة .

— وإن زنى وإن سرق ؟

— وإن زنى وإن سرق .

— وإن زنى وإن سرق ؟

— وإن زنى وإن سرق .

— وإن زنى وإن سرق !؟

— وإن ربي وإن سرق على رغم أنف أبي ذر .

حرجت قريش يوم الأحزاب وقائدها أبو سفيان بن حرب ،
 وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر في بني
 فزارة ، والحارث بن عوف بن حارثة المري في بني مرة ، ومسعر بن رحيلة
 فيمن تابعه من قومه من أشجع .

وكانت تتبع عيينة بن حصن عشرة آلاف فتاة فكان يعرف بالأحمق
 المطاع ، فلما اشتد حصار الأحزاب للمسلمين بعث رسول الله —
 ﷺ — إلى عيينة بن حصن وإلى الحارث بن عوف وهما قائدا غطفان
 فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا عن معهما عنه وعن أصحابه ،
 فجرى بينه وبينهما الصلح حتى كتبوا الكتاب ، ولم تقع الشهادة ولا عزيمة
 الصلح إلا المروضة في ذلك .

فلما أراد رسول الله — ﷺ — أن يفعل بعث إلى سعد بن معاذ وسعد
 ابن عباد فذكر ذلك لهما واستشارهما ، فقالا له :

— يا رسول الله أمر تحبه فنصنعه ، أم شيئا أمرك الله به لا بد لنا من
 العمل به ، أم شيئا تصنعه لنا ؟

— بل شيء أصنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد
 رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب فأردت أن أكسر عنكم
 من شوكتهم إلى أمر ما .

فقال سعد بن معاذ :

— يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة

الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يعلمون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى^(١) أو يها ، أفحين أكرما الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا ؟ والله ما لنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيوف حتى يحكم الله بيننا وبينهم :
— فانت وذاك .

فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب ثم قال :
— ليجهدوا علينا .

وهزم الله الأحزاب وحده ، وفتح المسلمون قريظة ، ثم خرج عليه السلام إلى بنى لحيان يطلب بأصحاب الرجيع ، ثم قدم المدينة فلم يقم بها إلا ليلتين قاتلت حتى أغار عينة بن حصن في خيل من غطفان على لقاح^(٢) لرسول الله — ﷺ — بالعابة^(٣) وفيها ابن أبي ذر وامرأته ليل ، فقتلوا الرجل واحتملوا المرأة في اللقاح .

وغدا يريد الغابة سلمة بن عمرو بن الأكوع الأسلمي متوشحاً قوسه ونبله ومعه غلام لطلحة بن عبيد الله معه فرس له يقوده . حتى إذا علا ثيبة الوداع نظر إلى بعض خيول عينة والذين معه فأشرف في ناحية سَلَع ثم صرخ :

— واصباحاه !

ثم خرج يشتد في آثار القوم وكان مثل السبع حتى لحق بالقوم ، فجعل

(١) القرى : ما يصنع للصيف من طعام .

(٢) اللقاح : الإبل الخراجل ذات الألبان .

(٣) العابة : موضع قرب المدينة من ناحية الشام ، فيه أموال لأهل المدينة .

يردهم بالنبل ويقول إذا رمى :

— خذها وأنا ابن الأكوع ، اليوم يوم الرصع ^(١) .

فإذا وجهت الحيل نحوه انطلق هاربا ، ثم عارضهم فإذا أمكنه الرمي رمى ، ثم قال :

— خذها وأنا ابن الأكوع ، اليوم يوم الرصع .

فيقول قائلهم :

— أو يكنا هو أول النهار .

ويبلغ رسول الله — ﷺ — صياح ابن الأكوع ، فصرخ في المدينة :

— الفرع الفرع ! يا خيل الله اركبي .

فكرمت الخيول إلى رسول الله — ﷺ — ، وكان أول من انتهى إلى

رسول الله — ﷺ — من الفرسان المقداد بن عمرو حليف بنى زهرة ،

ثم كان أول فارس وقف على رسول الله — ﷺ — بعد المقداد من الأنصار

عباد بن بشر بن وقش أحد بنى عبد الأشهل ، وسعد بن زيد أحد بنى

كعب بن عبد الأشهل ، وأسيد بن ظهير أخو بنى حارثة بن الحارث ،

وعكاشة بن محصن أخو بنى أسد بن خزيمه ، ومُحرر بن نضلة أخو بنى

أسد بن خزيمه ، وأبو قتادة الحارث بن ربيع أخو بنى سلمة ، وأبو عياش

وهو عبيد بن زيد بن الصامت أخو بنى زريق ، فلما اجتمعوا إلى رسول

الله — ﷺ — أمر عليهم سعد بن زيد ثم قال :

— اخرج في طلب القوم حتى ألحقك في الناس .

وقال رسول الله — ﷺ — لأبي عياش .

(١) الرصع : جمع راضع وهو التميم . والمعنى : اليوم يوم هلاك اللثام .

— يا أما عياش لو أعطيت هذا الفرس رجلا هو أفرس منك فلحق بالقوم ؟

— يا رسول الله أنا أفرس الناس .

ثم ضرب الفرس فوالله ما جرى به محسین دراعا حتى طرحه ، فعجب أن رسول الله — ﷺ — يقول لو أعطيته أفرس منك وهو يقول أنا أفرس الناس . فأعطى رسول الله عليه السلام فرس أوى عياش معاذ بن معاص ، فحرح الفرسان في طلب القوم حتى تلاحقوا . وكان أول فارس لحق بالقوم محرز بن بصللة أخو بنى أسد بن خزيمه ، فوقف لهم بين أيديهم ثم قال :

— قفوا يا معشر بنى النكبة^(١) حتى يلحق بكم من وراءكم من أذباركم من المهاجرين والأنصار .

وحمل عليه رجل منهم فقتله واستلب فرسه ، وتلاحقت الخيل فقتل أبو قتادة الحارث بن ربعى أخو بنى سلمة حبيب بن عيينة بن حصن وغشاه برده ثم لحق بالناس .

واستعمل رسول الله — ﷺ — على المدينة ابن أم مكتوم ، ثم أقبل في المسلمين فإذا حبيب مسجى يردد أبى قتادة فقال الناس :

— إنا لله وإنا إليه راجعون . قتل أبو قتادة .

فقال رسول الله — ﷺ :

— ليس بأبى قتادة ولكنه قتيل لأبى قتادة وضع عليه برده لتعرفوا أنه صاحبه .

(١) النكبة : اللثيمة .

وأدرك عكاشة بن محصن أوبارا وابنه عمرو بن أوبار وهما على بعير واحد ، فانتظمهما بالرمح فقتلهما جميعا واستنقذوا بعض اللقاح .

وسار رسول الله ﷺ — حتى نزل بالجليل من ذى قُرد وتلاحق به الناس ، فنزل رسول الله عليه السلام به وأقام عليه يوما وليلة ، وقال له سلمة بن الأكوع :

— يا رسول الله لو سرحتنى فى مائة رجل لاستنقذت بقية السرح وأخذت بأعناق القوم .

فقال له رسول الله ﷺ :

— إنهم الآن ليعقبون^(١) فى غطفان .

فقسم رسول الله ﷺ — فى أصحابه فى كل مائة جزورا وأقاموا عليها ، ثم رجع رسول الله ﷺ — قافلا حتى قدم المدينة .

وأقبلت ليل امرأة ابن أبى ذر على العضاء من إبل رسول الله ﷺ — حتى أقبلت عليه فأخبرته كيف فرت من القوم فرغت ، قالت :

— يا رسول الله إني قد نذرت لله أن أنحرها إن نجاني الله عليها .

فقسم رسول الله ﷺ — ثم قال :

— بش ما جزيتها أن حملك الله عليها ونجاك بها ثم تحرينها ! إنه لا نذر فى معصية الله ولا فيما لا يملكين ، إنما هى ناقة من إبل فارجمى إلى أهلك على بركة الله .

(١) يعقبون : يسقون اللبن بالعشى .

لما بنى رسول الله ﷺ مسجده بنى بيتين لزوجتيه عائشة وسودة على بعت بهاء المسجد من لبن وجريد النخل ، وكان لبنت عائشة مصراع واحد من صاج ، ولما تزوج رسول الله ﷺ حنيفة بنت عمر بنى لها حجرة ما بين بيت عائشة إلى الباب الذى يل باب النبى عليه السلام . وتزوج عليه السلام ربيب بنت خزيمة فبنى لها حجرة إلى جوار حجرة حفصة ، وماتت أم المساكين ، فلما تزوج رسول الله ﷺ أم سلمة بنت أبى أمية زاد الركب أسكنها حجرة أم المساكين ، فلما تزوج زينب بنت جحش بنى لها حجرة إلى جوار حجرات أمهات المؤمنين . وقد ضرب النبى ﷺ الحجرات ما بينه وبين القبلة والشرق إلى الشامى ولم يضر بها فى غربيه . وكانت خارجة من المسجد مديرة به إلا من المغرب ، وكانت أبوابها شارعة فى المسجد على أبوابها مسوح من شعر أسود ، ودرع الستر ثلاثة أذرع فى ذراع .

وكان بيت فاطمة خلف بيت النبى ﷺ عن يسار المصل إلى الكعبة ، وكان فيه حوخة إلى بيت النبى ﷺ . وقد مال إليها رسول الله عليه السلام وأحبها فكان يدخل عليها إذا عاد من سفره ويطل المكث عندها قبل أن يدخل على أزواجه ، أو ابنته زينب التى عاشت معه ستين بعد أن تركت زوجها أبا العاص بن الربيع ، أو يذهب لزيارة أم كلثوم فى بيت زوجها عثمان بن عفان .

كانت فاطمة شديدة الاعتزاز بأبيها فكانت تهلل بالفرح إذا ما سمعت

من قائل أن أبناءها أشبه بأبيها ، وكانت تتغنى بذلك إذا ما رقصت أحدهم أو داعبته ، فلم يكن أحب إلى قلبها من أن يقال لها إن أسباط رسول الله يشبهون رسول الله .

وكانت مفضولة على التدين ، ولا جرم فرسول رب العالمين وإمام المتدينين المتقين أبوها ، وأمها خديجة بنت خويلد سيدة نساء قريش وحاضنة الإسلام التي وهبت حياتها وأموالها لإعلاء كلمة الله وبزوع أنوار اليقين من دارها ، فورثت عن نبي الإسلام إرهاب الحس الديني، وعن حاضنة الإسلام عمق الإيمان ونصاعة التصديق الذي لا يشوبه شائبة من شك ، فنشأت شديدة التحرج فيما اعتقدته من أوامر الدين .

دخل عليها رسول الله ﷺ — فأكل عرقاً فجاء بلال بالأذان فقام عليه السلام ليصلي ، فأخذت بثوبه فقالت :

— يا أبة ! ألا تتوضأ ؟

— ثم أتوضأ يا بنية ؟

— مما مست النار .

— أو ليس أطيب طعامكم ما مست النار ؟

وهمت أن أكل الطعام المطبوخ يوجب الوضوء .

وأكرم رسول الله ﷺ — فاطمة إكراماً عظيماً ، فقال أكثر من مرة في أكثر من مناسبة :

— فاطمة سيدة نساء العالمين .

وقال إنها عذيلة مريم بنت عمران ، وأنها إذا مرت في الموقف نادى مناد من جهة العرش :

— يا أهل الموقف غصوا أبصاركم لتعبر فاطمة بنت محمد .

وما أكثر ما قال عليه السلام :

— يؤذيني ما يؤذيها ويفضبنى ما يعضبها ، وإنها بضعة منى يربىنى ما رابها .

وقد أكل هذا التعظيم والتبجيل قلب عائشة بنت أبى بكر زوج النبى الأثريرة عنده ، ولم يحل قلب فاطمة من الضغن على بنت الصديق . وكان أول بدئه أن رسول الله — ﷺ — تزوج عائشة عقيب موت خديجة فأقامها مقامها ، فكان ذلك بداية كدر ابنة خديجة وتغير قلبها على عائشة . كانت فاطمة تكره ميل أبيها إلى امرأة غريبة ، ولما كانت النساء محدثات الليل فقد نجحت الزهراء فى أن تنقل ما فى قلبها إلى قلب زوجها على بن أبى طالب ، كانت تكثر الشكوى من عائشة حتى إنها طلبت ذات يوم من أبيها أن يسد الخوخة التى كانت بين بيته وبينها حتى لا ترى عائشة ما يجرى فى دارها .

وكان جيران بيتنا يأتين لزيارتها فكن ينقلن إليها كلمات عن عائشة ، ثم يذهبن إلى بيت عائشة فينقلن إليها كلمات عن فاطمة ، وكما كانت فاطمة تشكو إلى بعلها كانت عائشة تشكو إلى أبيها لعلمها أنها لا تستطيع أن تشكو فاطمة إلى رسول الله عليه السلام ، فحصل فى نفس أبى بكر أثر ما .

وتزايد تقرىظ رسول الله عليه السلام لعل بن أبى طالب وتقريره واختصاصه فأحدث ذلك حسدا له وغبطة فى نفس أبى بكر عنه وهو أبوها ، وفى نفس طلحة وهو ابن عمها ، وهى تجلس إليهما وتسمع كلامهما وهما يجلسان إليها ويحادثانها فأعدى إليها منهما كما أعدتهما . وكان على عليه السلام بنفس على أبى بكر سكون النبى — ﷺ — إليه ،

وشاء عليه ويحب أن يتفرد هو بهذه المزايا والخصائص دونه ودون الناس أجمعين ، ومن انحرف عن إنسان انحرف عن أهله وأولاده فثأكدت البغضة بين هذين الفريقين .

ثم كان من أمر القذف ما كان ، ولم يكن على عليه السلام من القاذفين ولكنه كان من المشيرين على رسول الله ﷺ — بطلاقها تنزيها لعرسه من أقوال الشناعة والمنافقين . قال له لما استشاره :

— إن هي إلا شئع^(١) نعلك .

وقال له :

— سل الخادم وخوفها وإن أقامت على المحمود فاضربها .

وبلغ عائشة هذا الكلام كله وسمعت أضعافه مما جرت عادة الناس أن يتداولوه في مثل هذه الواقعة ، ونقل النساء إليها كلاما كثيرا عن علي وفاطمة وأنها قد أظهرتا الشتمات جهارا وسرا بوقوع هذه الحادثة لها ، فتفاقم الأمر وغلظ .

ثم إن رسول الله ﷺ — صالحها ورجع إليها ونزل القرآن ببراءتها ، فكان منها ما يكون من الإنسان ينتصر بعد أن قهر ويستظهر بعد أن غلب ويبرأ بعد أن اتهم من بسط اللسان وفتات القول ، وبلغ ذلك كله عليا وفاطمة فاشتدت الحال وغلظت وطوى كل من الفريقين قلبه على الشنآن لصاحبه .

وذات يوم استدنى رسول الله عليا فجاء حتى قعد بينه وبينها وهما متلاصقان ، فقالت :

(١) الشئع : العمل التي تشد إلى زمامها .

— أما وجدت مقعدا لك إلا فخذى ؟

إنها لا تكفى عنه فهيبت ما فى نفس على .

وساير السى عليه السلام عليا يوما وأطال مناجاته ، فجاءت وهى
سائرة خلفهما حتى دخلت بينهما وقالت :

— فيم أنى فقد أطلتيا ؟

فعضب رسول الله — ﷺ — ذلك اليوم ، وغضب على ولا شك وإن
كان قد كتم غضبه فى قلبه .

ثم اتفق أن فاطمة ولدت أولادا كثيرة بنين وبنات ولم تلد هى ولدا ،
وأن رسول الله — ﷺ — كان يقيم بنى فاطمة مقام بنيه ويسمى الواحد
منها « ابنى » ويقول :

— دعوا لى ابنى .. وما فعل ابنى ؟

كان ذلك القول يلسع قلب عائشة فقد حرمت الولد من البعل ، ثم
رأت البعل يتبنى بى ابنته من غيرها ويحنو عليهم حنو الوالد المشفق !
ولم تسخ عائشة مرارة الضرائر ، ولم تسترح من ألم حرمانها الأبناء ،
ولم تعوضها كنيثها بأمر عبد الله عن الحقيقة الأثمة التى كانت تتجرع
غصصها كلما نظرت إلى أبناء الزهراء ، ولم تستطع معرفتها بأنها حبيبة
رسول الله أن تمحق تلك الغمرة التى كانت تكايدها من بنت رسول الله عليه
السلام ومن بطلها من الضرائر الجميلات وذوات الأحساب .

كانوا بشرا فكانت أفئدتهم تحفق بالعمرة وتشرق فى نفس الوقت بأنوار
اليقين ، إنهم يحاهدون بالعبادات لتصفية القلوب وتزكيتها وجلالها ومحو
الصفات المذمومة ، فكانوا كثيرا ما يرتفعون ليطرقوا أبواب ملكوت
السموات ولكنهم لم يستطيعوا أن يتخلصوا من آدميتهم وما توسوس به

نفوسهم .

كان رسول الله — ﷺ — قدوتهم وكانوا جميعا يحاولون أن يترسموا خطاه ، ولكن أين هم ممن اصطفاه ربه ليبلغ رسالته ويكون أسوة حسنة للمؤمنين ؟ إنهم تعلموا من رسول الله عليه السلام الحبر كله ، وإن عبد الله ابن عمر يتبع آثار النبي — ﷺ — في مازله فهو ينظر ماذا يفعل عليه السلام في كل أمر ليحاكيه ، وأين صلى ليصل في ذات المكان ، وأين وقف يدعو ربه فيقف خاشعا يدعو الله ، وأين جلس ياجى الرحمن فيجلس في نفس المكان للمناجاة .

ورأى ابن عمر في نومه كأن بيده قطعة من إسترق وكأنه لا يريد مكانا من الجنة إلا طارت به إليه ، ورأى كأن اثنين أتياه وأرادا أن يذهبا به إلى النار فلقاهما ملك فقال :

— لا تُرْع .

فخليا عنه .

فذهب إلى أخته حفصة أم المؤمنين وقد وجب قلبه وقص عليها رؤياه وهو يرجو أن تعرف أخته من رسول الله — ﷺ — تأويل ما رأى ، فقصت حفصة على النبي — ﷺ — رؤياه فقال رسول الله — ﷺ — :
— نعم الرجل عبد الله لو كان يصلى من الليل بكبر .
ولم يدع ابن عمر بعدها قيام الليل في حله ولا ترحاله .

كانت المدينة تشرق كل صباح ومساءً بوحى السماء ، وكان رسول الله ﷺ — سارة النور قد التف حوله رجال يقتبسون منه العلم والحكمة وأضواء الهداية إلى الطريق . وما كانوا رجالاً ضعافاً يفرون من قيظ الحياة إلى الدعة والطمأنينة والهدوء ، بل كانوا سادات في قريش وصفوة المدينة التي فتحت أبوابها طائفة لتستقبل الرسول الكريم في ترحيب وتهليل ، بعد أن فزع القرآن المجيد أهدتهم لما ألقوا إليه أسماعهم وقد برأت من الحسد بغوسهم ، ورجالا فقراء في أعمال بالية ولكن بين جوانحهم قلوباً كبيرة تنفخ إلى أنوار اليقين . وكانوا جميعاً على استعداد لأن يجودوا بأرواحهم وأموالهم وأن يقفوا في وجه الدنيا بأسرها في سبيل إعلاء كلمة الحق ، في وقت كان رسول الله عليه السلام يقول لهم لا أملك لكم نفعا ولا ضرا ولا أدري ما يفعل بي ولا بكم .

تنازل أبو بكر الصديق عن طيب خاطر عن كل ما كان ينتظره من مجد إذا ما قبل أن يكون سيد بني تيم بعد أن هلك عبد الله بن جدعان ، وأثر أن يتبع النور وأن ينفق كل ما جاءه من تجارته في سبيل إشراق النور . إنه ما إن ألقى سمعه إلى القرآن حتى انهملت عيناه وتسربل بالحشوع وارتدى بالحزن وتلاأت في قلبه الأنوار ، فهجر كل مجد ليقف أثر مجد الله ، فكان صاحب الأمين ورفيق الهجرة ، وقد جعل حركته في تقوى الله ، وجعل الله ثقته ورجاءه فأصبح من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون .

وكان عمر بن الخطاب جبار الحاهلية يصب جام غصبه على المسلمين ، وذات يوم أقسم بألته وكل عزيز لديه أن يقتل الصائى الذى فرق بين الناس فخرج يريد رسول الله عليه السلام ، وفيما هو مطلق والشرر يقدر من عيبه قال له قاتل قوم بيتك قبل أن تسفك دم نبي الإسلام عليه السلام . فلما علم أن أخته قد أسلمت ذهب إلى بيت اخته سعيد بن زيد فسمع همهمة فدخل غاضبا كالعاصفة يسأل عن هذه الهمهمة ، ويضرب أخته ويضرب زوجها . ولما يسيل الدم من رأس أخته تقول فى شجاعة المؤمنين إنها كانت تقرأ القرآن ، فيطلب الصحيفة ليقرأ فيها فتقول له إنه نجس وأن عليه أن يتطهر قبل أن يمس كلام الله . ويخضع الجبار لامرأة مسلمة مسحها الإسلام مضاء عزيمة انهارت أمامها عزيمة ابن الخطاب ، ودخل ليتطهر ثم خرج يقرأ فى الصحيفة آيات الذكر الحكيم فإذا بدواء القرآن يشفى داء قلبه ، وإذا بالكفر يتبخر من نفسه ، وإذا بجذور الضلال تقتلع من أعماقه ، وإذا بالغى بحث من عين داته ، وإذا بالزيت الذى فى مشكاة قلبه يضىء ويصبح نورا على نور ، فيخرج من دار أخته يسأل عن رسول الله ﷺ — لا ليهريق دمه بل ليعلمن إسلامه وتصديقه لرسالة الرسول ويصغى إلى الذكر الحكيم ، فقد هدى إلى الصراط المستقيم .

وكان عثمان بن عفان يفلو ويروح بين أسواق الروم وأسواق الفرس وأسواق العرب ليجمع الأموال التى يشرف بها الرجال فى قرىش ، وقد صار من أغنياء الأمويين يعيش فى أمن ودعة وسلام . ولكن ما إن مس أذنيه القرآن المجيد حتى تفتح له قواده وامشرح له صدره فآمن برسالة النبي عليه السلام وهانت الدنيا فى عينيه ، وذاق حلاوة الإيمان والأنس برب العالمين ، وتحمل اضطهاد عمه الحكم بن العاص فى صبر حتى إذا ما نفذ

صبره هاجر إلى الحبشة فرارا بدينه وقد ترك أمواله وهجر تجارته ورحمة ربك خير مما يجمعون .

وتفتح قلب الصبي على من ألقى طالب على القرآن العظيم فعلم أنه الناصح الذي لا يخش ، والهادي الذي لا يضل ، والحدث الذي لا يكذب . وما جالس هذا القرآن أحد إلا قام معه بزيادة أو نقصان : زيادة في هدى أو نقصان من عمى ، وعلم أنه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة ولا لأحد قل القرآن من غى ، فاستشفه من أدوائه ، واستعان به على لأوائه ، وكرس حياته ليكون ربيبه ، واستعد ليزل روحه في سبيله .

وبلال بن رباح عبد بنى جمع الحبشى بصفى ذات يوم إلى رسول الله عليه السلام وهو يتلو بعض ما أنزل إليه من ربه ، فإذا بنور الله يستقر في سويداء قلبه فينقلب العبد الذليل إلى حر طليق وإن كاد لا يزال في الأرض من طبقة العبيد . إنه في قرارة نفسه قد خلع كل عبودية إلا عبوديته لله وحده ، فلما عرف إسلامه وعذب أشد العذاب كان نشيده : أحد .. أحد ، وصبر على العذاب حتى إن ساداته في الأرض راحوا يمتصون منه أن يذكر آلتهم بكلمة خير ليطلقوه فكان يقول : إن لساني لا يحسنه .

كانت آيات الله السيات الور الذي اتبعه ، الفصل بين الضلال والهدى ، فلم يغفل منذ أن أسلم عن قراءة القرآن صباحا ومساء فأحيا موات قلبه وأكسب داته عمقا وحصا وثراء ، وبات لا يخشى العالم ، وكيف يخشى الناس وهو يحس بكل وجوده أنه مع الله وأن الله معه ١٩ وسعد بن أبى وقاص ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة بن عبيد الله ، شباب قريش وفخر بيوت شرفها ما إن أعاروا رسول الله عليه السلام سمعهم وأنصتوا إلى كلام الله حتى انبجحت لقلوبهم

الحقيقة فأشرق بالأنوار ، وهجروا كل مباحج الدنيا في سبيل وجه الله ، وعكفوا على قراءة القرآن ففاصت عيونهم بالدمع ولم يروا أن أحدا ألقى أفضل مما أوتوا ، فصبروا في الله وصابروا بالله ورابطوا مع الله وضحوا بالأموال وراحة البال في سبيل معادة البشر .

وكان مصعب بن عمير أعطر أهل مكة ، ما من فتى بمكة أعم عبد أبويه منه . كان مدللًا يرقل في الحرير ولكنه كان يهاب أمه خناس بنت مالك فقد كانت صاحبة شخصية قوية ترهب كل الناس .

وسمع مصعب أن محمد بن عبد الله يدعو في دار الأرقم إلى دين جديد فذهب إلى الصفا واستأذن في الدخول فأذن له ، فجلس يصغى إلى ما يقرأ رسول الله عليه السلام من آيات الله اليناث ، فإذا بفواذه يتألق بالنور ، وإذا بصدره ينشرح للإسلام ، فيسط يده ليبايع رسول الله عليه السلام — ويعلن وهو متفرح في الله إسلامه .

ومنذ ذلك اليوم لم يستطع صبرا عن رسول الله عليه السلام فكان يأتيه ليلقى إليه سمعه ليسعد بعذوبة القرآن . فأمسى يقوم الليل إذ الناس نائمون ، ويصوم النهار إذ الناس مفطرون ، ويغمره الحزن إذ الناس يفرحون ، ويجهش بالكاء إذ الناس يصحكون ، ويمتلئ بالخشوع إذ الناس يخطلون .

وأبصر به عثمان بن طلحة وهو يدخل حفية إلى دار الأرقم ، ثم رآه يصلى مع المسلمين فطار إلى أم مصعب وألقى إليها بآ إسلام ابنها فارت وحاولت أن تشي ابنها عن الدين الذي دخل فيه ، ولكن محاولاتها باءت بالإحفاق فما كان القلب الذي عرف النور ليرضى بالعودة إلى الظلمات ، فاستعانت خناس بنت مالك بعشيرتها وحبست ابنها في ركن من الدار إلى

أن يعود الصائى إلى دين آباه وقومه .

واشتد لإذناء قريش للمسلمين فعمروا بدينهم إلى الحبشة ، وغافل مصعب أمه وحراسه ولحق بإخوانه المهاجرين وقد خفف من لوعته على فراق الأهل والأوطان أنسه بالله وتلاوته القرآن العظيم .

وعاد بعض مهاجري الحبشة إلى مكة وعاد مصعب مع العائدين ، ودخل على أمه وهو يرجو أن يشرح الله صدرها للإسلام فراح يتلو عليها القرآن . ولكن لا تعمى العيون ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور فأصرت على الكفر والضلال .

ولم يقط فقال لها وهو يحاورها :

— يا أمه ، إني لك ناصح وعليك شفق فاشهدى أنه لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله .

فلجأت فى الكفر وأعرضت عنه فآثر مصعب نور الله على حياة الدعة ورغد العيش ، فتركها وخرج وهو سعيد بما يحمل من قرآن عظيم ، وانطلق إلى يثرب ليفقه الأنصار الذين بايعوا رسول الله عند العقبة فى الدين .

وجاء أبو ذر من غفار يسمى إلى مكة ليقابل ذلك الرجل الذى يزعم أنه نبي يأتيه الخبر من السماء . فما إن ألقى سمعه إلى نبي الإسلام عليه السلام وهو يتلو بعض آيات الذكر الحكيم حتى أشرق النور فى قواده وانشرح صدره وانكشف له سر الملكوت . إنه جاء يطلب الهداية فعاد إلى غفار وهو يحمل النور ويتلو ما حفظ من الكتاب المير ، فطوى لأمة ينزل عليها هذا ! وطوى لأجواف تحمل هذا ! وطوى لألسنة تنطق بهذا !

وقدم الطفيل بن عمرو الدوسى مكة وكان رجلا شاعرا ليبييا ، فمشى إليه رجال من قريش فقالوا له :

— يا طفيل إنك قلمت بلادنا وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضل بها وقد فرق جماعتنا وشتت أمرنا ، وإنما قوله كالسحر يفرق بين الرجل وبين أبيه وبين الرجل وبين أخيه وبين الرجل وبين زوجته ، وإنما نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا فلا تكلمنه ولا تسمع منه شيئا .
فما زالوا به حتى أجمع أن لا يسمع منه شيئا ولا يكلمه حتى حشا في أذنيه حين غدا إلى المسجد قعطا فرقا من أن يبلغه شيء من قوله وهو لا يريد أن يسمعه ، فغدا إلى المسجد فإذا رسول الله ﷺ — قائم يصلي عند الكعبة فقام منه قريبا ، فأبى الله إلا أن يُسمعه بعض قوله فسمع كلاما حسنا فقال في نفسه :

— وأتكل أمي ، والله إنى لرجل لبيب شاعر ما يخفى على الحسن من القبيح ، فما يحمي أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ؟ فإن كان الذي يأتي به حسنا قبلته وإن كان قبيحا تركته .

فمكث حتى انصرف رسول الله ﷺ — إلى بيته فاتبعه ، حتى إذا دخل بيته دخل عليه فقال :

— يا محمد إن قومك قد قالوا لي كذا وكذا ، فوالله ما يرحوا يخوفونني أمرك حتى سددت أذني بكر سُف^(١) لئلا أسمع قولك ، ثم أبى الله إلا أن يسمعني قولك فسمعتة قولنا حسنا ، فاعرض على أمرك .

فعرض عليه رسول الله ﷺ — الإسلام وتلا عليه القرآن فأحس كأن الجاهل الذي ران على قلبه قد كشط ، وأنه ينظر إلى ملكوت السماء بعد أن هبت عليه نسائم الألطاف . إنه وهو الشاعر اللبيب لم يسمع قولاً

قط أحسن مما يتلوه رسول الله عليه السلام فأسلم وشهد شهادة الحق ورجع إلى دوس ليفتحها للإسلام بالقرآن المجيد .

ولقى رسول الله ﷺ — عند العقبة رهطاً من الخرج فقال لهم :
— من أنتم ؟

— نفر من الخرج .

— أمن موالي يهود ؟

— نعم .

— أفلا تجلسون أكلمكم ؟

— بلى .

فجلسوا معه فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن فأحسوا كأنما جعل الله لهم نوراً يمشون به في الناس ، فصدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام وقالوا :

— إنا تركنا قومنا ولا قوم يهتدون بالشر ما يهتدون فجمعهم الله بك ، فاستقدم عليهم فدعاهم إلى أمرك ونعرض عنهم الذي أحسبك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك .

فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله ﷺ — ودعاهم إلى الإسلام وتلا عليهم القرآن ، فأشرقت أنوار المعارف في قلوبهم وارتفعت عنها الحجب بلطف من الله تعالى فامتثلت صدورهم بأنوار اليقين ، وفتش الإسلام فيهم فلم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ .

قام محمد بن عبد الله ﷺ — في مكة وحده أعزل من كل سلاح إلا سلاح القرآن ، يدعو الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له ويتلو

عليهم ما أنزل عليه من ربه ، فلما سمع أولو الألباب آيات الله البينات فاضت عليهم الرحمة وأشرق النور في أهدئهم وتلاأت فيها حقائق الأمور فأعرضوا عن زخرف الحياة الدنيا وأقبلوا بكه الهمة على الله فكانوا لله وكان الله لهم .

فتح عليه السلام القلوب المعلفة بالقرآن ، وما إن سمعت المدينة آيات الذكر الحكيم حتى فتحت أبوابها للوافد الكريم خاتم المرسلين . ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال بضرها للناس لعلهم يتفكرون ﴾ * هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم * هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحانه الله عما يشركون * هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴿ (١) ٠

كان رسول الله ﷺ — أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر . إنه صبح من السخاء والجود ما فاق به كل جواد ، وقد فتح الله له حصون اليهود وأنفله قوافل قريش فما اقتنى ديناراً ولا درهما . لا يأكل إلا الغليظ من الطعام ولا يلبس إلا الخشن ويصبر على الجوع .
وكان — ﷺ — إذا سئل وهو مُعْطِمٌ وعد لم يرد وانتظر ما يفتح الله .
إنه كان جالساً في مسجده فجاء رجل إليه يسأله ولم يكن عنده ما يعطيه فقال :

— اجلس سيرزقك الله .

ثم جاء آخر ثم آخر فقال لهما :

— اجلسا .

وجلس الرجال الثلاثة وقد مالت الشمس للغروب ، فجاء رجل بأربع أواق فأعطاه إياها وقال :

— يا رسول الله هذه صدقة .

فدعا الأول فأعطاه أوقية ، ثم دعا الثاني فأعطاه أوقية ، ثم دعا الثالث فأعطاه أوقية ، وبقيت معه أوقية واحدة فعرض بها للقوم فما قام أحد . فلما كان الليل دخل بيت عائشة ووضع الأوقية تحت رأسه وفراشه عاؤه فجعل لا يأخذه النوم فيرجع فيصلي ، فقالت له عائشة :

— يا رسول الله حل بك شيء ؟

— لا .

— فجاءك أمر من الله ؟

— لا .

— إنك صنعت منذ الليلة شيئا لم تكن تفعله .

فأخرج الأوقية وقال :

— هذه التي فعلت في ما ترين ، إنى خشيت أن يحدث أمر من الله ولم

أضبطها .

ولم تعجب عائشة فهي تعرف إرهاف حسه وكرمه وجوده وخشيته

من الله ، إنه يقول :

— أنا أولى بالؤمنين من أنفسهم ، فمن ترك ديننا فعلى ، ومن ترك مالا

فلورثته .

وكان أصحابه يحبونه حبا يفوق حبهم أهلبيهم وأبنائهم ، ويطيعونه

طاعة لم ير ملك ولا حاكم مثلها من رعاياه وشعبه مهما بلغ حب الشعب

إياه ، ولا جرم فقد كان رسول الله ﷺ — على خلق عظيم يأتيه الوحي

من السماء . ولم يمنع ذلك الحب والتجليل أصحابه من أن يسألوه عن

أشياء اتقاسا لطمأنينة النفوس . قالت له الأنصار يوم بدر وقد نزل بمنزل

لم يستصلحوه :

— أنزلت هذا المنزل عن رأى رأيت أم بوحي أوحي إليك ؟

قال :

— بل عن رأى رأيت .

قالوا :

— إنه ليس لنا بمنزل ، ارحل عه .

ورحل عه ونزل إلى حيث أشار أصحاب المكيمة والحرب .

(عروة الخندق)

وقال له سعد بن معاذ وسعد بن عباد يوم الخندق وقد عزم على مصالحة غطفان ببعض تمر المدينة .
— قالوا —

— لا والله لا نعطيهم منها ثمرة واحدة وأيديها في مقابض سيوفنا !
ولم يعصب لأيهما خائفاً رأيته وما أشار به بل نزل على مشورتها وهو راضى النفس ، حتى جاء الله بالنصر .

وكان عليه السلام يمتد الظلم فيقول : انسلم أحو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ، ومن كان في حاجة أخيه كان لله في حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة فرح الله عنه كربة من كربات يوم القيامة ، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة . وكان يقول : الظلم ظلمات يوم القيامة

إنه عليه السلام سمع خصومة بباب حجرته فحرج إليهم فقال :
— إنما أنا بشر وإنه يأتي الخصم فلعل بعضكم أن يكون مبلغ من بعض فأحسب أنه صدق فأقضى له بذلك . فمن قضيت له حق مسلم فأبما هي قطعة من النار فليأخذها أو فليتركها .

وعلى الرغم من مقتله للظلم والظالمين فإنه كان يحب أن يحرج الناس عن ظلمهم فيقول :

— من كانت له مظلمة لأحد من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم . إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم تكن له حساسات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه .

وكان — عليه السلام — يتلو ما أنزل إليه من ربه : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين ﴾ * ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل * إنما السبيل على الدين يظلمون الناس ويغفون

في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم * ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور * ومن يضلل الله فما له من ولي من بعده وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل ﴿١﴾ .

وكان عليه الصلاة والسلام يحاول بكل ما أوتي من عزم أن يعطى كل دى حق حقه وأن يرسي في الأرض أسس العدل ، فقد كان للأشعث بئر في أرض ابن عم له فاخصصا إلى رسول الله عليه السلام ، فقال — ﷺ — لأشعث :

— شهودك ؟

— ما لي شهود .

— فيمينه .

قال أشعث :

— يا رسول الله إذا يحلف .

وحشى رسول الله عليه السلام أن يحلف معدان بن الأسود ابن عم أشعث يمينا فاجرة يذهب بها حق صاحب الحق ، فقال :

— من حلف على يمين يقطع بها مال امرئ هو عليها فاجر نفى الله وهو عليه غضبان . فأنزل الله تعالى : ﴿٢﴾ إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكهم ولهم عذاب أليم ﴿١﴾ .

ولم يكن عليه السلام يقف عند حقوق الناس بل كان يحص على توفير حقوق الأبدان بله الآبار والطرق والأرضين . كان يقول : إن لبدك

عليك حقاً . وقال للأنصار :

— إياكم والجلوس على الطرقات .

فقالوا :

— ما لنا بد ، إنما هي مجالسنا نتحدث فيها .

— فإذا أبيتم إلا المجالس فأعطوا الطريق حقها .

— وما حق الطريق ؟

— عَضْنُ البَصَرِ ، وكَفُّ الأذَى ، ورد السلام ، وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر .

وكان — ﷺ — يقول : إماطة الأذى عن الطريق صدقة .

وحلَسَ ذات يوم يحدث أصحابه قال :

— بينا رحل بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئراً فرل فيها فشرب ،

ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش فقال الرجل :

« لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني » .

فزَلَّ البئر فملاً خفه ماء فسقى الكلب ، فشكر الله له فغفر له .

قالوا :

— يا رسول الله وإن لنا في البهائم لأجراً ؟

— في كل ذات كبد رطبة أجر .

وكان أصحاب الرسول عليه السلام يزرعون الأرض بالثلاث والرَّبع

والصَّف ، فقال النبي — ﷺ — :

— من كانت له أرض فليزرعها أو يمحها أخاه ، فإن أتي عليه من

أرضه .

وكان عليه السلام يحض أصحابه على العمل فيقول : إن الإنسان

ليُؤجر إن قامت الساعة وفي يده عمل فأتمه . ويقول : إن الإيمان هو العمل ، بل ذهب إلى أن الإنسان يعمل في الآخرة . إنه كان يوما يحدث وعنده رجل من أهل البادية فقال :

— إن رجلا من أهل الجبة استأذن ربه في الزرع فقال له : أأنت فيما شئت ؟ قال : بلى . ولكي أحب أن أزرع . فبذر فبادر الطرف بهاته واستواؤه واستحصاده فكان أمثال الحبال ، فيقول الله تعالى : دونك يابن آدم فإنه لا يشبعك شيء .

فقال الأعرجي :

— والله لا تجده إلا قرشيا أو أصاريا فإنهم أصحاب ررع ، وأما نحن فلسنا بأصحاب زرع .

فضحك النبي — ﷺ .

وإنه — ﷺ — جاء ليعتم مكارم الأخلاق ، فكان يوصي الإنسان بوالديه إحسانا . وقد سأله ذات يوم عبد الله بن مسعود كاتم سره :

— أي العمل أحب إلى الله ؟

— الصلاة على وقتها .

— ثم أي ؟

— ثم بر الوالدين .

— ثم أي ؟

— الجهاد في سبيل الله .

وجاء رجل إلى رسول الله عليه السلام فقال :

— يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي ؟

— أمك .

— ثم من ؟

— أمك .

— ثم من ؟

— أمك .

— ثم من ؟

— ثم أبوك .

وقال رجل للبي — صلى الله عليه وسلم :

— أجاهد .

— لك أهوان ؟

— نعم .

— فقيهما فجاهد .

وقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم :

— إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه .

— يا رسول الله وكيف يلعن الرجل والديه ؟

— يسب الرجل أما الرجل فيسب أباه ويسب أمه .

وقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لأصحابه :

— ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟

— بلى يا رسول الله .

— الإشرak بالله وعقوق الوالدين .

وكان متكئا فجلس فقال :

— ألا وقول الزور وشهادة الزور ، ألا وقول الزور وشهادة الزور .

فما زال يقولها حتى قيل لا يسكت .

وجاءت إلى أسماء بنت أبي بكر أمها و كانت مشركة ، فذهبت أسماء إلى رسول الله ﷺ — فقالت :
— أصلها .
— نعم .

فأنزل الله تعالى : ﴿ لا ينهاكم الله عن الدين لم يقانكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرهواهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ﴾ إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴿١﴾
وجاء أعرابي إلى النبي ﷺ — وكان عبده الحسن بن علي ، فقيل رسول الله عليه السلام الحسن فقال الأعرابي :
— تقبلون الصبيان ؟ فما تقبلهم .

فقال النبي ﷺ :
— أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة ؟
وكان عليه السلام يرى أن حسن العهد من الإيمان . إنه كان يذكر خديجة بنت خويلد حاضنة الإسلام على الدوام . وكان إذا ذبح الشاة يهدي أحبائها منها حتى إن عائشة أم المؤمنين كانت تقول :
— ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة ، وقد هلك قبل أن يتروحني ثلاث سنين لما كنت أسمعها يذكرها .

وكان عليه السلام يقول :
— من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ، ومن كان يؤمن بالله

واليوم الآخر فليكرم ضيقه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت .

ويقول :

— والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن

قبل :

— من يا رسول الله ؟

— الذى لا يأمن جاره بوائقه .

وقال عليه السلام :

— ما زال يوصى جبريل بالجار حتى ظننت أنه سيورثه .

وكان يعلم أصحابه أن الكلمة العظيمة صدقة ، وأن الله يحب الرفق في الأمر كله ، وأن من يشفع شفاعته حسنة يكن له نصيب منها ، ومن يشفع شفاعته سيئة يكن له كفل منها ، ولم يكن عليه السلام فاحشا ولا متعحشا وكان يقول :

— إن من أخيركم أحسكم خلقا

واستأذن رجل على النبي — فلما رآه قال :

— بش أخو العشرة وبش ابن العشرة .

فلما جلس تطلق النبي — ﷺ — في وجهه وانبسط إليه ، فلما انطلق

الرجل قالت له عائشة :

— يا رسول الله حين رأيت الرجل قلت له كذا وكذا ، ثم تطلعت في

وجهه وانبسطت إليه .

فقال رسول الله — ﷺ — :

— يا عائشة متى عهدتني فاحشا ؟ إن شر الناس منزلة يوم القيامة من

تركه الناس انقاء شره .

كان عليه السلام أحسن الناس وأجود الناس وأشجع الناس ، ولقد فرغ أهل المدينة ذات ليلة فانطلق الناس قبل الصوت فاستقبلهم النبي — ﷺ — قد سبق الناس إلى الصوت وهو يقول :

— لن ترأعوا ، لن ترأعوا .

وهو على فرس لأنى طلحة عرى ما عليه سرح في عقه سيف ، فقال :

— لقد وجدته بجرا^(١) .

وما سئل عليه السلام عن شيء قط فقال لا ؛ فقد جاءت امرأة إليه ببردة فقالت :

— يا رسول الله أكسوك هذه .

فأخذها النبي — ﷺ — محتاجا إليها فلبسها ، فراها عليه رجل من الصحابة فقال :

— يا رسول الله ما أحسن هذه فاكسنيها .

— نعم .

فلما قام السى — ﷺ — لأمه أصحابه قالوا :

— ما أحسنت حين رأيت النبي — ﷺ — أخذها محتاجا إليها ثم سألتها إياها ، وقد عرفت أنه لا يسأل شيئا فيمنعه .

— رجوت بركتها حين لبسه النسي — ﷺ — لعلى أكفن فيها .

وخدم أنس النبي — ﷺ — مما قال له أف ! ولا لم صنعت ؟ ولا ألا صنعت ؟ وكان عليه السلام في مهمة^(١) أهله فإذا حضرت الصلاة قام إلى

(٢) خدمة .

(١) أى واسع الحرى مثل البحر .

الصلاة ، وكان يقول :

— لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى يحب المرء لا يحبه إلا الله ، حتى أن يقدف في النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله ، وحتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما .

وكان يهي أصحابه عن الطعن فيقول :

— إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث . ولا تحمسوا ولا تجسسوا ولا تحاسدوا ولا تداوروا ولا تناغضوا ، وكونوا عباد الله إخوانا .

وكان عليه السلام متواضعا لله وأشد الناس خشية لله ، وكان أشد حياء من العذراء في خدرها ، فإذا رأى شيئا يكرهه عرف في وجهه ، وكان يقول :

— الحياء لا يأتي إلا بخير .

وقد مر على رجل وهو يعاتب أخواه في الحياء يقول :

— إنك لتستحي ، قد أضربك .

فقال رسول الله — ﷺ :

— دعه فإن الحياء من الإيمان .

وكان عليه السلام يحب التخفيف واليسر على الناس ، وقد قالت عائشة أم المؤمنين :

— ما خير رسول الله — ﷺ — بين أمرين قط إلا أخذ أيسرهما ما لم

يكن إثما ، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه ، وما انتقم لنفسه في شيء قط إلا أن تنتهك حرمة الله فيستقم بها الله .

وكان يقول :

— يسروا ولا تعسروا ، وسكوا ولا تنفروا .

وبال أعرأى في المسجد فثار إليه الناس ليقعوا به ، فقال لهم رسول الله ﷺ :

— دعوه وأهريقوا على بوله ذنوباً^(١) من ماء ، فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين .

وأخبر عليه السلام أن عبد الله بن عمرو يقوم الليل ويصوم النهار ، فدخل عليه فقال :

— ألم أنخبر أنك تقوم الليل وتصوم النهار !

— بلى .

— فلا تفعل ، قم ونم وصم وأفطر ، فإن لحسدك عليك حقاً ، وإن لعبك عليك حقاً ، وإن لزورك^(١) عليك حقاً ، وإن لزوجك عليك حقاً .

وكان عليه السلام يقول :

— ليس الغنى عن كثرة العرض ، ولكن الغنى غنى النفس .

مر رجل على رسول الله ﷺ — فقال لرجل عنده جالس :

— ما رأيك في هذا ؟

— رجل من أشرف الناس ، هذا والله حري إن خطب أن يتكع ، وإن شفع أن يشفع .

فسكت رسول الله ﷺ ، ثم مر رجل آخر فقال رسول الله ﷺ :

— ما رأيك في هذا ؟

— يا رسول الله هذا رجل من فقراء المسلمين . هذا حري إن خطب

(١) أى لزورك وضيفك .

ألا ينكح ، وإن شفع ألا يشفع ، وإن قال ألا يسمع لقوله .
فقال رسول الله — ﷺ :

— هذا خير من ملء الأرض من مثل هذا .
وبينا الصحابة جلوس مع النبي — ﷺ — في المسجد دخل رجل على
جمل فأناخه في المسجد ثم عقله ، ثم قال لهم :

— أيكم محمد ؟

والنبي — ﷺ — متكىء بين ظهرانيهم فقالوا :

— هذا الرجل الأبيض المتكىء .

فقال له الرجل :

— ابن عبد المطلب .

فقال له النبي — ﷺ :

— قد أجتك .

— إني سائلك فمشدد عليك في المسألة ، فلا تجذ علي في نفسك .

— سل عما بدا لك .

— أسألك بربك ورب من قبلك الله أرسلك إلى الناس كلهم ؟

— اللهم نعم .

— أشدك بالله الله أمر أن نصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة ؟

— اللهم نعم .

— أشدك بالله الله أمر أن نصوم هذا الشهر من السنة ؟

— اللهم نعم .

— أشدك بالله الله أمر أن يأخذ هذه الصدقة من أعياننا فبقسمها على

فقرائنا ؟

— اللهم نعم .

— آمنت بما جئت به .

وأقْبَى عَثْبَانُ بْنُ مَالِكٍ ، وَهُوَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ — ﷺ — مَنْ شَهِدَ بِدْرَا مِنَ الْأَنْصَارِ ، رَسُولُ اللَّهِ — ﷺ — فَقَالَ :

— يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ أَنْكَرْتَ بَصْرِي وَأَنَا أَصْلِي لِقَوْمِي ، فَإِذَا كَانَتِ الْأَمْطَارُ سَالِ الْوَادِي الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ لَمْ أُسْتَطِعْ أَنْ آتِيَ مَسْجِدَهُمْ فَأُصَلِّيَ بِهِمْ ، وَوَدِدْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْكَ تَأْتِيَنِي فَتُصَلِّيَ فِي بَيْتِي فَأَتَّخِذَهُ مَصَلًى .
فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ — ﷺ :

— مَا فَعَلَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

فَعَدَا رَسُولُ اللَّهِ — ﷺ — وَأَبُو بَكْرٍ حِينَ ارْتَمَعَ الْهَارُ ، فَأَسْتَادَ رَسُولُ اللَّهِ — ﷺ — فَأَذَّنَ لَهُ ، فَلَمْ يَجْلِسْ حِينَ دَخَلَ الْبَيْتَ ، ثُمَّ قَالَ :

— أَيْنَ تَحِبُّ أَنْ أَصْلِيَ مِنْ بَيْتِكَ ؟

فَأَشَارَ لَهُ إِلَى نَاحِيَةِ مِنَ الْبَيْتِ ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ — ﷺ — فَكَبَّرَ ، فَقَامُوا فَصَفَّوهُمْ فَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ ثُمَّ سَلَّمَ .

وَحَبَسَهُ عَلَى حَزِيرَةٍ ^(١) صَعَوْهَا لَهُ ، فَجَاءَ فِي الْبَيْتِ رِجَالٌ مِنْ أَهْلِ الدَّارِ ذُوو عِدَدٍ فَاجْتَمَعُوا فَقَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ :

— أَيْنَ مَالِكُ بْنُ الدُّخَشَنِ ؟

فَقَالَ بَعْضُهُمْ :

— ذَلِكَ مَنَافِقٌ لَا يَحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ — ﷺ :

(١) الْحِصَاءُ مِنَ الدِّسَمِ وَالْدَقِيقِ .

— لا تقل ذلك ، ألا تراء قد قال لا إله إلا الله يريد بذلك وجه الله ؟
 — الله ورسوله أعلم ، فأيا ترى وجهه ونصيحته إلى المسافقين .
 قال رسول الله ﷺ :
 — فإن الله قد حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله .
 كان رقيق القلب على خلق عظيم فتعلقت به القلوب وهفت إليه :
 ﴿ فيما رحمة من الله لست لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفصوا من
 حولك فاعف عنهم واستعفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل
 على الله إن الله يحب المتوكلين ﴾ (١) .

كان القرآن اعيد ينزل على رسول الله ﷺ - فيشرع للناس عباداتهم وسلوكهم ويقود حياتهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، ويفرس في نفوسهم عقيدة سمحة تحكم الوجدان وواقع الحياة ، فصار الدين نض المديية وروح مجتمعا وياعث نشاطها الحى الخلاق .

وصار القرآن مصدر كل حركة والإشعاع الذى تقتبس منه الأهددة نور الذى يرشدها إلى طريق الرشاد فى الدنيا والآخرة : ﴿ إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والحاشعين والحاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم معفرة وأجرا عظيما . وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضللا ميبا ﴾ (١) .

وأصبح القانون الإلهى الذى لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه هو الشريعة التى يتبعها المسلمون ، فإذا بالمجتمع القبل الذى كان يسوده الفردية والتباغض والتشاحن يغدو أمة متأسكة انبعثت فى أبنائها بمقظة روحية ومقظة فكرية فتحت القلوب لأنوار اليقين ، فظهرت ينابيع الحكمة فى الأهددة على الألسن وفى السلوك .

وقد نصح وحى الله في أن يكون في بضع سنين مجتمعاً متكاملًا غاية التكامل ناضجاً غاية النضج ، لم تعرف له طفولة أو شباب بل فحولة بلغت غاية رشدها العقلي ورشدتها الروحي . ولا غرو فما كان مجتمعاً من صنع البشر يحتاج في تطوره إلى أجيال وقرون بل كان من صنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تعملون .

عُدل كتاب الله المأخوذ التفكيرى للمؤمنين وقضى على كل صراع بين منطق البيئة وشرعية الله لمن شاء أن يستقيم . كانت يثرب موئل صاحبات الرايات الحمر وكان شباب الحرية العربية وشيوخها المأجرون يشدون إليها الرجال ليعموا باليعابها من سادات الأوس والخزرج وبنات اليهود ، فنزل القرآن الكريم يحرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن فاقطعت ثقيفة صاحبات الرايات الحمر واجتثت من المدينة عادة إكراه السادات إماءهم على البغاء رجاء عرض الحياة الدنيا ، ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم .

وكانت القوافل تأتي بالخمر من الشام وما كان مجلس من محالس العرب يخلو من الشراب ، وكان شعر الشعراء حتى المسلمين منهم يفيض بالخمريات ، فلما أنزل الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ^(١) . كسر المسلمون دمان الخمر وأهريقوا الطريق فجرت في طرقات المدينة أنهارا ، وحرمت على المؤمنين . وكانت البيئة تحتقر المرأة لا تستكر وأدها صغيرة ولا طردها من البيت

زوجة في الخيض : ﴿ وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون ﴾ ^(١) . فجاء القرآن ليرد للمرأة كرامتها في عالم لا يعرف لها كرامة : ﴿ فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى ﴾ ^(٢) . ولم يكن لها حق الملك ولا التصرف فيما تملك ، وما كانت تورث فما كانت تقاتل في سبيل شرف القبيلة فحذاء الكتاب المنير ليقرر لها حقوقاً رغم أنف العرف والتقاليد وما جبلت عليه البيعة : ﴿ للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ﴾ ^(٣) .

وكان الكرم للرهو والفخر والأحاديث والذكر وما كان ينبع من وجدان حي ، وما كان الأغنياء يتصورون أن لفقراء حقاً معلوماً في أموالهم ، وما خطر لهم على قلب أن الأموال التي يحرثونها مال الله وأهم مستحلفون فيها ، فجاء القرآن يشرع لهم في أعز ما يملكون ، في ربة الحياة الدنيا ، فقبلوا ما جاء من عند الله طائعين دون صراع بين الطبقات ودون حمامات من الدم لانتزاع الحقوق : ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذی القرى والیتامى والمساكين وابن السبيل كيلاً يكون دولة بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾ ^(٤) .

وقد حضهم رسول الله ﷺ — على العمل وفتح لهم أبواب التجارة

(٢) النساء ٧ .

(٤) المائدة ٥ .

(١) النحل ٥٨ — ٥٩ .

(٣) آل عمران ١٩٥ .

وقال : تسعة أعشار الرزق في التجارة ترك لهم حرية العمل دون أن يخشى استبداد الأموال في تسير دفة الحكم ، فقد نظم الله للمجتمع العملاق الذي أقامه في المدينة طريقة التصرف في ثمرة العمل ، فزين للمسلمين الإنفاق : ﴿ قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة ويبفقوا مما رزقاهم سرا وعلاية ﴾ (١) . ﴿ ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو ﴾ (٢) . ووعد الذين يكتزون الذهب والفضة بعذاب أليم : ﴿ والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحصى عليها في نار جهنم فكتوى بها جباههم وجنوبهم وطهورهم هذا ما كترتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكتزون ﴾ (٣) .

وفرض على الأغنياء الزكاة : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكهم بها ﴾ (٤) . ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ (٥) . ﴿ ومن تزكى فإنما يتركى لنفسه وإلى الله المصير ﴾ (٦) . رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار . ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ (٧) .

وإن الله قد أوحى إلى رجال المدينة الفاضلة التي أقامها في الأرض فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين ﴾ (٨) . ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكى من يشاء والله سميع عليم ﴾ (٩) .

(٣) التوبة ٢٤ — ٢٥

(٦) فاطر ٦٨ .

(٩) البور ٢١ .

(٢) البقرة ٢١٩

(٥) الأعل ١٤ .

(٨) الأنبياء ٧٣

(١) إبراهيم ٢١

(٤) التوبة ١٠٢

(٧) النور ٣٧ — ٣٨

وشرع نظام التوريث لتفتيت الثروات لكيلا يتكدس المال في أيدي قلة من الأغنياء فيتعطل عن تأدية رسالته : ﴿ يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وإن كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث فإن كان له إخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصي بها أو دين آبائكم وأبائكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا فريضة من الله إن الله كان عليما حكيما . ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين ، وهن الربع مما تركن إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركن من بعد وصية توصون بها أو دين وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث من بعد وصية يوصي بها أو دين مضاف وصية من الله والله عليم خليم . تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم . ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين ﴾ (١) .

وكان مطلق البيئة أن تكون الكلمة العليا لزعم القبيلة يحكم في الناس حسب هواه أو حسب العرف والتقاليد إن أراد أن يعرف عه العدل بين الناس ، فجاء الإسلام وركبه الأول شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فبدأ بتعني الربوبية عن كل خلقه ليثبتها لله وحده فصار للناس

إله واحد ومسيد واحد له وحده حق التشريع ورسم منح الحياة لعباده ؛
وشهادة أن محمدا رسول الله هي شهادة تصديق بأن الأوامر والنواهي التي
جاءت في القرآن العظيم هي من عند الله ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا لهما واحدا
لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ ^(١) . فلم يكن منطلق البيعة ليحول
بين شهادة الحق وأئمة الناس فتنحروا من اتحاد بعضهم لبعض أربابا ولم
يشهدوا إلا بربوبية الله وحده لا شريك له .

وكانوا يظرون إلى ساداتهم نظرة إحلال وإكبار يقيسون عظمتهم
بمقدار ما عندهم من أموال أو لهم من نفوذ ، حتى إذا ما نزل القرآن على
رسول الله ﷺ — أظهروا العجب ﴿ وقالوا لو لا نزل هذا القرآن
على رجل من القرينتين عظيم — أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم
معيشتهم في الحياة الدنيا ورعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتحد بعضهم
بعضا سخريا ورحمة ربك حير مما يجمعون ﴾ ^(٢) .

وكانت البيعة لا تقر رواح العبد من سيادة شريفة ، وكانت ترى في مثل
ذلك الزواج ثلما للشرف وجرحا للكرامة وعارا تحمله الأحيال ، ولما كان
رب الناس خالق البشر يريد أن يرسى قواعد حقيقة أن الناس سواسية وأهم
لآدم وأن لا فصل لأحد على أحد إلا بالتقوى ، فقد أمر رسوله أن يزوح
ابنة عمته ربيب بنت جحش الشريفة التي تزوه بنسبها إلى عمه ريد
ابن حارثة . فلما أرسل عليه السلام إلى أهلها يخطبها لزيد عضت وغصبا
فأنزل الله تعالى : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله
أمر أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل
ضللا مبينا ﴾ ^(٣) . فقالت ربيب سمعنا وطاعة لله ورسوله ،

وتزوجت زينب بنت جحش الشريفة ذات الحسب من زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ — فكسرت تقليدا جائرا يحط من كرامة الإنسانية ، وأخذت بيد الإنسان لترفعه إلى قمة البشرية . وكانت البيعة تنفر أشد الفور من زواج السيد من مطلقة من تناءه ، وقد بنى رسول الله ﷺ — زيدا وزوجه ابنة عمته بأمر الله ، وإن زيدا يأتيه يطلب منه أن يطلق زوجته فكان رسول الله عليه السلام يقول له : — أمسك عليك زوجك .

وكان الله يريد أن يغسل ضمائر المؤمنين مما وقر فيها من عادات الجاهلية وأن يعيد للبشرية كرامتها وأن يكافئ زينب بنت جحش على طاعتها لأوامر الله ورسوله فأنزل : ﴿ وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنكمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطرا روجاها لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا ﴾ (١) .

جاء الإسلام لمحو آثار شطط الجاهلية من النفوس ثم يسائر المفطرة التي فطر الله الناس عليها لا تبديل لخلق الله ، وما كان ليلقى بالا لمطلق البيعة إذا ما كان ذلك المنطق يتعارض مع المفطرة بل كان يبحث من نفوس المؤمنين كل عرف أو عادة أو تقليد يحط من شأن البشرية بأمر سماوى . فلم يجد لأحد في الإسلام من أمر بل الله الأمر جميعا ، له مقاليد السموات والأرض يسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بكل شيء عليم .

وقد شرع الله للمسلمين ما وصى به كل المؤمنين في كل العصور ، فلم تكن تعاليم الله تعرف التطور فالعبادة ثابتة ثبات الإله والعقيدة ثابتة والقيم الأخلاقية ثابتة . وقد قال عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحى إليك وما وصيا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يحتسب إليه من يشاء ويهذى إليه من ينيب . وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ولولا كلمة سقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لملئ شك منه مريب . فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربما وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير . والذين يحتاجون في الله من بعد ما استجيب له حاجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد . الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان وما يدريك لعل الساعة قريب . يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون بها ويعلمون أنها الحق ألا إن الذين يمارون في الساعة لملئ ضلال بعيد . الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز ﴾ (١) .

كان محمد — ﷺ — خاتم النبيين أمره الله أن يبلغ رسالته وأنزل عليه قرآنا كتب الله على نفسه أن يحفظه بعد أن ضيع الناس كل ما نزل على الرسل من ربهم : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ (٢) . وقد جعل الله صحابة محمد من حير البشر ليحفظوا في صدورهم كتابه حتى

يحيين وقت التدوين : ﴿ كتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون . لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون ﴾ (٣) .

(١) آل عمران ١١٠ — ١١١ .

تحقق كيان الإنسان في المدينة وأشرقت فيها الأنوار ، وقد عميت عنها قلوب القبائل المخاورة لها وحسبت أن نور الله إن هو إلا ثورة على معتقدات الآباء وتسفيه أحلامهم حق عليهم إجمادها ، فكانت تلك القبائل تحاول أن تجمع الجموع لتشن هجوما على الصائتين . ولكن رسول الله ﷺ — كان يبحث السرايا قبل أن يتمكن أعداؤه من أن يتجمعوا ليلقى الرعب في قلوبهم صيانة لذلك المجتمع الناشئ الذي سيمحمل الأمانة إلى العالمين .

بلغ رسول الله ﷺ — أن بى أسد قد جمعوا جموعهم عند ماء العمر ليسيروا إلى المسلمين فلم يتطرق عبه السلام حتى يفحشوه في عقر داره ، فوجه إليهم عكاشة بن محص الأسد في أربعين رجلا ، فخرج يسرع في السير إلى أن وصل إلى ماء الغمر فوجد القوم علموا بهم فهربوا .

و لم يجد عكاشة والذين معه في دارهم أحدا ، فبعث عكاشة شجاع بن وهب طليعة يطلب خبرا ويرى أثرا ، فانطلق شجاع ثم عاد يخبر أنه رأى أثر نعم قريبا . فانطلقوا حتى وجدوا رجلا نائما فسألوه عن خبر الناس فقال :

— وأين الناس ؟ لقد لحقوا بعليات بلادهم .

— فالنعم ؟

— معهم .

فضربه أحدهم بسوط في يده فقال :

— تؤمنوني على دمي وأظلمكم على نعم لبي عم لي لم يعلموا بمسيركم

إليهم ؟

— نعم .

فأمروه فانطلقوا معه ، فأمعن في الطلب حتى حافوا أن يكون ذلك غدرا منه لهم فقالوا له :

— والله لتصدقنا أو لنضربن عقتك .

— تطلعون عليهم من هذا الخجل .

فلما طلّعوا منه وجدوا بعضا روائع فأغاروا عليها فاستاقوها فإذا هي مائة بعير . وشردت الأعراب في كل وجه ولم يطلبوهم وانحدروا إلى المدينة بتلك الإبل وقدموا على رسول الله ﷺ — ولم يلقوا كيذا .

وفي شهر ربيع الآخر سنة ست من مهاجرة بلعه — ﷺ — أن بسى ثعلبة وبنى عوال من ثعلبة يجمعون جموعهم ليغيروا على أطراف المدينة ، فعث محمد بن مسلمة في عشرة نفر ليتحسروا الأجرار ، فلما بلغوا دار القصة وهي موضع قريب من المدينة نزلوا البيوت واليتم ، فكمن القوم وهم مائة رجل لمحمد بن مسلمة وأصحابه وأمهونهم حتى ناموا وأخذقوا بهم فما شعروا إلا وقد خالطهم القوم ، فوثب محمد بن مسلمة فصاح في أصحابه :

— السلاح .. السلاح .

فوثبوا وتراموا في خوف الليل ساعة ، ثم حل القوم عليهم بالرماح فقتلوه . ووقع محمد بن مسلمة جرحا فضر بهما كعبه فلم يتحرك فظنوا موته فحردوه من الثياب وانطلقوا ، ومر بمحمد وأصحابه رجل من المسلمين فقال :

— إنا لله وإنا إليه راجعون .

فلما سمعه محمد بن مسلمة يسترجع تحرك له فأخذه وحمله إلى المدينة ، فعند ذلك بعث رسول الله ﷺ — أبو عبيدة بن الجراح في أربعين رجلا إلى مصارعهم فلم يجلبوا أحدا ووجدوا نعما وشاء فأخذوا بها إلى المدينة . وأحدثت بلاد بني ثعلبة وأثمار ووقعت سحابة بالمراض إلى ثعلمين ، والمراس على ستة وثلاثين ميلا من المدينة ، فسارت بو محارب وثلعة وأثمار إلى تلك السحابة واجتمعوا أن يعبروا على سرح المدينة وهو برعى بهما على سبعة أميال من المدينة ، فبعث رسول الله ﷺ — أبو عبيدة في أربعين رجلا من المسلمين حين صلوا المغرب ، فمشوا إليهم حتى وافوا ذا القصة في عماية الصبح فأغاروا فأعجزوهم هربا في الجبال . وأصاب أبو عبيدة رجلا واحدا فأسلم فتركه ، وأخذ نعما من نعمهم فاستاقه ورثة^(١) من متاعهم وقدم المدينة بذلك ، فحمسه رسول الله ﷺ — وقسم ما بقى عليهم .

وكان بنو سليم حلفاء قريش لا يفكون عن جمع الجموع لشن الغارات على أطراف المدينة ، وكانت منازلهم في عالية نجد بالقرب من خيبر وكانوا يعيشون على العارات والغنائم . ففي شهر ربيع الآخر سنة ست من الهجرة بعث رسول الله ﷺ — زيد بن حارثة إلى بني سليم ، فسار هو ومن معه حتى ورد الجموم ناحية بطن نخل عن يسارها ، وبطن نخل من المدينة على أربعة برد ، فأصابوا عليه امرأة من مزينة يقال لها حليمة ، فدلتهم على محلة من محال بني سليم فأصابوا فيها نعما وشاء وأسرى فكان فيهم زوج حليمة المزينة . فلما قفل زيد بن حارثة بما أصاب وهب رسول الله ﷺ —

(١) الرثة : سقط المتاع .

للمزينة نفسها وزوجها ، فقال بلال بن الحارث المازنى فى ذلك :
لعمرك ما أخشى المسول ولا وئ

حليمة حتى راح ركبهما معا

وبلغ رسول الله أن عمرا لقريش قد أقبلت من الشام ، فعث زيد بن
حارثة فى سبعين ومائة راكب ليعترضها ، وكان فيها أبو العاص بن الربيع
شاردا يفكر فى زوجه زينب بنت محمد التى فرق بينه وبينها الإسلام . ست
سوات قد مضت مذ آخر مرة رأى فيها امرأته يوم أن خرجت بعد أن عاد
من الأسر فى بدر .

إنه ليذكر والأسى يملأ قلبه يوم أن جاءه أشباخ قريش وساداتها بعد أن
زعم محمد أن الخبر يأتيه من السماء وقالوا له :
— فارق صاحبك ونحن نزوجك أى امرأة من قريش .
فقال لهم :

— لا والله إنى لا أفارق صاحبتى وما أحب أن لى بامرأتى امرأة من
قريش .

إن المشهد لا يزال حيا فى وجدانه وإن الدموع لتبلل روحه كلما تذكر
زينب ، فهو يحبها بكل مشاعره ونض حياته .
ولولا أن تعمده قريش لهاجر إليها وترك تجارته وأمواله .
إنه وقع فى الأسر يوم بدر فعاء أخوه عمرو بن الربيع فى فدائه فقال
لحمية :

— بعثنى زينب بنت محمد هذا فى فداء زوجها أحنى أبى العاص بن
الربيع .

كانت قلادة خديجة وهبتها ليلتها زوجها ، قلادة عالية حبيبة ما إن رآها رسول الله — ﷺ — حتى خفق قلبه رقة ورحمة ، إنها ذكرته بحاضنة الإسلام وسيدة نساء قريش وبعثت في نفسه أحب ذكريات حياته ، فقال في صوت مشحون بالانفعال :

— إن رأيتم أن تطلقوها أسيرها وتردوا عليها ما لها فافعلوا .
وهز تأثر ببي الإسلام عليه السلام قلوب المؤمنين فقالوا :
— نعم يا رسول الله .

وعاد ابن هالة بنت خويلد أحت حديجة أم المؤمنين إلى مكة ليرسل زينب مع ريد بن حارثة ورفيق له ليصحبها إلى أبيها بالمدينة ...
وأحاط زيد بن حارثة والذين معه بعير قريش فلم ير القرشيون إلا أن يسلموا أنفسهم وتجارهم لأصحاب محمد وكان فيها فضة كثيرة لصفوان ابن أمية وأن يعقنوا دماءهم ، فقد كانوا أهون من أن يقاتلوا رجلا قد أظلت من أعينهم المون فساروا مطاطئي الرعوس يرجون عدل محمد — ﷺ .

وراح أبو العاص بن الربيع يمكر وهم مطلقون إلى المدينة ، فهناك زينب حبيبة الغرادر من يهفو إليها كل كيانها فاختلطت المشاعر في جنات صدره . إنه لا يدري أيحزن أم يفرح ؟ أهتبط الجبين أم تفتت عن فمه ابتسامة ؟ أيسير الهوينى أم يطير على جناح الشوق إلى الحسية ؟
إنه يعرف أين تعيش فيا طالما سأل عنها كل من رار المدينة من أصحابه ، لأنها هناك في دور محمد وإن قلبه سيرشده إليها دون رسول . ولاحت لعينه المدينة ومسجد النبي وقد ألحقت بها دور نسائه وإن كان الظلام يلف كل شيء ، فقد صار يرى بعين بصيرته ويسمع بوجدانه حفيف أماميه .

وترامى في جبهات المدينة صوت بلال وهو يؤذن بالفجر فحف ربه بن حارثة والذين معه ليصنوا خلف الرسول وتركوا غير قریش في حراسة عدد قليل من المسلمين ، فراح أبو العاص بن الربيع يتلفت ثم اسل في عمارة الصباح إلى دور الرسول — ﷺ .

ووقف عليه السلام في المحراب واصطف المسلمون خلفه ، فلما دخلوا في الصلاة إذا بصوت زيب يدوى في المسجد ويهتك السكون :

— أيها الناس إني قد أجزت أبا العاص بن الربيع .

وقضيت الصلاة وسلم رسول الله — ﷺ — وأقبل على الناس وقال :

— هل سمعتم ما سمعت ؟

— نعم

— أما والذي نفسي بيده ما علمت بشيء من هذا .

ثم ابصر — ﷺ — فدخل على ابنته وقال :

— قد أجزنا من أجزت . المؤمنون يد على من سواهم يحير عليهم

أذنهم ..

وسأله أن يرد على أبي العاص ما أخذ منه ، فصمت عليه السلام قليلا

ثم قال :

— أي بنية ، أكرمي مثواه ولا يخلص إليك فأبكت لا تخلين له .

كانت مسلمة وكان مشركا وقد حرم الله نكاح المؤمنات على المشركين . وراح كل منهما يرنو إلى الآخر وفي القلب شوق وفي الصدر لوعة لا يحول بينها وبينه إلا حد الله ، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا ^(١) .

(١) الطلاق ١ .

وخرج رسول الله ﷺ إلى السرية وقال لهم :
 — إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم وقد أصبتم له مالا . فإن تحسنوا
 وتردوا عليه الذى له فإننا نحب ذلك ، وإن أبيتم فهو فيء الله الذى فاء عليكم
 فأنتم أحق به .
 — بل يرد عليه ما أخذ منه .

وردت إلى أبى العاص بن الربيع أمواله فحرح إلى مكة وهو يذكر ما قيل
 له في المدينة ، قال له قائل : يا أبأ العاص إنك في شرف من قریش وأنت ابن
 عم رسول الله ﷺ ، فهل لك أن تسلم فتعتم ما معك من أموال أهل
 مكة ؟

أجل ، إنه ابن عم رسول الله ﷺ — فهو يلتقى معه في جده عبد
 مناف ، وهو زوج ابنته . ولكن ما قيل له لم يكن ليمتق مع من قال فيه
 رسول الله ﷺ : إنا صاهرنا أبأ العاص فعم الصهر وجدناه . إنه
 عرف في قومه بالأمين كما عرف عليه السلام بذلك من قبل فما كان ليقبل
 ما عرض عليه فقال :

— شسما أمرتموني ، أفتح ديني بالعدو وعدم الوفاء !
 واحتل كل و— مدانه ما لقيه من محمد ﷺ ، إن ما عومل به ما كان
 ليحظر له على قلب ، أكرم أهل البيت مثواه ، قالوا له قولاً لنا وقال له عليه
 السلام قولاً معروفاً أصاء بالأنوار سويداء فؤاده ، إنه يحس بكل كيانه أن
 محمداً ﷺ — أشعل سراج عقله وأرشدته إلى الطريق .
 إنه رأى في المدينة الشرف والكرامة والرفعة والسمو الروحي ونور الله .
 قد أدهله ما صار إليه مستضعفو مكة بالأمس فقد أصبحوا رهبانا بالليل
 فرسانا بالنهار ، تتلأأ في وجوههم الأنوار ، تعرف فيها نصرة البعيم . إن

كل شيء يسير في يسرولين بينا حاسة الشرف تهدر كالوحش الضاري في مكة وإن كانت كل الأفعال لا تمت إلى الشرف ؛ غضب هادر ودماء تسيل وقسوة تملأ القلوب والفساد قد استشرى في سادات مكة ، إن محمد بن عبد الله قد أخرج قومه من الظلمات إلى النور .

ودخل أبو العاصم بن الربيع أم القرى وطاف بالبيت العتيق وهو يستشعر كأنما خلق خلقا آخر . هانت في عينيه آلهة آبائه وأجداده ، رآها لأول مرة حجارة لا تملك لنفسها نفعا أو ضرا فإذا بنفسه تنقاصر ، وإذا بعرق الخجل يتعصد من كل كيانه ، وإذا به يجاهد لتسمو روحه فوق كل ما حوله من ماديّات لتفرغ أبواب الملكوت لعل مسالم الألطاف تهب وتنكشف الحجب عن قلبه .

ودهب إلى أهل مكة وقد استوى بصره وأرشد إلى الطريق فأدى كل ذي حق حقه ، ثم قام فقال :

— يا أهل مكة هل بقي لأحد منكم مال لم يأخذه ؟ هل وفيت دمتي ؟
— اللهم نعم ، فحزاك الله خيرا فقد وجدناك وفيها كريما .

فقال وهو متفرح في الله :

— إني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، والله ما معي عن الإسلام عبدة إلا خشية أن تظننوا إني إنما أردت أن آكل أموالكم .

ثم خرج إلى المدينة مشرح الصدر لا يطمع في مال ولا سلطان ولا جاه بل يريد وجه الله ، إنه يريد نعمة لا رحمة فيها ولذة لا كدر فيها ، إنه في شوق إلى الله بعد أن داق حلاوة الإيمان . فمن لم يدق لم يعرف ومن لم يعرف لم يشتق ومن لم يشتق لم يطلب ومن لم يطلب لم يدرك ومن لم يدرك

بقي من المحرومين .

إنه يسير في معبد الله يفكر في جلال الله وعظمته وملكوته أرضه
وسمائه فصار ذلك ألد عده من كل بعيم . وبات يستشعر أنه لا يراحم
الناس في ديارهم ولو اهتمدى أهل الأرض جميعا ما زاحموه في لذته بل زادت
لذته بمشاركتهم له في الأسى بربه ، وإنه ليحس أنه تحرر من كل شر ، من
عودية الأهواء والعرائر والجهل . إن ذاته قد تحررت مذ أن عرف ما يريد
وماذا يريد واتضحت له حقيقة الطريق .

أشرق وجوده بالاندماج في الوجود بكل حرته ، وأضحى ثابت
الجان ثبات الأرض التي تطوينا راحلته ، يحس من أعماق أعماق ذاته
وجود قوة متعالية ترعاه وتحميه وتبارك خطاه ما دام يشتد على الصراط
المستقيم .

كان جوهر وجوده الإنساني يتألق بالألوار ، إنه اعتنق الإسلام بعد
تدبر وتأمل وتمكبر ، اعتنقه بمحس حرته بعد أن تخلص من ربة ما ورثه
من سحافات ، ومن الصرورة العمياء التي فيها يغيب الاعمال على الفعل ،
واهتمدى إلى أن الفضيلة علم والرذيلة جهل والحكمة معرفة قوائين الوجود
والعمل على أن تطابق الإرادة الباطنية تلك القوانين .

إنه يحس لأول مرة وفاقا بين قلبه وعقله وهداية إلى محبة الناس أجمعين ،
وأن الحياة دون الله لا معنى لها ، وأن ملكوت الله هو ميدان العمل المثمر
الوحيد . كانت حياته قبل أن يشرق قواده بالأنوار ضياعا فأصبحت له
رسالة ألا وهي الارتفاع بالنفس البشرية إلى النبع الروحي مصدر كل
سعادة وإلهام .

وبلغ المدينة وقد محق كل زائف في نفسه وثبت الحق وتلقى الضياء الرباني ، فاتجه إلى دور الرسول عليه السلام فاستقبل بالترحاب . وكانت زينب بنت أبي الإسلام عليه السلام أكثر الناس فرحا بعودة أبي العاص بن الربيع بعد أن أرشد إلى الطريق وتلقى الحكم من السماء وأصبح من الراشدين .

تولى هرقل حكم الإمبراطورية الرومانية فأهمل روما واستقر في بيزنطة وحاص غمار معارك رهيبة مع دولة المرس ، فعد أن نهب الساسانيون بيت المقدس وغروا مصر استطاع هرقل أن يكر عليهم وأن يطردهم من الأراضى التي استولوا عليها ، ومد ذلك الوقت صار هرقل يتنقل بين قصوره في بيت المقدس والقسطنطينية فأردهرت الحضارة في الشام وفي بصرى خاصة واصطبغت بالصبغة الهيلينية^(١) .

وكان هرقل قاسيا مع اليهود يضطهدهم أشد الاضطهاد منذ تلك البوّة القائلة بأن الإمبراطورية سيدمرها شعب مختون . ولم يصل إلى هرقل أن محمدا — عليه السلام — يوم كان المسلمون يحمرون الخندق كان قريبا من سلمان العارسي وهو يضرب في ناحية من الخندق فعلمعت عليه صخرة ، فلما رآه يصرب ورأى شدة المكان عليه نزل عليه السلام فأخذ المعول من يده فضرب به ضربة لمعت تحت المعول برقة ، ثم ضرب به ضربة أخرى فلمعت تحته برقة أخرى ، ثم صرب به الثالثة فلمعت تحته برقة أخرى ، فقال سلمان :

— بأنى أنت وأمى يا رسول الله ! ما هذا الذى رأيت لمع تحت المعول وأنت تضرب ؟

قال عليه السلام :

(١) اليونانية والرومانية .

— أو قد رأيت ذلك يا سلمان ؟

— نعم .

— أما الأولى فإن الله فتح عليّ بها اليمن ، وأما الثانية فإن الله فتح عليّ بها الشام والمغرب ، وأما الثالثة فإن الله فتح عليّ بها المشرق .

إن رسول الله ﷺ والمسلمين منذ ذلك الوقت وهم يتطلعون إلى الشام ، وما كان عليه السلام لتشغله الأحداث المحلية عما يجري في بلاد الشام وبلاد الفرس وأرض اليمن ، فقد كان يبحث رجالا من أصحابه إلى تلك البلاد ليعودوا إليه بأنبائها .

كانت العلاقات طيبة بين دحية الكلبي وهرقل فقد كان دحية تاجرا محبوب الآفاق ، وكثيرا ما ذهب بتجارته إلى بصرى وبيت المقدس ، وكان يدخل على هرقل يقدم إليه الهدايا ويعود من عنده بالدمقس وأجود أنواع الحرير .

وأسلم دحية وأصبح صحابيا جليلا ، وكان جبريل كثيرا ما يأتي رسول الله عليه السلام في صورته ، فلما أراد نبي الإسلام — عليه صلوات الله وسلامه — أن يعرف ما يجري في الشام بعث دحية الكلبي إلى هرقل بغير كتاب ، فدخل دحية على هرقل فاستقبله بالترحاب وأجازه بمال وكساه .

وأقبل دحية من عند قيصر يحمل الهدايا وتجارة كانت له ، حتى إذا كان بواد يقال له شنان أعار عليه الهيد بن عارض وابنه عارض بن الهيد الصلعيان^(١) في ناس من جذام يحسمي فقطعوا عليه الطريق وأخذوا ما

(١) الصلعيان : بطن من جذام .

معه ، فلم يتركوا عليه إلا الخلق من الثياب .
 كان رهط رفاعة بن ريد قد أسلموا وأجابوا رسول الله ﷺ ،
 وكانت منازلهم قرية من المكان . فلما سمعوا بما حاق بدحية نفرّوا إلى
 الهيد وابنه وفيهم من بنى الضبيب النعمان بن أبي جمال حتى لقوهم
 فاقتلوا .

واتمى قرة بن أشقر الضفاري ثم الضلعى فقال :
 — أنا ابن لبني .

ورمى النعمان بسهم فأصاب ركبتة وقال :
 — خذها وأنا ابن لبني .

ثم استقنوا لدحية متاعه ، وقدم دحية على رسول الله ﷺ —
 فأحبره بذلك ، فبعث زيد بن حارثة في خمسمائة رجل وردّ معه دحية ،
 فكان زيد يسير الليل ويكس النهار ومعه دليل من بني عنزة ، فأقبل بهم
 حتى هجم بهم مع الصبح على القوم فأعاروا عليهم فقتلوا فيهم فأوجعوا ،
 وقتلوا الهيد وابنه وأعاروا على ماشيتهم وعمهم وسائهم فأخذوا ألف بعير
 وخمسة آلاف شاة ومن النساء والصبيان مائة .

ولما سمع بنو الضبيب بما صنع ريد ركبوا وجمعوا إليه ، وقال له رجل
 منهم :

— إنا قوم مسلمون .

فقال له زيد :

— اقرأ أم الكتاب .

فقرأها ولم يصدقها زيد .

كان رفاعة بن ريد الحذامي قد أسلم في نفر من قومه فرحلوا إلى رسول

الله — ﷺ — ، وأخبروه بما فعل بهم زيد ، وقال رفاعه :

— يا رسول الله لا تحرم علينا حلالا ولا تحل لنا حراما .

فقال عليه السلام :

— كيف أصنع بالقتل ؟

— أطلق لنا من كان حيا ومن قتل فهو تحت قدمي هاتين .

— صدق .

فقالوا :

— ابعث لنا رجلا نزيد .

فبعث — ﷺ — معهم عليا كرم الله وجهه بأمر زيدا أن يدخل بينهم

وبين حرمهم وأموالهم ، فقال علي :

— يا رسول الله إن زيدا لا يطيعني .

فقال صلوات الله وسلامه عليه :

— خذ سيفي هذا .

فأحده وتوجه ، فلقى علي كرم الله وجهه رجلا أرسله زيد مبشرا على

ناقة من إبل القوم ، فردها على كرم الله وجهه على القوم وأردفه خلفه .

ولقى زيدا فأبلغه أمر رسول الله — ﷺ — ، وعند ذلك قال له زيد :

— ما علامة ذلك ؟

— هذا سيفه — ﷺ — .

فعرف زيد السيف وصاح بالناس فاجتمعوا فقال :

— ما كان معه شيء فليرده ، فهذا سيف رسول الله — ﷺ — .

كانت المدينة تنصهر لتكون عاصمة دولة عالمية تقوم على دين يدعو إلى وحدانية الله ويتفق مع منطق الحياة ويقود إلى السعادة في الدنيا والآخرة ، فيها وحى السماء ينزل على الأرض يرشد الناس إلى علاقتهم بالله وعلاقة بعضهم ببعض ويعظم حياتهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، كان رسول الله - ﷺ - بما وهبه الله من حذق سياسى ونبل وسماحة وكرامة يعنى بتربية النفوس وتربية الخيل ليعده جيشا يرهب به عدو الله وعدو الإصلاح المنشود للبشر .

إنه غزا القلوب بأمانته وخلقه العظيم وفتح الأعداء بالقرآن المحيد والتف حوله خير البشر من المهاجرين والأنصار ، ولكن أعداء الإصلاح الذين يحشون أن تدول دولتهم وأن تزول منافعهم تحالوا ليطفئوا نور الله ، فكان على قائد النهضة الحديدية أن يدافع عن مدينته الفاضلة التى وجدت على الأرض بتأييد من الله ، فراح يعد الرجال إعدادا روحيا وإعدادا عسكريا ليذبوا عن البور الذى هبط عليهم من السماء ويستشهدوا طائعين في سبيله .

قد نصح رسول الله - ﷺ - في غرس الفضائل في النفوس ، وألزم المؤمنين بالصدق والعهدة والوفاء والإخاء وإعشاء السلام والمحبة ورعاية الحقوق والاهتمام بأمور المسلمين ، فقال عليه السلام : « من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس من الإسلام في شيء » . فكان المسلم للمسلم ناصحا أميناً يؤثره على نفسه ولو كانت به حصاصة .

وعلم عليه السلام أتباعه أن يدعوا الناس إلى ما فيه صلاحهم بالدين متبعين شرع الله الذي شرع لهم : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ ^(١) . ﴿ ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ﴾ ^(٢) .

وقد تعلم المسلمون من القرآن الكريم ومن الرسول العظيم أن لا إكراه في الدين ، فلم تحرك جيوش المسلمين ولم تبث السرايا لإرغام الناس على الدخول في دين الله بل للدفاع عن النفس وقهر الظلم والعتس : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ﴾ ^(٣) .

بل لقد تعلم المسلمون من القرآن المجيد أن يروا من ليس على دينهم وأن تكون الصلوات بينهم طيبة ما داموا لا يحاولون أن يطفئوا نور الله بأفواههم : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين » . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴾ ^(٤) .

وتعلم المسلمون من وحى الله أن حير الأمور الوسط ، وأن لا خير في التزمت ، ولا خير في التحرر والانطلاق بلا حدود ، وأن الله قد جعلهم أمة وسطا ليكونوا شهداء على الناس : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ﴾ ^(٥) .

أقام سلمان الفارسي أياما مع أبي الفداء في دار واحدة ، وكان أبو

(١) الحل ١٢٥ (٢) وصلت ٣٤ (٣) البقرة ١٩٣

(٤) المتحنة ٨ — ٩ . (٥) البقرة ١٤٣ .

الدرء يقوم الليل ويصوم النهار ، وكان سلمان يأخذ عليه ذلك التعطف في العبادة . وذات يوم حاول سلمان أن يثني أبا الدراء عن الصوم المتصل في غير رمضان ، فقال له أبو الدراء :

— أتعنني أن أصوم لربي وأصلي له ؟

فقال له سلمان :

— إن لميسك عليك حقا ، وإن لأهلك عليك حقا ، صم وأفطر وصل ونم .

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ — فقال :

— لقد أشبع سلمان علما .

وكان عليه السلام يحض أصحابه على أن يطلبوا العلم أينما كانت مسابجه : « الحكمة صالة المؤمن يأخذها أينما وحدها » . وأن يأمرُوا بالعدل والإحسان . ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ﴾ (١) . ويقول عليه السلام بأصحا : « أحسن إلى من أساء إليك ، وأعط من حرمك ، واعف عمن ظلمك ، وصل من قطعك ، تكن مؤمنا حقا » .

إنه عليه السلام ينقت الروح الإسلامية في أصحابه ، يبين حق الله وحق المجتمع وحق الراعي وحق الرعية فيقول : « إن الله يرضى لكم ثلاثة : أن لا تعبدوه ولا تشرکوا به شيئا ، وأن تعصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، وأن تناصرحوا من ولاء أمرکم » . ويرشد أصحابه إلى ما أمر به الله لتسود العدالة والعلاقات الطيبة بين الناس : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا

تعاونوا على الإثم والعدوان ﴿١﴾ .

وكانت السياسة التي ينبغي أن يسير عليها ولاية المسلمين ترسم في المدينة الفاصلة توضيحها آيات الله البينات وسنة الرسول عليه السلام ، فعلى الحاكم أن يبحث عن أصلح الناس للعمل ليقوده دون الطر إلى مودة أو قرابة : « من ولي من أمر المسلمين شيئا فهو رحلا وهو يحد من هو أصح للمسلمين منه فقد خان الله ورسوله » . ولا يقدم الرجل لكونه طلب الولاية أو سقى في الطلب بل قد يكون ذلك سبب منعه ، فقد دخل قوم على رسول الله فسألوه ولاية فقال : — إنا لا نولي أمرنا هذا من طلبه .

ولا يجوز للحاكم أن يعدل عن الأحق الأصلح إلى غيره لقرابة بينهما أو للاء أو صداقة أو موافقة في مذهب أو طريقة أو حس ، أو لرشوة يأخذها من مال أو منفعة ، أو لعداوة بينهما ، فإن فعل فقد خان الله ورسوله والمؤمنين ، ودخل فيما سعى عنه أحكم الحاكمين : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ﴾ ﴿٢﴾ .

وكان عليه السلام يحدث أهل الصفة كل ليلة يرشدهم إلى الطريق . إنه راح ذات ليلة يحدث أبا ذر عن الولاية على المسلمين فقال له : — إنها أمانة ، وإنما يوم القيامة خرى وبدامة ، إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها .

وقال عليه السلام :

— إذا ضيعت الأمانة انتظر الساعة .

قيل :

— يا رسول الله وما إضاعته ؟

— إذا وسد^(١) الأمر إلى غير أهله .

وقال عليه السلام :

— كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالإمام الذى على الناس راع وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها وهى مسئولة عن رعيته ، والولد راع فى مال أبيه وهو مسئول عن رعيته ، والعبد راع فى مال سيده وهو مسئول عن رعيته ، ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته .

ولم يكتف عليه السلام بذلك بل قال :

— ما من راع يسترعه الله رعية ، يموت يوم يموت وهو غاش لها إلا حرم الله عليه رائحة الجنة .

وترجع الأمانة إلى خشية الله وألا يشتري بآياته ثمنا قليلا وترك خشية الناس ، وقد شرعها الله لكل حكم على الناس : ﴿ فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾^(٢) .

وكان عليه السلام يقدم فى إمارة الخروب الرجل القوى الشجاع وإن كان بين المسلمين من هو أصلح منه فى الأمانة والصدق . وقد نبى عليه السلام أبأذر عن الإمارة والولاية فقال له :

(١) وسد الأمر إلى فلان . أسد إليه القيام بتصريمه .

(٢) المائدة ٤٤ .

— يا أيها ذر إني أراك ضعيفا وإني أحب لك ما أحب ل نفسي لا تأخرن
على اثنين ولا تولين مال يتيم .

ويقدم في ولاية القضاء الأعلم الأتقى الأكفأ ويقول : « إن الله يحب
البصر الباذ عد ورود الشبهات ، ويحب العقل عد حلول الشهوات » .
وكان يحض أصحابه على العدل : « أحب الخلق إلى الله إمام عادل
وأبعضهم إليه إمام جائر » . وكان يقول سبعة يطلعهم الله يوم
لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجل قلبه معلق
بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه ، ورجلان تحابا في الله اجتماعا على
ذلك وتفرقا عليه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ، ورجل دعته
امرأة ذات مصيب وجمال إلى نفسها فقال إني أخاف الله رب العالمين ،
ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » .
وقال صلوات الله وسلامه عليه :

— أهل الجنة ثلاثة : سلطان مقسط ، ورجل رحيم القلب بكل ذي
قرى ومسلم ، ورجل غي عفيف متصدق :

— وكان القرآن الكريم يهدب النفوس لتقوى على أن تنهض بصالح
الأعمال : ﴿ إن الإنسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه
الخير منوعا . إلا المصلين . الذين هم على صلاتهم دائمون . والذين في
أموالهم حق معلوم . للساائل والمحروم . والذين يصدقون بيوم الدين .
والذين هم من عذاب ربهم مشفقون . إن عذاب ربهم غير مأمون . والذين
هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير
ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم لأماناتهم
وعهدهم راعون . والذين هم بشهاداتهم قائمون . والذين هم على

صلاتهم يحافظون * أولئك في جنات مكرمون ﴿١﴾ .

وقال السی — عليه السلام : « أد الأمانة إلى من ائتمنك ، و لا تخ من خائنك » .

وقال عليه السلام : « المؤمن من أمه المسلمون على دمائهم وأموالهم . والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه ، والمجاهد من جاهد نفسه في ذات الله » .

وراح عليه السلام يضع أسس حباية الخراج والعشور والصدقات وعلاقة الإمام بالناس ، ويحذر أصحابه والأجل دون الأمل ، وأد لا عمل بعد الأجل ، فيرين لهم مادرة الأجل بالعمل ، ويقول : « إذا أراد الله بقوم حيرا استعمل عليهم العلماء ، وحمل أموالهم في أيدي السحباء . وإذا أراد الله بقوم بلاء استعمل عليهم السعفاء ، وحمل أموالهم في أيدي البهلاء . ألا من ولي من أمر أمتي شيئا فرفق بهم في حوائجهم رفق الله به يوم حاجته ، ومن احتجب عنهم دون حوائجهم احتجب الله عنه دون حلته وحاجته » .

﴿ واعلموا أنما عمتهم من شيء فإن لله حمسة وللرسول ولذی القری والیتامی والمساکین وابن السبیل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا علی عبدنا يوم المرقان يوم التقى الجمعان ، والله على كل شيء قدير ﴾ (٢) . وكان عليه السلام يصرب للفارس ثلاثة أسهم سهمان لفرسه وللراجل سهم ، ترغيبا للناس في ارتباط الخيل في سبيل الله ، فقد كانت الفرسان السلاح

الذى يقود إلى النصر .

وكان الخمس مردودا على المحتاجين ، وما كان عليه السلام يدخل داره قبل أن يفتق آخر ما معه من صفراء ويصاء . وكان يقسم الخمس على خمسة أسهم : لله وللرسول سهم ، ولذى القربى سهم ، ولليتامى والمساكين وابن السبيل ثلاثة أسهم .

﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم ﴾ (١) .

﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا ويبصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ﴾ والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ (٢) .

﴿ والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقوا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ (٣) .

صار الفىء بين هؤلاء جميعا تقسم عليهم الأموال المتداولة ، أما الأرضين فقد ترك للإمام أن يتصرف فيها بما يحقق مصالح المسلمين في أيامه ومن بعده .

وراح عليه السلام ينظم الصدقات فقال : « في كل أربعين شاة شاة إلى

مائة وعشرين ، فإذا زادت فشاتان إلى مائتين ، فإذا زادت ثلاث شياه إلى ثلاثمائة ، فإذا زادت ففى كل مائة شاة شاة . وليس فيها شيء حتى تلغ المائة .

وفى خمس من الإبل شاة ، وفى عشر شاتان ، وفى خمس عشرة ثلاث شياه ، وفى عشرين أربع شياه ، وفى خمس وعشرين بنت محاض إلى خمس وثلاثين ، فإن زادت ففيها ابنة لبون إلى خمس وأربعين ، فإن زادت ففيها حقة إلى ستين ، فإن زادت ففيها جذعة إلى خمس وسعين ، فإن زادت ففيها حقتان إلى عشرين ومائة ، فإن زادت على مائة وعشرين ففى كل خمسين حقة وفى كل أربعين بنت لبون ، ولا يجمع بين متفرق ، ولا يفرق بين مجتمع ، وما كان من خلططين فإيهما يتراحعان بالسوية .

وكان عليه السلام يرسم سياسة تحصيل الصدقات والزكاة ويحرض المسلمين على دفعها .. ما مانع الزكاة بمسلم ، ومن لم يؤدها فلا صلاة له . وقال عليه السلام : « العامل على الصدقة بالحق كالعازى فى سبيل الله » . فالذى يجمع الصدقة دون أن يفل منها شيئا يكون فى مثل الجهاد ، فعليه السلام يرعب الناس فى العمل فى جباية الصدقات ولكه لا يترك لهم الحبل على الغارب بل يشهد ضمائرهم ويخوفهم الله ، فقد بعث عبادة بن الصامت على الصدقة فقال له :

— اتق الله يا أبا الوليد ، لا تحىء يوم القيامة بغير تحمله على رقبتهك له رغاء^(١) أو بقرة لها خوار أو شاة لها نواح .
— يا رسول الله إن هذا هلكننا ؟

(١) الرغاء، صوت البعير ، والخوار : صوت البقرة ، والنواح : صوت الشاة .

— إى والذى نفسى بيده إلا من رحم الله .

— والذى بعثك بالحق لا تأمر على اثنين أبدا .

وكان عليه السلام لا يحب أن يفر الناس ، فإنه عليه السلام بعث رجلا ليأخذ من الناس الصدقة لما أنزل عليه أن يأخذ منهم الصدقات ليظهرهم ويذكهم بها ، فقال له :

— لا تأخذ من حشرات^(١) أنفس الناس شيئا ، خذ الشارف^(٢) والبكر وذات العيب .

فذهب الرجل يجمع الصدقات حتى جاء إلى رجل من أهل البادية ، فذكر له أن الله تعالى أمر رسوله — ﷺ — أن يأخذ الصدقة من الناس يذكهم بها ويظهرهم بها ، فقال له الرجل :

— قم فخذ .

فذهب فأخذ الشارف والبكر وذات العيب فقال له الرجل :

— والله ما كان في إبل أحد قط يأخذ شيئا لله قبلك . والله لتحتارن .

أمر — ﷺ — بأخذ الشارف والبكر وذات العيب ولكن الرجل في البادية بعد أن أشرق في قلبه نور اليقين أبى إلا أن يحتسب وأن يجود بأطيب ما عنده راضية نفسه ، فقد نجح الإسلام في أن يعلم الناس أن : ﴿ مثل الذين يتفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم . الذين يفتقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا متئا ولا أدى لهم أجرهم عذرهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون . قول معروف ومغفرة خير من صدقة

(١) حشرات : خيار أموال الناس (٢) الشارف : المسة .

يتبعها أذى والله عنى حلیم . يأبىها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالى والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين . ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثينا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطبل والله بما تعملون بصير ^(١) .

لما نزلت آية الصدقة جاء رجل فتصدق بصاع فقال بعض الناس :
— إن الله لغنى عن صاع .

وجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم وقال :

— يا رسول الله مالى ثمانية آلاف جئتكم بنصفها فاجعلها فى سبيل الله ،
وأمسكت نصفها لعمالى .

فقال رسول الله ﷺ :

— بارك الله فيما أعطيت وفيما أمسكت .

وتصدق عاصم بن عدى بن العجلان بمائة وسق من تمر ، وجاء أبو

عقيل الأنصارى بصاع من تمر .

وقال :

— يا رسول الله بت ليلتى آخر بالحرير أخبلا حتى نلت صاعين من

تمر ، فأمسكت أحدهما لأهلى وأنتيتك بالآخر .

فأمر رسول الله ﷺ — أن ينثره فى الصدقات ، فلمزهم ^(٢)

المنافقون وقالوا :

— ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياء ، وإن الله ورسوله غيان عن صاع أذى عقيل ولكنه أحب أن يزكى نفسه .

فلم يترك الله المناقطين ليعيثوا فسادا في المدينة التي تنبأ لتكون عاصمة خير أمة أخرجت للناس ، بل أنزل على رسوله آيات تفصحهم وتسد عليهم سبل الفساد وينذرهم بالعقاب : ﴿ الذين يلُمّرون المطّوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسحرون بهم سحر الله منهم ولهم عذاب أليم ﴾ (١) .

وكان — ﷺ — لا يفرق بين القوى والضعيف عندما يقسم الغنائم بين الذين شهدوا الواقعة ، فإن سعد بن أبي وقاص الزهري رأى له فضلا على من دونه فقال :

— يا رسول الله ، الرجل يكون حامية القوم يكون سهمه وسهم غيره سواء ؟

— ثكلتك أمك ابن أم سعد . وهل ترزقون وتسبّرون إلا بضعفائكم ؟

إنه يجاهد الظلم الواقع من الولاة والظلم الواقع من الرعية ، هؤلاء يأخذون ما لا يحل وهؤلاء يمنعون ما يجب . وقد قال — ﷺ — : « هدايا الأمراء غلول » وقال : « مطل الضى ظلم » . وقال : « من شفع لأخيه شفاعا فآهدى له عليها هدية فقبلها فقد آقى بابا عطيما من أبواب الربا » . و « السُّحت » (٢) أن يطلب الحاجة للرجل فيقضى له فيهدى إليه فيقبلها .

(٢) السُّحت : الحرام .

(١) التوبة ٧٩ .

وكان عليه السلام يرى أن تبليغ السلطان حاجة الناس وسيلة من وسائل كف الظلم عنهم وعمل يؤجر المرء عليه ، فقد قال : « أبلغوني حاجة من لا يستطيع إبلاغها ، فإنه من أبلغ ذا سلطان حاجة من لا يستطيع إبلاغها ثبت الله قدميه على الصراط يوم تزل الأقدام » .

وما ضرب رسول الله — ﷺ — يده خادما له ولا امرأة ولا دابة ولا شيئا قط إلا أن يجاهد في سبيل الله ، ولا نيل منه شيء فانتقم لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمة الله ، فإن انتهكت حرمة الله لم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم الله . إنه لا يقبل شفاععة في حد من حدود الله ، ويقول : « من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد صار الله في أمره ، ومن خاصم في باطل وهو يعلم لم يزل في سخط الله حتى ينزع ، ومن قال في مسلم دُين ما ليس فيه حيس في ردعة^(١) الخيال حتى يخرج مما قال » . قيل : « يا رسول الله وما ردعة الخيال ؟ » قال : « عصارة أهل النار » .

وقال أصدق القائلين : ﴿ من يشفع شفاععة حسنة يمكن له نصيب منها ومن يشفع شفاععة سيئة يمكن له كفل^(٢) منها وكان الله على كل شيء مقبلا ﴾^(٣) .

وكان نبي الإسلام عليه السلام إذا بعث أميرا على سرية أو جيش أو في حاجة لنفسه أو صاه بتقوى الله تعالى ومن معه من المسلمين خيرا ، ثم يقول :

(١) الردعة : اللطين .

(٢) النساء ٨٥ — الكفل : الضعف من الأجر أو الإثم .

(٣) مقبلا : شهيدا وحفيظا ومقتدرا .

— اغزوا باسم الله وفي سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، لا تملوا ولا تعذبوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدنا .

وكان يمقت العصبية ودعوى الجاهلية ، وقد قيل له :

— أمن العصبية أن ينصر الرجل قومه في الحق ؟

— لا ، ولكن من العصبية أن ينصر الرجل قومه في الباطل . مثل الذي

ينصر قومه في الباطل كعبير تردى في بئر فهو يجر بذنبه .

كان الفلاسفة يطلقون لأحليتهم العنان ويتصورون مدما فاضلة لم تخرج عن دائرة الأحلام وما كانت تلك المدن لتحقق العدالة المطلقة للبشر ، فقد عومت النساء معاملة السائمة في بعض تلك الجمهوريات وظل العبيد يرسمون في قيود الرق ، فما كان الفلاسفة الدين هموما في الخيال بقادريين على أن يتحصنوا مما كانت عليه الدنيا في أيامهم وما أقرته من نظم ظالمة ، ولم يجد الضعفاء مكانا آمنا في تلك المدن التي شيدت في الهواء . وقد عجز المفكرون الحالمون عن أن يضيّقوا الهوة السحيقة بين العقراء والأغنياء أو أن يحققوا التوافق بين العقل والفؤاد . ولكن مجتمع المدينة كان مجتمعا حقيقيا لا أثر للوهم فيه ، يسير على منح إلهي لا يعفل لحظة عن فطرة الإنسان وقدرته وواقع الحياة ، لا يكلف الله فيه نفسا إلا وسعها ، ويفتح الأبواب أمام الناس ليجاهدوا في سبيل الهدى والسمو حتى يقرعوا أبواب الملوكوت : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾ (١) .

إنه مجتمع قد بين أركانه من فطر الناس وترك للجهد البشري أن يحقق بقاء ذلك المجتمع في حدود طاقته ويعون الله ، فأنه قد شرع لهذه الجماعة

وبين لهم الطيب والخبيث وزين لهم الإيمان والسير في طريق الله على هدى نور الله ، ليتحرروا من عبودية الناس وليعبدوا الله وحده . وقد أرسل إليهم رسولا منهم ليكون لهم أسوة حسنة وليأخذوا ما جاءهم به ولينتهوا عما بهأهم عنه ، وكان رسول الله — ﷺ — على علم بأوامر الله ونواهيه : ﴿ ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ﴾ (١) . وكان على علم بطبيعة النفس البشرية ، فلم يكلف الناس شططا ، بل كان اليسر سبيله فأحد يد هذه الجماعة وفجر جميع ما فهم من طاقات بناء وقوى خيرة وحررهم من ربة الشهوات المدمرة فتقسم بهم قمة البشرية ، ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾ (٢) .

(١) الجاثية ١٠٨ .

(٢) آل عمران ١٠٤ .

كان عليه السلام ينام على فراش من آدم حشوه ليف ، وإذا بصوت بلال ينساب في الفجر نديها يدعو الناس إلى الصلاة ، فقام — عليه السلام — وإذا بشفتيه تتحرر كان بذكر الله فما كان يجلس ولا يقوم إلا بذكر الله تعالى ، وتوضأ ثم راح يسرح لحيته بمشط ، ثم خرج ليؤم المسلمين وقد أرخى لعمامته عذبة بين كتفيه ، وكان يلبس قميصا ارتفع إلى نصف ساقيه وكمه إلى الرسغ . وأقبل على مسجده المسمون من عالية المدينة ومن سافلتها وهم يسبحون الله وقام الجميع للصلاة ، فوقف أهل الصفة في مكانهم حلف المصلين فقد كانوا حرس رسول الله — عليه صلوات الله وسلامه . وقضيت الصلاة فجلس عليه السلام عند أسطوانة المهاجرين والتف حوله أبو بكر وعمر وعلي وعثمان وزيد بن حارثة وعمار ، وراح الحسن والحسين يقدوان بين أبيهما وجدتهما العظيم والمهاجرون والأنصار يداعبونهما وقد تفتحت لهما القلوب ، ولا جرم فهما سبطا رسول الله الحبيب .

وراح عليه السلام يعطى كل من جالسه حقه لا يحسب جلسه أن أحدا أكرم عليه منه ، وجاء إليه رجال يسألونه حاجاتهم فلم يردهم إلا بها أو ما يسرهم من القول ، قد وسع الناس بسطه وخلقه فصار لهم أبا وصاروا عنده في الحق سواء ؛ مجلسه حلم وحياء وصبر وأمانة لا ترفع عنده الأصوات .

كان دائم البشر سهل الخلق لين الجانب ، ليس بفظ ولا غليظ القلب

ولا صحاب ولا محاش ولا عياب ولا مزاح ، يتغافل عما لا يشتهي ولا
يخيب فيه مؤمله ، قد تطهر من ثلاث : المرء والإكثار وما لا يعنيه .
وكان لا يذم أحدا ولا يعيره ولا يطلب عورته ولا يتكلم إلا فيما يرتجى
ثوابه . إذا تكلم أطرق جلساؤه كأن على رؤوسهم الطير ، فإذا سكت
تكلموا ولا يتنازعون عنده ، إن تكلم أنصتوا له حتى يفرغ ، وكان لا
يقطع على أحد حديثه ، وكان يقول في السراء :

— الحمد لله المعتمد المفضل .

وكان يقول في الضراء :

— الحمد لله على كل حال .

وكان يسلم على العبيد والإماء والصبيان ، وكان يمازح الصغير
ويلاعب الوليد ويمازح العجوز ولا يقول إلا حقا . جاءته امرأة فقالت :

— يا رسول الله احملى على جمل .

فقال عليه السلام :

— إنما أحملك على ولد الناقة .

— لا يطبقنى .

— لا أحملك إلا على ولد الناقة .

— لا يطبقنى .

فقال لها الحاضرون :

— وهل الجمل إلا ولد الناقة ؟

وجاءت له امرأة أخرى فقالت :

— يا رسول الله زوجى مريض وهو يدعوك .

— لعل زوجك الذى فى عيه بياض .

فرجعت وفتح عيني زوجها فقال لها :

— ما لك ؟

— أخبرني رسول الله ﷺ — أن في عينك بياضا .

— وهل أحد إلا وفي عينه بياض ؟

وقالت له امرأة أخرى :

— يا رسول الله ادع الله أن يدخلني الجنة .

— يا أم فلان إن الجنة لا يدخلها عجوز .

فبكت المرأة فقال لها :

— أما قرأت قوله تعالى : ﴿ إِنِ انشَأْنَا مِنْ نَسَاءٍ فُجِعَلَا هُنَّ أَهْكَارًا .

عَرَبًا ثَرَابًا ﴾ (١) .

وكان أصحاب رسول الله ﷺ — يضحكون والإيمان في قلوبهم

مثل الجبال الرواسي ، وكان نعيمان من أولع الناس بالمزاح والضحك ،

وكان رسول الله عليه السلام يرى فعالة ويسمع أقواله فيفتر ثغره عن

الابتسام .

وكان — ﷺ — يجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين ويقول :

— لو دعيت إلى كراع لأجبت .

وكان يخفف نعله ، ويحلب شاته ، ويركب الحمار ردفا ، ويرقع

الثوب ، ويطحن مع الخادم ويأكل معه ، ويحمل بضاعته من السوق ،

ويصافح الغني والفقير ، ويخالط أصحابه ويحادثهم ويمازحهم ، ويلعب

صبيانهم ويجلسهم في حجره ، وما دعاه أحد من أصحابه ولا من أهل بيته

الإلقال : ليلك .

ودخل عليه صلوات الله وسلامه عليه رجل فقام بين يديه فأخذته رعدة من هيته ، فقال له :

— هون عليك فإنى لست بملك ولا جبار ، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد بمكة .

إنه أوتى جوامع الكلم وإنه يحدث أصحابه ليفقههم فى دينهم ويبر لهم الطريق ، إنه يقول :

— أناى جبريل فقال يا محمد عش ما شئت فإنك ميت ، واحبب ما شئت فإنك مفارق ، واعمل ما شئت فإنك محزى به ، واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل وعزه استغناؤه عن الناس .

وكان يعلم أن الطمع وطول الأمد مفسدة للناس ، فكان يعط أصحابه ليزهدهم فى الدنيا فيقول :

— ابن آدم عندك ما يكملك ، وأنت تطلب ما يطغىك ، ابن آدم لا يقبل تقنع ، ولا بكثير تشبع ، ابن آدم إذا أصبحت معافى فى جسديك آمنا فى سربك ، عندك قوت يومك ، فعل الدنيا العفاء .

وكان على الدوام يرشدهم إلى مكارم الأخلاق فما أرسل إلا ليتمم مكارم الأخلاق ، فيقول :

— اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالف الناس بخلق حسن .

اتق الله ولا تحقرن من المعروف شيئا ولو أن تفرغ من دلوك فى إناء المستسقى ، وأن تلقى أحاك ووجهك إليه منبسط . وإياك وإسبال الإزار فإن إسبال الإزار من الخيلة ولا يحبها الله . وإن امرؤ شتمك وعبرك بأمر

ليس هو فيك فلا تعيره بأمر هو فيه ، ودعه يكون وباله عليه وأجره لك ،
ولا تسبب أحدا .

اتق المحارم تكن أعبد الناس ، وارض بما قسم لك تكن أغنى الناس ،
وأحسن إلى جارك تكن مؤمنا ، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن
مبيها ، ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب .

اتقوا الله في الصغيفين المملوك والمرأة .

اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة .
إذا أتاك الله ملا غير أثره عليك ، فإن الله يحب أن يرى أثره على عبده
حسنا ، ولا يحب اليأس ولا التلبؤس .

إذا أتى على يوم لا أرداد فيه علما يقربني إلى الله تعالى ، فلا يورك لي
في طلوع شمس ذلك اليوم .

وكان أبو بكر وعمر عن يمينه وعن يساره ، وكان عليه السلام يقول
لهما :

— الحمد لله الذي أهدى بكما .

وكانا إذا اجتمعا في مشورة ما حالفهما ، فأبو بكر لا يريد من دنياه
إلا إعلاء كلمة الله ، إنه يحشي على رسول الله — ﷺ — أكثر مما يحشي
على نفسه ، فهو لما رأى النفاقة^(١) وتيان قريش سهامهم وسيوفهم وقوفها
على فم العار عند الهجرة اشتد حزنه وقال :

— إن قتلت فإيما أنا رجل واحد ، وإن قتلت يا رسول الله هلكت
الأمّة .

(١) النفاقة : قصاصو الأمر .

فقال له عليه السلام :

— لا تحزن إن الله معنا .

وأُنزل الله سكينته عليه وهاجر مع رسول الله عليه السلام إلى المدينة وشهد معه المشاهد كلها ، وسمع الناس وهم يتلون ما نزل فيه من القرآن فاغرو رقت عيناه بالدموع ، وكان يطرق حياء كلما سمع رسول الله عليه السلام يتحدث ، قال عليه السلام :

— ما أحد عندي أعظم من أبي بكر ، وإسأى بنفسه وماله وأنكحني ابنته .

فكاد الصديق يلوب حياؤه . إنه أنفق أمواله في سبيل الله وفي نصرة رسوله حتى إن نبي الإسلام عليه صلوات الله وسلامه قال :

— إن من أمن الناس علي في صحبته وماله أبأ بكر ، ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبأ بكر خليلاً ، ولكن أحوه الإسلام .

ولا غرو فقد قال عليه السلام فيه :

— مثل أبي بكر مثل اللبن في الصفاء ، ومثل أبي بكر كالغيث أبها وقع نفع .

وقال :

— ما نفعى مال أحد قط ما نفعى مال أبي بكر .

فبكى أبو بكر وقال :

— هل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله ؟

كان أبو بكر وعمر وزيري رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه ، وكان رسول الله عليه السلام يخرج على أصحابه من المهاجرين والأنصار وهم جلوس فيهم أبو بكر وعمر ، فلم يرفع أحد منهم بصره إلا أبو بكر

وعمر فأنهما كانا يظنران إليه ويتسمان إليه ويتسم إليهما .
 كان أبو بكر يجلس إلى جوار رسول الله فيبدو كأنه ملك في زى
 مسكين ، وكان عمر بن الخطاب يجلس إلى جوار النبي عليه السلام كأنه
 جبل ، إنه مع الحق حيث كان . وقد قال فيه عليه السلام :
 — عمر معي وأنا مع عمر ، والحق مع عمر حيث كان .
 إنه قال يوم أن أسلم :
 — يا رسول الله ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا ؟
 — بلى والذي نفسى بيده ، إنكم على الحق إن متم وإن حيتم .
 — يا رسول الله علام نخفى ديما ونحن على الحق وهم على الباطل ؟
 — يا عمر إنا قليل وقد رأيت ما لقينا .
 — والذي بعثك بالحق لا يبقى مجلس جلست فيه بالكفر إلا جلست
 فيه بالإيمان .

ثم خرج في صفين حمزة في أحدهما وعمر في الآخر له كدبد ككديد
 الطحين حتى دخلوا المسجد ، فظفرت قريش إلى عمر وإلى حمزة فأصابته
 كآبة لم يصيبهم مثلها ، فسماه رسول الله — عَلَيْش — يومئذ العاروق .
 إنه كلما تذكر أنه كان يصارع الفتيان في سوق عكاظ ويمشى إلى
 صاحبات الرايات الحمر بكى ، وكان يذنى يده من النار ويقول :
 — يا بن الخطاب هل لك على هذا صبر ؟

ويكى فقد أرهف الإسلام شعوره حتى إنه كان إذا أعجبه شيء من
 ماله تصدق به ، وكان كثيرا ما يتصدق بالسكر فقيل له في ذلك فقال :
 — إني أحبه ، وقد قال الله تعالى : ﴿ لَنْ تَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا

تحبون ﴿١﴾ .

إن جبار الجاهلية قد سما حتى رفعت الحجب بينه وبين الملكوت لما ألقى الله في قلبه أنوار اليقين . وقد كان الصديق والفاروق مستشاري نبي الإسلام وقد قال عليه السلام فيهما :

— أبو بكر وعمر منى بمزلة السمع والبصر .

وكان عثمان بن عفان من حواربي رسول الله — ﷺ ، ولما زوجه رسول الله عليه السلام بنته أم كلثوم قال لها :

— إن بعلك أشبه الناس بمجدك إبراهيم عليه السلام وأبيك محمد .

ودخل عثمان على السى عليه السلام وركبته بادية ، فعطى رسول الله — ﷺ ركبته فقبل له :

— دخل عليك أبو بكر وعمر وعلى فلم تعطها .

فقال رسول الله — ﷺ :

— إني لأستحيى ممن استحييت منه الملائكة .

وكان يقال له ذو النورين لأن النبي — ﷺ — زوجه ابنته رقية فلما ماتت زوجه أم كلثوم .

وكان شديد الحياء حتى إنه ليكون في البيت والباب مغلق عليه فما يضع الثوب عه عند الغسل ليفيض الماء ، ويمتنعه الحياء أن يقيم صلبه .

وكانت غيره تأتي من الشام وهي ألف بعير موسوقة برا وزيتا وزبيبا فيتصدق بها ويدخل بيته يأكل الخل والزيت ، وكان إذا مر على مقبرة بكى حتى تبتل لحيته .

وكان على بن أبي طالب ربيب النبي عليه السلام لا يفارق مجلساً من مجالس الرسول — صلوات الله وسلامه عليه . إنه يتلقى منه العلم ويحاول أن يفقه أثره في مكارم أخلاقه وكرمه وتواضعه . كان يصلي الظهر ذات يوم في مسجد الرسول فسأل سائل في المسجد فلم يعطه أحد شيئاً ، فرفع السائل يديه إلى السماء وقال :

— اللهم اشهد أني سألت في مسجد نبيك محمد — ﷺ — فلم يعطني أحد شيئاً .

كان على في الصلاة راکعاً فأوماً إليه بخصره اليمى وفيها خاتم ، فأقبل السائل فأخذه من خصره وذلك عمرأى من النبي — ﷺ ، فرفع رسول الله — ﷺ — طرفه إلى السماء وقال :

— اللهم إن أخى موسى سألك فقال : ﴿ رب اشرح لي صدري ﴾ ويسر لي أمري ﴾ واحلل عقدة من لساني يفقهو قولي ﴾ واجعل لي وزيراً من أهل ﴾ هارون أخى ﴾ اشدد به أزرى ﴾ وأشركه في أمري ﴾ ^(١) فأنزلت عليه قرآناً : ﴿ مستشد عضدك بأخيك ومجعل لكنا سلطاناً فلا يصلون إليكما ﴾ ^(٢) . اللهم وإني محمد نبيك وصفيك ، اللهم فاشرح لي صدري ، ويسر لي أمري ، واجعل لي وزيراً من أهل عليا اشدد به ظهري .

فما استتم دعاءه حتى نزل عليه جبريل عليه السلام من عند الله عز وجل وقال :

— يا محمد اقرأ : ﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ﴾ ^(٣) .

وكان يقول :

— مفتاح الجنة الصبر . مفتاح الشرف التواضع . مفتاح الكرم التقوى . من أراد أن يكون شريفا فليزِم التواضع . لا شرف لبخيل ، ولا همة لمهين ، ولا كنز أغنى من القساعة ، ولا مال أذهب للغافة من الرضا بالقوت .

إنه نام في فراش النبي — ﷺ — وقد اجتمعت قريش على قتل النبي عليه السلام ، يقدية بنفسه ويؤثره بالحياة ، وقد حارب يوم بدر أعداء الله في شجاعة نادرة ، وقد أصابه يوم أحد ست عشرة ضربة ، وقتل يوم الخندق عمرو بن عبدود . إنه فارس النهار راهب بالليل جمع بين فصاحة اللسان وبتر الحسام .

وكان على يعرف مكانته في قلب ابن عمه رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه ، وكان يعرف حب رسول الله للزهراء فقال له ذات يوم :

— يا رسول الله أينما أحب إليك أنا أم فاطمة ؟

قال :

— فاطمة أحب إلى ملك ، وأنت أعر على منها .

وكانت عائشة أم المؤمنين تقول :

— ما رأيت أحدا أشبه سمحا ولا هديا ولا حديثا برسول الله — ﷺ —

من فاطمة ، وفي قيامها وقعودها .

كانت سيدة نساء المسلمين وكانت صالحة تقضى نهارها وليلها في العبادة ، وكانت الأموال تأتي إلى أبيها وإلى زوجها من فيء الله فلا يدخلان دورهما قبل أن ينفقا في سبيل الله ما ساقه الله إليهما . فكانت في عاية من صيق العيش لتكون أسوة لفقراء المهاجرين والأنصار وتنبها للغافلين على

أن الدنيا ليست مطعم نظر الكاملين .
 دخل عليها ذات يوم زوجها على بن أبى طالب وهي تطحن فقال لها :
 — قد جاء أباك خدّم كثير فادهى فاستخدميه .
 ثم أتيا إليه جميعا فاطمة أحب أهله إليه وعلى بن أبى طالب من سأل الله
 أن يشدد به أزره ، فقالت فاطمة :
 — يا رسول الله لقد طحنت حتى كلت يدى ، وقد جاءك الله بسعة
 فاخدمنا .

فقال :

— والله لا أعطيكم وأدع أهل الصفة تطوى بطونها من الجوع .
 وكانت عائشة بنت أبى بكر وحفصة بنت عمر وأم سلمة بنت زاذ
 الركب وزينب بنت جحش فى دور النبى يتلقين عنه العلم . وما كان أحد
 أعلم بفقهه ولا بطب ولا بشعر من عائشة ، ولو جمع علم عائشة إلى علم
 جميع أزواج النبى — ﷺ ، وعلم جميع النساء لكان علم عائشة أفضل .
 كان عليه السلام يعلم رجال المهاجرين ونساءهم ورجال الأنصار
 وساءهم كيف تكون الحياة العاضلة على الأرض ، ويشرح لهم المصح
 الدينى للحياة ، ويغير بالقدوة الحسنة والوصايا الطيبة نفوسهم ، فقد أنزل
 عليه : ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ ^(١) . إنه
 يجاهد الضعف البشرى والهوى البشرى فى نفوس الناس لتكون كلمة الله
 هى العليا فتحقق فى الأرض عدالة السماء .
 إنه يفرس فى أصحابه القيم التى تقوم عليها الحياة ، ويرسم لهم المنهج

الذى يحقق كرامة الإنسان ويمنحه حريته ويطلقه من العبودية لغير الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَكُمُ شَتَانُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (١).

إنه يضع الأساس السليم لقيام نظام للحياة البشرية على دعائم طبيعية يقوم عليها صرح سعادة الناس في الدنيا والآخرة محققا غاية الوجود الإنسانى ؛ فهو لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى من لدن خالق الوجود العليم بحقيقة الوجود وبحقيقة الإنسان .

إنه يقود الفطرة البشرية لتتأسق مع باموس الوجود ، وإنه ليرشد البشر إلى التوافق مع الكون حتى لا يحطم الإنسان على صخرة العناد والضياح ، ويشقى في تيه القلق والشك ، ويتمزق في فياق الحيرة ، ويتردى في مهاوى الاضطراب .

إنه يملأ النفوس بالهرة والكرامة ومكارم الأخلاق ، ويرحمها من ذلك الخواء المرير المدمر ، ثمرة المتاع الحسى وفراغ الحياة والعقم الروحى والأخلاق المنحللة التى تجدد لذتها في أحضان الرذيلة لحظات ، ثم تصح أسيرة الأهواء والشرور والآثام .

إنه يقلل البشرية من وادى الدموع ، من أرض الصياح ، من دنيا الشقاء ، من كهوف الخوف ، إلى رفرفات الطمأنينة ، وطيبات السعادة ، وصراط السلام ، إنه يحطم الحواجز النفسية بين الإنسان وبين الله . إنه يعد رعاة الإبل ليكونوا رعاة الشعوب وفى قلوبهم نور وفى أيديهم كتاب منير .

الروح الإسلامية تسرى في المدينة ، وصحابة الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — ينظرون إليه بعيون مفتوحة ويلقون إليه آدانا واعبة . فهو المصطفى لهداية البشرية ، والأسوة الحسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، والقدوة التي يقتدى بها الذين يريدون أن يسيروا في طريق الفكرة الإسلامية الصحيحة التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها . فمحمد رسول الله — ﷺ — يفيض عليهم كل يوم من إنسانيته ، ويلقنهم دروسا في نظافة الحياة الزوجية وفي سمو الأبوة ، وفي رافة الحاكم وعدله وحزمه ، وفي عدالة القاضي ، وفي براعة القائد ، وفي كفاح المجاهد ، وفي خشوع المتعبد ، وفي مزج الدنيا بالآخرة وربط الأرض بالسماء ، فقد جعل العمل عبادة والعبادة عملا ووحد بين الفكر والوجدان ، فأصبح أصحابه يسرون بأجسامهم على الأرض وأرواحهم متعلقة بالسماء .

وكان رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — لا يغفل عن حماية المدينة حتى لا تسمح للكافرين فرصة أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، فكان إذا سمع بأن قبيلة تجمع الجموع لتغير على المدينة لا ينتظر حتى يحذر الحائقون إليه ويشخنوا في أصحابه ، بل كان يبعث إليهم السرايا لينقى الرعب في قلوبهم ويشنت شملهم ، وقد جاء الخبر إلى رسول الله عليه السلام أن أم قرفة تسه وأنها تحرص بنى فرارة على قتاله ، فلما تيقن — صلوات الله وسلامه عليه — بعث أبا بكر الصديق إلى فرارة .

كانت أم قرفة في شرف من قومها وكان يعلق في بيتها خمسون مبيعا

كلهم لها محرم ، وكان لها اثنا عشر ولداً ومن ثم كانت العرب تصرب بها
المثل في العزة فتقول :

— لو كنت أعز من أم قرفة ١٩

وكان لها ابنة من أحسن العرب أفاص الساس في وصف حسنيتها ،
وكانت ذات جمال حقاً إلا أن قلبها كان يمتلئ حقداً على نبي الإسلام عليه
السلام مثل قلب أمها . ولا عرو فقد كانت الأم تغذى ابنتها بكراهية
الإسلام وأهلها .

وخرج أبو بكر الصديق والذين معه إلى بني فزارة بوادي القرى ، حتى
إذا صلوا الصبح أمرهم فشنوا العارة فوردوا الماء ، فدار قتال بين أبي بكر
والمسلمين وبين بني فزارة ، وامتألت جبهات الوادي بالتكبير وسقط
الفزاريون صرعى . فلما رأت أم قرفة أن الدائرة تدور على قومها أخذت
ابنتها والدراري وراحوا يهرولون نحو الجبل .

ورأى مسلمة بن الأكوع الطائفة التي ولت الأدبار فخشى أن يسبقوه
إلى الخبل فأدركهم ورمى بسهم يسهم وبين الجبل . فلما رأوا السهام وقفوا
فدنا مسلمة منهم فإذا بأم قرفة عليها قشع من آدم (فروة خلقة) معها ابنتها
من أحسن العرب ، فجاءهم يسوقهم إلى أبي بكر فعلمه ابنتها .

وعادت السرية بالأسرى إلى المدينة وما كشف مسلمة لبنت أم قرفة
لوما . وذكر له — عليه السلام — جمالها فتذكر أسيراً مسلماً كان في أيدي قريش
فطافت بذهه فكرة أن يسأل مسلمة أن يهب له المرأة فيبعث بها إلى قريش
ليغدى الأسير المسلم الذي كان في أيدي المشركين .

والتقى عليه السلام بمسلمة بن الأكوع في السوق فقال له :

— يا مسلمة ما جارية أصبتها ؟

— يا رسول الله جارية رجوت أن أفدى بها امرأة منا في بني فزارة .
 وانصرف رسول الله عليه السلام يفكر ، إن مسلمة يريد أن يفدى
 امرأة من أهله بنت أم قرفة وهو يريد أن يفدى بها أسيرا مسلما بين يدي
 قریش ، وراح يقارن بين العداءين فرجحت كفة فداء أسير مكة ، والنقي
 رسول الله في السوق بابن الأكوخ فقال له :

— يا مسلمة هب لي المرأة لله أبوك .

— هي لك يا رسول الله .

فبعث بها رسول الله — ﷺ — إلى مكة ففدى بها ذلك الأسير .

وقال عليه السلام لعبد الرحمن بن عوف :

— تجهز فإني باعثك في سرية من يومك هذا ومن العد إن شاء الله
 تعالى .

ثم أمره أن يسرى من الليل إلى دومة الجندل في سبعمئة ، فراحوا
 يتجهرون وعسكروا خارج المدينة ، فلما كان وقت السحر جاء عبد
 الرحمن بن عوف إلى رسول الله — ﷺ — وقال :

— أحبيت يا رسول الله أن يكون آخر عهدي بك .

وسار عبد الله بن عمر لسمع وصية رسول الله — ﷺ — لعبد الله بن
 عوف ، فما كان عبد الله يحب أن يفوته فعل أو قول لمحمد — صلوات الله
 عليه وعلى آله ، فإذا فتي من الأنصار أقبل يسلم على رسول الله —
 ﷺ — ثم جلس فقال :

— يا رسول الله أي المؤمنين أفضل ؟

— أحسنهم خلقا .

— وأي المؤمنين أكيس ؟

— أكثرهم للموت ذكرا وأحسنهم له استعدادا قبل أن يزل بهم ،
أولئك الأكياس .

ثم سكنت الفتى فأقبل رسول الله — ﷺ — فقال :
— يا معشر المهاجرين خمس خصال إذا نزلت بكم — وأعوذ بالله أن
تدركوهن :

بانه لن تظهر الفاحشة في قوم حتى يعلنوا بها إلا ظهر فيها الطاعون
والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا .

وما نقص المكيال والميزان في قوم إلا أخذهم الله بالسنين ونقص من
الثمرات وشدة المؤنة وجور السلطان لعلهم يذكرون .

وما منع قوم الزكاة إلا أمسك الله عنهم قطر السماء ولولا الهائم لم
يسقوا .

وما نقض قوم عهد الله ورسوله إلا سلط الله عليهم عدوا من غيرهم
فأخذ ما كان في أيديهم .

وما حكيم قوم بغير كتاب الله إلا جعل الله تعالى بأسهم بينهم .
وكان على رأس عبد الرحمن بن عوف عمامة غليظة فقصها رسول الله

— ﷺ — بيده ثم عممه بعمامة سوداء وأرعى بين كتفيه منها أربع أصابع
أو نحوها من ذلك ، ثم قال :

— هكذا يا بن عوف فاعتم فإنه أحسن وأعرف .
ثم أمر بلالا أن يدفع إليه اللواء فدفعه إليه ، وقام — ﷺ — فحمد الله

ثم صلى على نفسه ثم قال :
— اغز باسم الله وفي سبيل الله ، فقاتل من كفر ولا تغل ولا تغدر ولا

تقتل وليدا فهذا عهد الله وسنة نبيكم فيكم .

ثم قال — ﷺ — له :

— إذا استحابوا لك فتزوج ابنة ملكهم .

وسار عبد الرحمن بن عوف ومن معه إلى دومة الجندل ليدعوا أهلها إلى الإسلام ، إلى نور الله ، إلى المبادئ السامية التي اعتنقها من قبل دومة بن إسماعيل بن إبراهيم خليل الرحمن ، تلك المبادئ التي طمست أساطير الشعوب .

وكان الأمل يراود عبد الرحمن في أن يستحيوا الدعوة الحق فقد اعتنق ملكهم النصرانية من قبل لما انتضحت له أن ما تدعو إليه المسيحية أسمى من الجاهلية التي رانت على ملكه ، فمثل ذلك الرجل الذي يبحث عن الحقيقة دون تعصب لمعتقدات الآباء من اليسر أن يفتح فؤاده لنور الحق .

وقدمت سرية عبد الرحمن بن عوف دومة الجندل فذهب إلى قصر ملكهم الأصم بن عمرو الكلبي وهو يتلفت . كانت مدينة حصينة كأنها قلعة في الصحراء . إنها شهدت معارك طاحنة بين بني إسماعيل والأشوريين ، وإن السبعمئة الذين معه لا قدرة لهم على ذلك حصون المدينة فما جاء ليغزو الحصون بل ليغزو القلوب ، فإذا ما نجح في أن يفتح أفئدة الناس فما أيسر أن تدين له المدينة كلها بالولاء .

واجتمع الأصم بن عمرو الكلبي وحاشيته ورجال دينه بعبد الرحمن بن عوف وصحابة الرسول عليه السلام ، وعرض عبد الرحمن على القوم الإسلام فاحتقت الوجوه بالدم وزجرت الثورة في الصدور ، وقال قائل في غضب :

— ليس بيننا وبينكم إلا السيف .

و لم يفعل عبد الرحمن وجعل يسرد على مسامعهم مبادئ الإسلام فإذا

بملكهم الأصمغ بن عمرو الكلبي يمثل بنفس الشعور الذي امتلأ به العاشق لما قرأ عليه جعفر بن أبي طالب القرآن . إنه يحس في أعماقه أن ما جاء به محمد عليه السلام وما جاء به السيد المسيح من مشكاة واحدة .

وأرحى الليل ستره والحوار دائر بين أتباع محمد وأتباع المسيح والأصمغ ابن عمر الكلبي يصغى وقد انفعل بأقوال الرجال الذين جاءوا من المدينة وأعجب بفعالهم ، فما شغلته المناقشات عن ذكر الله .

وفي اليوم التالي انعقد المؤتمر الديني : أصحاب محمد عليه السلام يتلون القرآن العظيم فيهب القلوب ويجعل الدموع تفيض من الأعين ، ويشرحون مبادئ العقيدة السمحة فإذا بها عقيدة ميسرة تحض على مكارم الأخلاق وتأخذ بيد الناس إلى قسم البشرية .

ودخل الملك الأصمغ بن عمرو الكلبي لينام ولكن اليوم جافاه فأيات الله البيئات تدوى في عين ذاته وتشعله عن النوم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَبِئْسَ لَكُمْ كُتُمُ تَعْمَلُونَ ﴾ ^(١) ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُون * وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُون * وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ * أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تُلَوِّنُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ * الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ ^(٢) .

وظلت الآيات تتردد في نفسه وهو شارد يفكر فيحس أن ما سمعه في يومه قد أنار له الطريق وأرشده إلى السبيل ، وأنه ولا ريب الدين الذي دعا إليه كل الرسل والأنبياء ، وأنه الخنيفية السمحاء . وفي ظلمات الليل رأى بعين بصيرته أنوارا تبهر كل الأنوار ، أنوار تستقر في الفؤاد وتنعكس منه لتنعض على الوجود ضياء ربانيا يغمر عالم الملكوت . يشاهد به ما وراء الحواس .

وفي اليوم التالي عاد عبد الرحمن بن عوف وقلة من أصحابه إلى قصر الملك ، وجاء الملك ورهبانه وخاصته وكان متطلق الوجه يرنو إلى المسلمين في عطف بعد أن استقر في وجدانه أنهم حزب الله .

وراح المسلمون يقرعون القرآن فأطرق الأصمغ بن عمرو الكلبي ينصت فيستشعر كأن القراءة تسكب في قلبه بالأنوار ، وأطبق الرهبان الشفاه فقد ألقوا السمع إلى ابن عوف وهو يرتل القرآن ترتيلا فيمس في نفوسهم أوتار الإيمان ، ومات الحدل بعد أن جاءهم برهان من رهم فما يقصه القرآن من أنباء الرسل ومن أنباء ما قد سبق قد ثبت الإيمان في قلوبهم ، فما كان ليشر مهما تفقه في الدين أن يكون عنده كل هذا العلم ، إنما العلم عند الله وإنما محمد نذير مبين .

وقال الملك الأصمغ بن عمرو الكلبي في انفعال شديد وقد كسا الإيمان

وجهه :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .

وتهللت وجوه المسلمين بالبشر وخفقت القلوب بالفرح ، وراح الرهبان يطقون شهادة الحق فظفرت الدموع من أعين عبد الرحمن بن عوف والذين معه ، فقد كان إسلام القوم أحب إليهم من قتالهم والانتصار عليهم وأسر الدراوى وسوق العم . فقد بعث محمد عليه السلام هاديا ولم

يبحث جاييا .

وأسلم الأصمغ بن عمرو وأسلم معه ناس كثيرون من قومه ، وأقر من أقام على كفره بإعطائه الجزية عن يد وهم صاغرون .

وأرسل عبد الرحمن بن عوف إلى رسول الله ﷺ — يخبره بإسلام القوم فانشرح صدره عليه السلام ، فقد كان يسهه أن يدخل الناس في دين الله ، ولكن إسلام الأصمغ بن عمرو الكلبى كان شيئا آخر له خطره فقد أصبحت قلعة حصينة في طريق الشام والعراق يخفق في جناتها نور الله ، وستكون دومة الجندل نقطة ارتكاز عندما يأتى ذلك اليوم الذى يتحقق فيه وعد الله بأن يرث المسلمون ملك الفرس وملك الروم .

وأراد رسول الله ﷺ — أن يشد الأواصر بين أصحابه وبين الكلبين ، فكتب عليه السلام إلى عبد الرحمن بن عوف أن تزوج بنت الأصمغ ، فلما جاء إليه الكتاب لم يتردد فقد قال له عليه السلام يوم بعته : « إذا استحبوا لك فتزوج ابنة ملكهم » وها هو ذا عليه السلام يبحث إليه بكتاب يأمره فيه بأن يتزوج بنت الأصمغ ، ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالا مبينا ﴾ (١) .

وتزوجها عبد الرحمن بن عوف وهى أول كلبية نكحها قرشى ، ومكث في دومة الجندل وقد هدى الله به أقواما ، ثم قدم بها المدينة وقد ربط الأسباب بين دومة الجندل والمدينة .

كان علي بن أبي طالب ربيب رسول الله ﷺ - يتلقى عنه الحكمة والعلم ويتخذة أسوة ، وكان ابنه الحسن يدعوها أبا الحسين ويدعوها الحسين أبا الحسن ويدعوان رسول الله ﷺ - أباهما ، وكان رسول الله عليه السلام أبا تراب فكانت من أحب كناه إليه ، وكان يفرح إذا دعي بها ، وقال له رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه :

— أنت بمسوب^(١) الدين والمال بمسوب الطلعة .

وهاجرت أمه فاطمة بنت أسد مع المهاجرين وكان رسول الله - صلى الله عليه وآله - يكرمها ويعظمها ويدعوها أمي ، وأوصت إليه حين حضرتها الوفاة فقبل وصيتها وصلى عليها ونزل في لحدها واصطجع معها فيه بعد أن ألبسها قميصه ، فقال له أصحابه :

— إنا ما رأيناك صنعت يا رسول الله بأحد ما صنعت بها ؟
فقال :

— إنه لم يكن أحد بعد أبي طالب أبر مني منها .

لم ينس رسول الله ﷺ - صنع أبي طالب به ، وإنه ليدكر على الدوام تلك الأيام التي كفله فيها عمه بعد موت جده عبد المطلب ، وكلما نظر إلى علي كرم الله وجهه تذكر أيام أن وقف أبو طالب إلى جواره يشد أزره ويمنع عنه أذى قريش ويقول له : قل ما أحبت . وإن لم يدخل في دير

(١) المسوب : ذكر النحل وأمورها .

الله .

لم يعترض عمه على إسلام علي بل قال له اتبعه فإنه يدعوك إلى مكارم الأخلاق . وكان علي في حجرة عليه السلام فصار له أبا روحيا ينهل من علمه أشرف العلوم ويقتبس منه الفضائل وسحر البيان ، ويقتدى به في شجاعته وسخائه وجوده ، فرسول الله عليه السلام رئيس الفضائل وينبوعها ، كل من بزغ فيها بعده فعمه أخذ وله اقتفى وعلى مثاله احتذى . كان علي الشجاع الذي ما فرق قط ولا ارتاع من كثية . ولا بارز أحدا إلا قتله ، ولا ضرب صربة قط فاحتاجت الأولى إلى الثانية ، كانت ضرباته وترا . وكانت العرب تفتخر بوقوفها في الحرب في مقابلته ، وكان رهط قتلاه يفتخرون بأن قاتل الأجابة على كرم الله وجهه ، قالت أخت عمرو ابن عبد ود ترثيه :

لو كان قاتل عمرو غير قاتله بكيته أبدا ما دمت في الأبد
لكن قاتله من لا نسطو له وكان يدعى أبوه بيضة البلد
ما صارع أحدا قط إلا صرعه ، وكان يصوم ويطوى ويؤثر بزاده وفيه أمرل : ﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكيا ويتيما وأسيرا ﴾ إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا ﴿ (١) .

وكان يسقى بيده لسخل قوم من يهود المدينة حتى لحن جلده ، ويتصدق بالأجر ويشد على بطنه حجر ، إنه على الخلق الذي يحبه الله السحاء والوجود ، ما قال لا لسائل قط .
وكان أحلم الناس عن ذنب بعد رسول الله عليه السلام وأصفهم عن

مسيء ، لا تصدر أفعاله إلا عن الدين والورع ، ولا جرم فهو ريان على الدوام من حكمة ينبوع الحكمة وموارد علم رسول الله عليه — صلوات الله وسلامه .

وكان سيد المجاهدين ، قُتل في عزوة بدر سبعون من المشركين قتل على نصفهم . وجدل صاديد قريش في أحد ، وترك عمرو بن عبد ود فارس قريش يوم الخندق كأمس الدابر . وكان لا يجارى في الفصاحة ولا يبارى في البلاغة ، وكان طلق الحيا دائم البشر لين الجانب شديد التواضع ، ولا غرور فهو يرى إمام المتواضعين يمام على الخصر ، وكان مهابا .

ما شبع من طعام قط ، وكان أحسن الناس مأكلا وملبسا يأتمم إذا اتهم غل أو ملح ، فإن ترقى عن ذلك فبعض نبات الأرض ، فإن ارتفع عن ذلك فيقليل من ألبان الإبل ، وكان يأني أن يجعل بطنه مقابر الحيوان ! كان يحفظ القرآن وكان من أسد الناس رأيا وأصحبهم تدبيرا ، متقيدا بالشرعة لا يرى خلافا ، خشنا في ذات الله ، زوجته سيدة نساء العالمين ، والحسن والحسين سيذا شباب أهل الجنة . إنه قرّة عين رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه ، ولكه عليه السلام لم يعبده عن المخاطر بل كان يدفعه إلى الجهاد في سبيل الله ، فخاتم الأنبياء كان على اليقين من أن المرء لن يصيبه إلا ما كتب الله له .

كانت خير تعلّى بالحق على نبي الإسلام — صلوات الله وسلامه عليه ، فإنه لما أجلى بنى قيقاع وبنى النضير عن المدينة نزل عليهم على يهود خير ، ولما أصدر سعد بن معاذ حكمه في بني قريظة بأن تقتل الرجال وتقسم الأموال وتسيى الذرارى والنساء قُتل حُبي بن أحطب سيد بنى النضير فيمن قتل ، فكان هو النضير يتحرقون شوقا إلى الثأر من صيادى

اليهود .

كان اليهود في حيرة يعلمون أنهم أهون من أن يشعروا حرباً على المسلمين ، وكانوا يرون أن تأليب القبائل عليهم هو الوسيلة التي تمكنهم من الثأر من قتل الأحبة .

ولكن ذكرى خروج ساداتهم إلى قريش لترتين قتال المسلمين كانت تؤرقهم ، فلم تتمكن جيوش الأحزاب من استئصال شأفة أعدائهم بل كانت وبالا على حبي بن أعطب وعلى بنى قريظة بله على اليهود أجمعين ، فلم يعد لهم حصون ولا معاقل ولا أطام في المدينة ، فرأوا أن يستمروا بحربهم وأن يشنوا على المسلمين هجوماً على غرة فتكون لهم المبادرة فيحققون ما عجزوا عن تحقيقه في كل ما سبق من تدبير .

أرسلوا رسلهم إلى بني سعد بن بكر بفدك فراحوا يفاوضونهم على أن يمدوهم برجال الحرب المسلمين على أن يجعلوا لهم ثمر خير في تلك السنة ، فأسال العرس لعاب بن بكر فقبلوه وراحوا يعلنون العدة للسير مع يهود خيبر إلى المدينة ، وهم يحلمون بهزيمة المسلمين وقتل الرجال وتقسيم الأموال وسبي الذراري والنساء .

وبغ رسول الله ﷺ — أن لبى سعد جمعاً يريدون أن يمدوا به يهود خيبر ، فبعث ربيه الحبيب على بن أبي طالب في مائة رجل ليهجموا ذلك الجمع في عقر دارهم ليستهم ويلقى الرعب في قلوبهم قبل أن يتدفقوا على مدينة الرسول .

سار على في مائة رجل من أصحاب الرسول في شعبان سنة ست من الهجرة إلى بني سعد بن بكر بفدك وكان بينها وبين المدينة ست ليال ، فكان يسير الليل ويكمن النهار حتى لا يحسوا بخروجه ، إلى أن نزل برجاله محلاً

بين خير وفدك ، فوجدوا به رجلا فسألوه عن القوم فقال :
— لا علم لي .

فشلوا عليه فأقر أنه عين لهم خرح يتسم الأخبار وقال :
— أخبركم على أن تؤمنوني .

فأمنوه فدلهم فأغاروا عليهم وأخذوا خمسمائة بعير وألفى شاة ،
وهرمت بنو سعد بالذراري والنساء . فعزل على رضى الله عنه صمى^(١)
رسول الله — ﷺ : لقوحا تدعى الحفدة^(٢) ، ثم عزل الخمس لله
ورسوله وقسم الباقي على أصحابه .

وامتلأت المدينة بالبعير والشاء ، وكان نصيب الله ورسوله الخمس :
مائة من الإبل وأربعمائة شاة وإنها لشيء كثير لو أمسكها عليه السلام
لأعنته ، ولكنه وزعها جميعا على فقراء المسلمين . ولم يدخل على كرم الله
وجهه على زوجه وأبنائه إلا بعد أن تصدق بنصيبه كله على الفقراء
والمساكين ، فقد كان له في رسول الله أسوة حسنة ، فهو يرجو الله واليوم
الآخر .

(١) الصمى : ما يختاره الرئيس لنفسه قبل القسمة .

(٢) الحفدة : السريعة .

كانت قريش تتأهب لرحلة الصيف وكان سادات قريش يجتمعون في دار الندوة وفي الحرم وتحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ، فأبو سفيان بن حرب رعيم القافلة كان كسر القلب فقد جاءته الأنباء بأن ابنته أم حبيبة قد ركبت السفينة لتنتقل مع المسلمين الذين كانوا في الحبشة إلى المدينة ؛ إنها ستزف إلى محمد عدوه اللدود وإن هذه الريحمة لتززل الأرض تحت قدميه .

وكان يزيد في قلقه أنه حارج إلى الشام في رحلة طويلة وسيغيب عن مكة شهورا لا يدري ما قد يقوم به ابن عبد الله ، فمد أن أحفقت الأحزاب في القضاء على ابن أبي كبشة وحزبه فالإسلام يزحف في كل مكان ، ومحمد يضرب أعداءه كلما فكروا في أن يجمعوا له الجموع فهو يسير إليهم ويشنتهم قبل أن يتحركوا لقتاله . فمن يدري قد يزحف محمد إلى مكة في غيابه ويضع يده على قلب جزيرة العرب الباهض فيصبح زعيم العرب بلا سارع ، ويعلو بيت بني هاشم يبا يصير بيت بني أمية في الطل .

كانت الزعامة هي شغل أبي سفيان الشاغل وكانت الدنيا هدفه ، إنه لا يريد أن يصدق أن محمدا — صلوات الله عليه وسلامه — رسول من عند الله وإن كان يعلم أنه صدوق لا يكذب ، وأنه قاتله حتى لا يفقد مكانته في قريش فقد جاء محمد أمرا لا يبقى معه شرف فقاتله حمية وكرهه أن يذهب بشرفه .

وكان حكيم بن حزام قد أشرف على الستين . إنه ولد قبل قدوم أصحاب الفيل وهو يعقل حين أراد عبد المطلب أن يديح ابنه عبد الله حين

وقع ندره ، وشهد مع أبيه الفجار ، وقتل أبوه حزام بن خويلد في الفجار الآخر . وكان حكيم يكنى أبا خالد وكان له من الولد عبد الله وحالد ويحيى وهشام ، وأمههم زينب بنة العوام بن خويلد . كان صاحب دار السدوة وكان شريفا في قومه ، وإن ذلك الشرف أسدل غشاوة على عين بصيرته فلم ير النور الذي بهر عتمته خديجة بنت خويلد حاضرة الإسلام وأم المؤمنين ، والزبير بن العوام ، وسادات قريش من المهاجرين .

إنه كان يعجب في نفسه من تلك المكانة التي بلغها الفتى زيد بن حارثة في الدين الجديد ، إنه اشتراه بصاعة من سوق عكاظ ووهبه لعننه خديجة ، فلما تزوجت محمد بن عبد الله وهتته له فتباه ابن عبد الله ، وكان ذلك شيئا يفوق تصور حكيم بن حزام .

كان حكيم يحسب أن أمر العلام اليفعة^(١) الذي اشتراه بأربعمائة درهم سيقف عند حد النسي ، وما حطر له على قلب أن الرجل القصير الآدم أفتطس الأنف قد يأتي يوم يتزوج فيه من عقيلة من عقيلات بيوت الشرف في مكة .

إنه لما سمع أن زيد بن حارثة تزوج زينب بنت جحش ، وأن المسلمين يقولون إن ذلك الزواج قد جاء الأمر به من فوق سبع سموات كاد يطيش لبه ، فقد كان يرى أن الفتى أهون من ذلك ، وأن محمد بن عبد الله قد وصم أشراف قريش بعار لن تمحوه الأيام ، فسادة قريش كانوا يحتقدون أنهم خلقوا من طيبة أشرف من طيبة العبيد بله من كل البشر !
وكان حكيم شارد اللب فقد كانت مخاوف أنى سفيان تراوده ؛ فمن

(١) اليفعة : العلام راهق العشرين من عمره .

يدرى قد يفتحاً ابن عبد الله أم القرى بالهجوم وهم غائبون عنها ؟
ومر به رجل وهو يشرف على وضع بصاعته على ظهور الإبل فقال له :
— ما المال يا أبا خالد ؟
قال :

— قلة العيال .

وكان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب يستشعر في قرارة نفسه
قرب هبوب عاصفة على بيت الله . كان أخا رسول الله — ﷺ — من
الرصاعة ، أرضعته حليلة أبيها ، وكان يألف ابن عمه ، فلما بعث رسول
الله — ﷺ — عاداه وهجاه وهجا أصحابه ، فمكث ما يقرب من
عشرين سنة ماصباً لرسول الله العدا لا يتحلف عن موضع تسير فيه
قريش لقتال رسول الله — ﷺ — .

كان أبو سفيان بن الحارث شاعر البيت الهاشمي بعد الزبير بن عبد
المطلب وأبى طالب ، وكان ككل الشعراء معجبا بشعره فلما أُرِبل على ابن
عمه القرآن الحيد تحرك حسده . فما يتلوه عجب لا هو بالشعر ولا هو
بزمزمة الكهان ، إنه يعرف طريقه إلى قلوب الناس . فعادى ابن عمه حتى
لا يذهب مجد الشعر والشعراء ، ولح في العداوة لما سخر القرآن بالشعر
والشعراء . كان كل ما يشعلنه مجده ، وكان كأبى سفيان بن حرب يعرف
أن ما جاء به ابن عمه لا يبقى معه شرف .

وكان العباس بن عبد المطلب وحالد بن الوليد يتشاوران فهما شريكان
في التجارة ، ويقرصان بنى ثقيف أموالاً بالربا ، وكان العباس يكرم إسلامه
وكان يتعامل بالربا في حرمه بعد الإسلام .

وكان العباس أكثر سادات قريش المحتشمين عند الحرم اطمئنانا . إنه

يرى انتشار الإسلام في القبائل فيثلح ذلك صدره ، وقد استشعر بالمرح لما هاجر نوفل بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم إلى المدينة ليعلن إسلامه .

كان نوفل يكنى أبا الحارث بابيه الحارث ، وكان أسن من أسلم من بني هاشم ، وكان أسن من عميه حمزة والعباس وأسن من إخوته ربيعة وأبي سفيان وعبد شمس بن الحارث .

أسر نوفل بن الحارث بيد ف قال له رسول الله — ﷺ :
— افد نفسك يا نوفل .

قال :

— مالي شيء أفدى به يا رسول الله .

— افد نفسك برماحك التي يجدة .

— أشهد أنك رسول الله .

وأسلم نوفل بن الحارث وكان شريك العباس وكابا متفاوضين في المال متحابين . فلم يحزن العباس هجرة نوفل بل شكر الله أن هداه للإسلام ، ولولا أنه في مكة يتمحسب الأنخير لرسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — لماحر إلى المدينة ، فهناك الأحبة زوجه أم العصل وابنه عبد الله .

وكان ربيعة بن الحارث أسن من عمه العباس بسنين . إنه لم يحصر بدرأ مع المشركين ، كان عاب بالشام . ثم قدم بعد ذلك على رسول الله — ﷺ — مهاجرا أيام الخندق ، وقد تهلل العباس بالفرح لإسلامه وإن أحقى سروره بين جنيه .

وكان عقيل بن أبي طالب فيس أسر يوم بدر وكان لا مال له ، وقال رسول الله عليه السلام في ذلك اليوم :

(عزوة الخندق)

— انظروا من ههنا من أهل بيتي من سبي هاشم ؟
فجاء على بن أبى طالب عليه السلام فمطر إلى العباس ونوفل وعقيل ثم
رجع فناداه عقيل :

— يا بن أم على ، أما والله لقد رأيتنا .
فجاء على إلى رسول الله ﷺ — فقال :
— يا رسول الله رأيت العباس ونوفل وعقيل .
فجاء رسول الله ﷺ — حتى قام على رأس عقيل فقال :
— أبا يزيد قتل أبو جهل .
قال عقيل :

— إذا لا تنازع في تهامة إن كنت أئحنت القوم وإلا فاركب أكتافهم .
كان العباس يحب ابن أخيه سبي الإسلام عليه السلام ، وقد آمن برسالته
وإن أحمى ذلك عن قومه وبقي بينهم يعد عليهم حركاتهم وسكاتهم
ويبعث بها إلى رسول الله ﷺ — صلوات الله وسلامه عليه .
وكان يعلم أن خراعة مسلمهم وكافرهم يحسون محمدا عليه السلام ،
فكان يحذوهم حذر عون على تبليغ رسالته إلى المدينة ، إنه وهب لابن أخيه
مولاه أبا رافع وقد هاجر أبو رافع إلى المدينة بعد بدر ، وشاهد مع الرسول
ﷺ — أحدا والحدق والمشاهد كلها .

كان العباس مطمئن العزاد بيسا كان شريكه خالد بن الوليد قلقا يشترك
في حروب قريش ضد رسول الله ﷺ — بروح القائد الحرى ، فهو
فارس قد تحلق بأحلاق الفرسان ، إذا حاض عماء ، معركة لم يكن له هم
إلا أن يتصر ، ولكنه إذا ما فكر في الانقسام الذى طرأ على المخزوميين بعد
أن جاء الإسلام كانت الحيرة تتجاذبه لا يدري أى الفريقين على صواب .

كان أبوه الوليد بن المغيرة يلقي سمعه إلى رسول الله عليه السلام وكان يعجب بالقرآن ، وقد اتهمه سادات قريش أكثر من مرة بأنه صباٌ ودخل فيما جاء به محمد بن عبد الله ، ولكن أباه مات على دين آبائه فصار خالد لا يدري أكان أبوه على حق لما مال إلى الإسلام أم كان على حق لما مات على دين الآباء والأجداد ؟

وكثيرا ما كان حياله يسرح في المحزومين الذين هاجروا إلى المدينة لينضوا تحت راية الإسلام ؛ خرج مسلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد مهاجرين إلى محمد فطلبهم ناس من قريش ليردوهم فلم يقدروا عليهم ، فلما كانوا بظهر الحرة انقطعت أصبع الوليد فدميت فقال :

هل أنت إلا أصبع دميتِ وفي سبيل الله ما لقيتِ
قد هره ما قال أحوه أثناء هجرته ، ولكن ما كان من عياش بن أبي ربيعة كان أعمق أثرا في نفسه ، فأبو جهل قد ذهب إلى المدينة واحتال على أخيه حتى عاد به إلى مكة ، فقام إليه سو مخزوم وسو ربيعة يصربونه بالسياط ويقولون لسادات قريش :

— هكذا افعلوا بالصائبين من رجالكم .

وحبس عياش في مكة وظل قلبه يهفو إلى المدينة وإلى رسول الله حتى واثته الفرصة ففر إلى المسلمين . إن خالد كلما فكر فيما كان من الوليد بن الوليد وسمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة يستشعر حيرة وتلقى في نفسه بذور الشك في آفته . أكان هؤلاء السادة يتحمنون الاصطهاد وآلام العربة والحفوة بينهم وبين أهلهم لو كان دين الآباء خيرا مما يدعوهم إليه محمد بن عبد الله ؟

وأحس خالد أسى لما طاف بدهه موت الوليد . إنه ليرى الناعى وقد جاء إليه يقول : انقطع فؤاد الوليد فمات بالمدينة فبعته أم سلمة ابنة أبي أمية زاد الركب فقالت :

يا عين فابكسى للوليد بس الوليد بس المعرفة
مثل الوليد بس الوليد أبى الوليد كفى العشرة
فقال رسول الله — ﷺ : لا تقولى هكذا يا أم سلمة ولكن قولى :
﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ﴾ (١) .

وراحت آيات من القرآن ترن فى أغوار نفس خالد بن الوليد وهو فى حيرته لا يدرى أىصم عنها أذنيه أم يلقى إليها سمعه .

وكان هار بن الأسود بن عبد المطلب جالسا فى نادى قومه بمد عييه إلى العبيد الذين يحملون السلع ليضعوها على ظهور الإبل . إنه عادى رسول الله — ﷺ — ونصب له وآداه ، وإنه كلما حلا بنفسه تذكر يوم أن بعث محمد بن عبد الله إلى زينب ابنته من يقدم بها من مكة فعرص لها فى نفر من قريش فتحس بها وقرع ظهرها بالرمح وكانت حاملا فأسقطت ، فردت إلى بيوت بني عبد مناف .

لقد جاءت إليه الأنباء أن محمدا ما بعث سرية قط إلا قال : إن ظفرتم بهيار فاقطعوا يديه ورجليه ثم اضربوا عنقه ، فكان جلده يقشعر من الخوف كلما طافت بفكره ذكريات ذلك اليوم ، ودوى بين جنبيه وعيد رسول الله — ﷺ . وكانت محافوه تربو كلما هجس فى نفسه هاجس أن محمد بن عبد الله ما توعد أحدا إلا نعد فيه وعيده ، إنه قال لأبى بن خلف

يوم أن هدده أبى بالقتل : أبا أقتلك إن شاء الله ، وقد قتله يوم أحد . أصبحت حياة هبار بن الأسود جحيما ، بات يخشى أن يتعد عن مكة حتى لا تظفر به سرايا محمد بن عبد الله فتقطع يديه ورجليه ثم تضرب عنقه . وأصبح مهددا بالقتل حتى وهو في عقر داره ، فأنصار محمد يزعمون على أعداء نبهم ويقتلونهم في فراشهم .

كان حويطب بن عبد العزى العامري باسر الوجه . إنه يجلس بين سادات قريش شارد اللب فهو يعلم أن ما يدعو إليه محمد بن عبد الله حق ، ولقد هم بالإسلام غير مرة ولكن الحكم بن أبى العاص عم عثمان بن عفان يعوقه وينهاه ويقول :

— تضع شرفك وتدع دين آبائك وتصير تابعا ؟

ما كان من قريش أحد من كبرائها الذين بقوا على دين قومهم أكره لما هو عليه منه ، ولقد شهد بدرا مع المشركين فرأى عبدا فقال في نفسه : « هذا رجل ممنوع » . فانهزموا إلى مكة وهو يفكر فيما رأى وقريش تسلم رجلا رجلا وهو بهم بأن يسلم لولا خشيته من الحكم بن أبى العاص ومن أن يعديه مثل العذاب الذي أنزله بعثمان بن عفان ابن أخيه .

وكانت بينه وبين أبى ذر الغفاري تحلة^(١) . إنه يثق في أبى ذر وفي رجاحة عقله ، وقد رآه يوم أن أسلم وأعلن إسلامه على الملأ في الحرم وما ناله من أذى قريش وهو ثابت على الحق ، فكان يتمنى لو أوتي شيئا من شجاعة صديقه ليثور على الحكم بن أبى العاص بله على قريش كلها ويشهد شهادة الحق لا يخشى في الله لومة لائم ، إنه يريد الإسلام ويأبى الله عز وجل

(١) تحلة : صفة حميدة .

إلا ما يريد .

وأقبل الناس من الدور لتوديع الأحة الخارجين إلى الشام ، وخرجت هند بنت عتبة ومعاوية بن أبي سفيان ، وأميمة بنت أبي سفيان وزوجها حويطب بن عبد العزى ، ويزيد بن أبي سفيان وعتبة بن أبي سفيان وعمرو ابن أبي سفيان ، وصخرة بنت أبي سفيان وزوجها سعد بن الأخس بن شريق الثقفي — وهو الذى قال فيه السى — عليه السلام : أبعد الله فإنه كان يبغض قريشا — وأصهار أبي سفيان وأنسابه لتوديع شيخ بنى أبي سفيان ابن حرب فكادوا أن يملئوا الفصاء ، فنظر أبو سفيان إليهم وهو سعيد وقد رقت على شفثيه ابتسامة زهو .

وكثر العناق واستيقظت أرق المشاعر فى القلوب وجرت الدموع إلى العيون ، وشعل الناس بمشاعرهم حتى كادوا أن يغيبوا عن الوجود ، وأذن مؤذن القوم حى على الرحيل ففصلت العير ، وانطلق ألف بعير وثلاثمائة رجل من التحار ومن الأحابيش الذين يحرسون القافلة إلى سوق بصرى يداعب الذهب الأصفر أحيلة الشيوخ ويعلم الشباب بينات بنى الأصفر . ووقف الرجال والنساء والولدان والإماء والعبيد يرصدون القافلة المسابة فى الصحراء نحو الأفق البعيد تحمل الأحة وأعز ما يملكون ، وقد وقف معهم من وكل إليهم أمر الناس : سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى وعروة بن مسعود وبديل بن ورقاء سيد الخزاعة ، لا يدرون ما يغيب لهم القدر من مفاجآت ﴿ فقل إنما العيب لله فانتظروا إني معكم من المستظرين ﴾ ^(١) .

كان هو النضير يعيشون في خيبر على أمل أن يأتي اليوم الذي ينأرون فيه من نسي الإسلام والمسلمين على ما نال اليهود من هوان وتشريد ، وكان يهود خيبر متشوقين للتأثر من المسلمين لمقتل سيدهم أبي رافع بن سلام بن أبي الحقيق فأمروا عليهم أسير بن رزام وكان أكثرهم مقتلاً لرسول الإسلام عليه السلام ، فقال :

— إلى صانع بمحمد ما لم يصنعه صحابي .

فقالوا له :

— وما عسيت أن تصنع ؟

— أسير في غطفان فأجمعهم لحربه .

— نعم ما رأيته .

فساروا لحدق ينهش قلبه في غطفان وغيرهم يجمعهم لحرب رسول الله ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ — فوجه إليه عبد الله بن رواحة في ثلاثة نفر سرا يسأل عن خبر أسير بن رزام وغرته .

كانت خيبر دولة قائمة بذاتها قد اجتمع فيها شمل اليهود فسراحت ترلودهم أحلام السيطرة على الجزيرة العربية بله العالم بأسره ، وكانت الخطوة الأولى لتحقيق آمالهم أن يقضوا على القوة الناشئة في المدينة ثم ينتشروا في الأرض ليفرضوا سلطانهم على العالمين .

وكانت نوعية منحى الرومان التي تقول إن الدولة الرومانية ميقصى

عليها شعب مختون قد انتشرت بينهم ، مشدت أزر أحلامهم وجعلتهم يتحملون ما ينزل عليهم من اضطهاد في صبر عجيب ، فقد أقعهم أحبارهم أن ذلك الاضطهاد هو تطهير لفسوسهم ليكونوا مستحقين أن يضعه يهوده مصائر العالم في أيديهم .

وكانت المسافة بين خيبر والمدينة تزيد على مائة ميل بقليل ، فراح عبد الله بن رواحة ومن معه يطوون الأرض فلبعوا خيبر بعد خمسة أيام ، فإذا بجحسونها تحرسها قد قام في وسطها حصن هائل يتحدى أسلحة الأعداء من رماح وقسي وسهام وسيوف .

وراح عبد الله بن رواحة يسأل في حرص عن خبر أسير ويدرس أطماعه فعلم أن أهدافه هي أن يصبح زعيم اليهود في خيبر وأن تستمر له الرعامة دون منازع ، ففى حير أخلاط من بنى قريظة وبنى قينقاع وبنى النضير وفيهم من يطمع في سيادة اليهود ، ﴿ تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ﴾ (١) .

وقدم عبد الله بن رواحة على رسول الله ﷺ — فأخبره بما رأى وبما سمع وبما دار في رأسه من أفكار ، فغضب رسول الله ﷺ — الناس للخروج إلى خيبر للاجتماع بأسير ، فانتدب له ثلاثون رجلا وأمر عليهم عبد الله بن رواحة .

وانساب الرجال في الصحراء يفكرون فيما أوصاهم به رسول الله ﷺ — وفيما رسم لهم من تدبير ، حتى إذا ما دخلوا على أسير في حصنه

قالوا :

— نحن آتون حتى نعرض عليك ما جئنا له ؟

— نعم . ولى منكم مثل ذلك .

— نعم . إن رسول الله — ﷺ — بعثنا إليك لتخرج إليه فيستعملك

على حبير ويحسن إليك .

فقطع في ذلك ، فاستعمل محمد عليه السلام إياه على حبير إقرار منه
بزعامة ودليل على أنه لا يريد أن يحوض حرباً مع اليهود ، وإن هذه المهادنة
سترك أمام اليهود فرصة التأهب للالتقاض على المدينة في غفلة من
أهلها ، فجمع مستشاريه وراح يناقش معهم ما عرضه المسلمون عليه
فأشاروا عليه بعدم الخروج وقالوا :

— ما كان محمد ليستعمل رجلاً من بني إسرائيل .

— بلى قد مل الحرب .

وراح أسير يحاول أن يقنع اليهود أن محمدًا عليه السلام قد مل الحرب ،
فقد انقصت ست سنين مذ أن هاجر إلى المدينة وهو ممتشق الحسام^(١)
يحوض غمار عزوات ويبعث السرايا ليدافع عن مجتمعه الجديد . إنه يغني
المصالحة وترك القتال .

كان أسير يحاول أن يقنع مستشاريه ولكنه في الحقيقة كان يحاول أن يقنع
نفسه ، وراح طمعه يملء بالحجج التي تؤيد هواه فرحمت كفة الخروج ،
فخرج وخرج معه ثلاثون رجلاً من يهود مع كل رجل منهم رديف من

(١) امتشق الحسام : نزع من عمده ليضرب به .

المسلمين .

كان عبد الله بن أنيس رديفا لأسير فراحا يتساحيان والرواحل تحمّل السير إلى المدينة والشمس والقمر يتبادلان احتلال رقعة السماء ، وأسير يفكر فيما عرض عليه المسلمون فيجد أنه قد خرج في أثر سراب وأنه يحرق وراء آمال كاذبة ، فدم على خروجه معهم فأهوى بيده إلى سيف أنيس ففطن أنيس له وقال :

— أغدر عدو الله ١٩ أغدر عدو الله ١٩ أغدر عدو الله ١٩

واستل أنيس سيفه فضربه به فإطاح عامة فخذة فسقط ، وكان بيده مخدش من شوحط هصر به أنيس على رأسه فشججه ، ورأى المسلمون العذر من أسير فمالوا على اليهود فقتلوهم إلا رجلا واحدا أعجزهم جريا . ودخل اليهودي خير وهو يصيح فالتف حوله اليهود يسمعون منه ما حاق بأسير والدين معه ، فقال الدين أشاروا عليه بعدم الخروج :

— نصحناه فأنى إلا أن يخرج .

وراح الرجال والنساء في الدور يتحدثون بما حاق بأسير وصحبه ، وكانت صفية بنت حُثَي بن أخطب عروسا بكناة بن الربيع فعدا كنانة يحذنها عما فعل محمد بأبيها وباليهود وكان حديثه يقطر سما ، ولكن صفية لم تتعمل بذلك الحديث فقد كانت في قرارة نفسها تعتقد أن العذر كان يبدأ من قومها وأن سيد العرب كان في كل مرة يرد السهم المصوب إليه إلى محور الغادرين .

كان أبوها سيد بني البضير وقد خرج ليقب قریش على المسلمين ، ولم يكف بأن دفع الأحزاب إلى حصار المدينة بل راح يزي لبس قريظة نقص

المهود فكان وبالا على اليهود . وكانت عند سلام بن مشكم القرطبي الشاعر ، إنه كان يهجو محمدا ويفحش في القول ، وكانت حليلة عاقلة فاضة فكانت تعارض زوجها وتقول له إن ذلك الهجاء لن يعود إلا بالشر على اليهود فقارقتها ، فخلف عليها كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق المصري الشاعر .

وكان الحوار يشتد بينها وبين كنانة فقد غاطه منها أنها لا تحقد على أعداء اليهود مثل بنات جسها . إنها لا تنقاد لعواطف البعض والكراهية العمياء ولكنها تنظر إلى الدوافع والعواقب وتحاول أن تكون مصفة . إنها تعبره بذلك اليوم الذي ذهبوا فيه إلى قریش لتأليهم على المسلمين فقد قال لهم سادات قریش :

— يا معشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم مما أصبحا يختلف فيه نحن ومحمد ، أفديننا خير أم دينه ؟
فقالوا دون نخجل :

— بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه .
كانت مرهفة الحس فمذ أن علمت بما كان من سادات قومها في ذلك اليوم وهي تستشعر أن قومها ليسوا على الحق ، فلو كانوا على الحق ما كذبوا ولا نافقوا ولا زعموا أن الوثنية أفضل من عبادة الله وحده .
حرج زوجها كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق يسعى في غطفان ويحصهم على قتل بني الإسلام على أن لهم نصف تمر حير ، وأعلمهم أن قریشا قد تابعوهم على ذلك ، فأجابه عينة بن حصص المراري ، وحررت الأحرار عشرة آلاف مقاتل لا يشك أحد منهم في النصر المبين .

وقد انتهت الغزوة بعودة العرب إلى بلادهم وقد فازوا من العنيفة بالإياب ، وقتل أبيها الذي كان شوما على اليهود . إنها منذ تلك الأيام وهي ترى أن قومها على الباطل وأنهم يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين . ونامت صفية فرأت في المنام أن قمرًا وقع في حجرها ، فعرضت رؤياها على زوجها فقال لها :

— ما هذا إلا أنك تمنين ملك الحجاز محمدا .

ولطم وجهها لظمة خضر عينا منها .

راح ثراة مكة يشدون الرحال إلى الطائف ليحصوا فيه الصيف ليعموا بطيب هوائه وطيب فواكهه ، حتى يأتي أوان الحبح فيخرجوا إلى سوق عكاظ وبينها وبين الطائف ليلة .

وعاد عروة بن مسعود الثقفي إلى داره بعد أن ودع حماه أبا سفيان بن حرب وشيوخ قريش الخارجين إلى الشام فحف إليه شيوخ ثقيف وشبابها يلقون إليه أسماهم ، فقد كان سيدهم وكانوا يطمعون في أن يكون رسول الله لما قام محمد بن عبد الله في مكة يقول إنه رسول الله ، ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ (١) .

كانوا ينتظرون بعث رسول فلطالما حدثهم أمية بن أبي الصلت شاعرهم عن قرب ظهور نبي وأنه ليرجو أن يكون ذلك المبعوث ، فلما ظهر محمد بن عبد الله في مكة حسدوه وأبوا تصديقه ، فقد كبر عليهم أن يكون من غيرهم بعد أن تمشوا للشرف المرتقب فيهم . وهل بعد الرسالة من شرف ؟

كانوا يعيشون على أمل أن يبعث أمية بن أبي الصلت فيهم ، فلما حادت الرسالة عنه لم يروا أحدا أحق بها من سيدهم عروة بن مسعود أو عقبة بن ربيعة ، أما محمد بن عبد الله فتى بنى هاشم فلم يخطر لهم على بال ، فلما جاء إلى الطائف عرض عليهم الإسلام قعدوا على جانبي الطريق الذي يسير

فيه وراحوا يرضحون رجلية بالحجارة حتى سالت دماؤه تروى الرمال ، فإذا ناء من الجهد لم تأخذهم به رافة بل يذهب إليه رجال منهم ليقيموا صله ليستأنفوا رضح رجلية بالحجارة وهم يضحكون .

كان تعديهم لنبي الإسلام عليه السلام حديث نواديبهم ، حتى إذا ما هاجر عليه السلام إلى المدينة ودارت بينه وبين قريش حروب وارتفع ذكر رسول الله عليه السلام حفت أصوات الاستهزاء وأشرقت أنوار اليقين في بعض القلوب ، وترزعزع الإيمان باللات إلهة الطائف التي كان القرشيون يحكون في الموسم إليها في صدور بعض الثقفين ، وكان المغيرة بن أبي شعبة ممن خامرهم الشك في قدرة ألهتهم .

كان المغيرة دميماً أعور وكان عروة بن مسعود عم والده ولكنه كان يقول له يا عم ، وكان المغيرة من سدنة^(١) اللات ولكن بذور الشك في الأصنام قد ألقبت في عين ذاته فحطّر له أن يتعد عن المعد ليتحرر من تلك الصلوات التي تؤلم روحه .

علم المغيرة أن رجالاً من بنى مالك من ثقيف سينطلقون إلى مصر ليقدموا إلى المقوقس هداياهم فراودته فكرة الخروج معهم ، فذهب إلى عمه يستشيره في مرافقتهم فأشار عليه بعدم ذلك ، فكيف يقل عروة أن يفادر أحد سدنة اللات معبدته ؟

وتأهب ثلاثة عشر رجلاً من بنى مالك للخروج ، وراح المغيرة يستعد للخروج معهم إلى مصر فقد استولت الفكرة على كل مشاعره : وحن وقت الرحيل فانطلق الرجال ومعهم المغيرة وإن كان عروة بن مسعود

(١) السدنة : الخدم .

الخروج كارهاً .

وراحت العير تسير على طريق الساحل والمنعرة يرقب أمواج البحر
وشروق الشمس وغروبها وحروح القمر من المحاق إلى أن يكتمل بدرا
وتألق محوم السماء وتتابع الليل والنهار وريحمة الرياح وهبوب السيم ،
فمطن إلى أن اللاب والعري وماة والأصام التي تكدست في جوف
الكعبة أهون من أن تخلق هذا الكون ، ودوى القرآن في وحداسه :
﴿ أفرايتم اللات والعزى ﴾ وماة الثالثة الأخرى ﴿ ألكم الذكر وله الأنثى
﴿ تلك إذا قسمة صيزى ﴾ إن هي إلا أسماء سميتموها ، أنتم وآباؤكم ما أنزل
الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من
ربهم الهدى ﴾ أم للإنسان ما نسي ﴾ فله الآخرة والأولى ﴾ وكم من ملك في
السموات لا تغنى شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يسأذن الله لمشيء
ويرضى ﴾ إن الدين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الدلائكة تسمية الأنثى ﴾
وما هم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يعنى من الحق شيئا ﴾
فأعرض عن من تولى عن ذكرها ولم يرد إلا الحياة الدنيا ﴾ ذلك مسلهم من
العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سيله وهو أعلم بمن اهتدى ﴾ والله ما
في السموات وما في الأرض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجري الذين
أحسنوا بالحسنى ﴿ (١) .

كانوا يصنعون أصابعهم في آذانهم حتى لا يسمعوا القرآن وكانوا
يصفقون ويشدون الأشعار إذا ما راح أحد المسلمين يتلو آى الذكر
الحكيم . وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم

تعلون . ثم انتشر ما أنزل الله في بيوت العرب فكان المؤمنون يقرعونه خاشعين تفيض أعينهم من الدمع بينا الكافرون يقرعونه مستهزئين .
وبلغ الركب العرما بشق الأنفس ، فتقدم منهم جباة المكوس وكانوا من الرومان الأشداء ، فلما سألوهم عما يحملون قالوا :
— هدايا للمقوقس .

ففحصوا عما معهم وأخذوا منهم حق هرقل ثم فتحوا لهم الطريق ، فاسابوا في الصحراء يحدون السير تداعبهم الآمال أن يصلوا إلى الليل .
وراحت الصحراء العربية تطوى تحت أرجل الرواحل . إنها صحراء قاحلة لا زرع فيها قاسية عنيفة فطلة ، فلما بلعوا الليل هرعوا إليه يملكون ما معهم من شاك ويروون طمأهم ويشدون أبعاسا من الهواء الرطب ، ثم يمدون أعينهم إلى الحقول الخضراء فيستشعرون كأنما قد خلقوا من جديد .

وسار الرجال الثمانية مع الليل قاصدين صف ، فكانوا ينزلون في المدن التي قامت على شاطئ البحر العظيم . كان الوقت رمن العيصان وكان الفلاحون مهمكين في إقامة الجسور ، وعلى الرعم من ذلك وجد المغيرة من يحدته من المصريين فإذا بالقلوب تفيض بالكراهية واليغضاء لحكومة الإمبراطورية الرومانية وإن كان الشعان يديان بالمسيحية ، كان المصريون يعتقدون مذهب الساطرة بينا الرومان كانوا على مذهب البعاقبة وكانوا يعتبرون مصر بقرة حلوبا تحمل حيراتها إلى القسطنطينية .

وسمع المعيرة سادن اللات عن المسيحية ووحدة طبيعة المسيح واللاهوت والاسوت ووحدة الإرادة معحر عن أن يفهم التثليث . إنه يؤمن بوجود خالق لهذا الكون وأن ذلك الخالق أحل من أن يعد مباشرة ،

فكانت اللات والعزى ومناة والآلهة الأخرى وسائط تقرب العباد إلى الله زلمي ، وقد بدأ ذلك الاعتقاد بتزعزع مذ جاء محمد بن عبد الله بديانة التوحيد الخالص من كل شائبة وكل وساطة .

وبلعوا منف وكان لها سبعون بابا قد قامت فيها الأبنية والأعمدة والتمائيل والملاعب ، وانطلقوا إلى قصر المقوقس واستأذنوا في الدخول عليه ، فلما أذن لهم ساروا في فناء على جانبيه تماثيل أبي الهول ثم دلفوا إلى فناء تزينه أعمدة البردي ، ثم ساروا حتى بلعوا الغرف الداخلية والجنود الرومان قد اصطفوا على جانبي الطريق ووجدوا أمامهم بابا مغلقا موشى بالذهب ، إنه باب قاعة العرش الذهبية ، فلما لمحهم الحاجب صاح : التقفيون بالباب ، فأذن لهم بالدخول فتقدموا وقد خفقت أفتدتهم في صدورهم رهبة . فلما رأوا المقوقس على عرشه وأربعة أنهار تجري تحت سريرته خروا ساحدين ولم يرفعوا رؤوسهم حتى أذن لهم ، فهضوا وساروا على أطراف أصابعهم وهم يحملون هداياهم بين أيديهم والمقوقس يرقب المغيرة بن أبي شعبة في إنكار ، فهو دميم أعور لا تنفتح له نفوس الذين يظفرون إلى الوجوه .

وقدموا الهدايا فاستخبر كبير القوم عن المغيرة فقال :

— ليس ما بل من الأحلاف .

فكان المغيرة أهون القوم عليه فأكرمهم وقصر في حقه ، فلما انتهت المقابلة عادوا إلى كنيسة الضيافة والمغيرة في ضيق شديد . وزاد في حقه أن أحدا من أصحابه لم يعرض عليه مواساته . وحين أوان الرحيل قد دخلوا على المقوقس فأعطى كل واحد منهم جائزة ولم يعط المغيرة ، فحقد عليهم وكم حنقه في نفسه .

(غروة الحندق)

وخرج الركب من صف يحمل كل رجل منهم جائزته ويحمل المعيرة غيظته ، وراحت نفسه توسوس له أن رفاقه سيخيرون أهلهم بإكرام الملك إياهم واردراته به فتقاصرت نفسه وبيت الغدر بهم .

ونزلوا محلاً فعصب رأسه ، فعرضوا عليه الخمر فقال :
— رأسي تصدع ولكن أسقيكم .

فسقاهم وأكثر لهم بعير مزح حتى همدوا ، فوثب عليهم فقتلهم جميعاً وأخذ كل ما معهم ، ثم انطلق إلى المدينة وقدم على السي — عليه السلام — في مسجده فسلم عليه وقال :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله .

فقال — عليه السلام :
— الحمد لله الذي هداك للإسلام يا مغيرة .

فقال له أبو بكر :

— من مصر قدمت ؟

— نعم .

— فما فعل المالكيون الذين كانوا معك ؟

وظهر الدهش في وجه المغيرة فما كان يحسب أن يأخروهم إلى مصر

قد بلغ المسلمين في المدينة ، فقال :

— كان بيني وبينهم ما يكون بين العرب ، وقتلتهم وحبست بأسلامهم

ليخمسها النبي — عليه السلام — أو يرى فيها رأيه .

فقال النسي — عليه السلام :
— أما إسلامك فقبلته ، ولا آخذ من أموالهم شيئاً ولا أخمسه فإنه غدر

والغدر لا خير فيه .

— يا رسول الله إنما قتلتهم وأنا على دين قومي ثم أسلمت .
— الإسلام يجب ما قبله .

وخرجت القبائل في الموسم إلى عكاظ ، وبلغ ثقيفا ما فعله المعيرة
برجال بني مالك فاختصم بنو مالك مع رهط المعيرة وشرعوا في القتال ،
فسعى عمه عروة بن مسعود في إطفاء نار الحرب وصالح بني مالك على
ثلاث عشرة دية دفعها عروة من ماله .

أذن بلال بالفجر فحرح رسول الله ﷺ — من داره إلى مسجده ،
 فأسرع إليه عبد الله بن مسعود صاحب سواكه وأخذ نعليه وجعلهما في
 دراعيه ومشى أمامه بالعصا حتى بلغ المحراب ، وحف خدمه أنس بن
 مالك وعقبة بن عامر الجهني صاحب بقلته وأسلم بن شريك صاحب
 راحلته ليصلوا خلفه . وجاء من مواله الذين أعتقهم ريد بن حارثة
 وشقران — وكان حشيا — وثوبان وأعشىة — وكان أسود — ويسار —
 وكان نوبيا وكان على لقاء رسول الله ﷺ — وسلمان العارسي ،
 وتدفع إلى المسجد نقباؤه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي والزبير وبلال وعمار
 والمقداد وعثمان بن مظعون ، ونجباؤه وكانوا كلهم من الأنصار سعد بن
 حيثمة من بني عمرو بن عوف وسعد بن الربيع من بني السجاء وعبد الله
 ابن رواحة شاعر الأنصار وأبو الهيثم بن السهمان والبراء بن معرور ورافع بن
 مالك وأبو جابر عبد الله بن عمرو بن حرام وعُبادة بن الصامت والمزني بن
 عمرو .

ودخل المسجد طلحة وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف وأبو
 عبيدة بن الجراح وأبو لبانة وبشير بن عبد المنذر وعبد الله بن أم مكتوم
 الأعمى وأبو ذر العفاري وعبد الله بن أبي بن سلول وسباع بن غر فطة
 ومحمد بن مسلم والسائب بن عثمان بن مظعون وأبو دُحانة ، ومن كتابه
 أنس بن كعب ورید بن ثابت وحالد بن العاص وإبان بن سعيد وخديعة بن
 إيمان وأبو أيوب الأنصاري .

كانوا رجالا لا ذكر لهم قبل أن يمن الله عليهم بالإسلام ، فلما أشرقت قلوبهم بأنوار اليقين صاروا ملء الأبصار والأسماع خير أمة أخرجت للناس ، فاصطفوا خلفه خاشعين قد أسلموا وجرههم لله رب العالمين . وقضيت الصلاة فجلسوا إليه يصعرون ينهلون من منابع علمه ويتلقون منه الحكمة . وبينما هم مستأنسون بحديثه عليه السلام إذ قدم ثمانية نفر من غربة وعكل ومهودين قد كادوا يهلكون لشدة هزالهم وصفرة ألوانهم ونظفروا إليه في وهن ، ثم بطقوا بالشهادتين وقالوا :
— يا رسول الله آوينا وأطعمنا .

فأمر عليه السلام بلالا أن يطعمهم وأن ينزلهم في أهل الصفة ، فكان إذا تناول طعاما دعاهم إليه وإذا خرج في الليل جلس إليهم يحدثهم ويفقههم في الدين ، ولكي قلوبهم التي كانت عمياء لا ترى أنوار اليقين . وذات يوم قدم أبو ذر إلى المسجد ورسول الله عليه — صلوات الله وسلامه — جالس وحده ، فجلس إليه فقال الرسول :
— يا أبا ذر إن للمسجد تحية وإن تحيته ركعتان ، فقم فاركعهما .
فقام أبو ذر وصلى ركعتي تحية المسجد ، ثم أقبل على رسول الله عليه السلام فقال :

— يا رسول الله إنك أمرتني بالصلاة فما الصلاة ؟

— خير موضوع استكثر أو استقل .

— يا رسول الله فأى الأعمال أفضل ؟

— إيمان بالله عز وجل وجهاد في سبيله .

— فأى المؤمنين أكملهم إيمانا ؟

— أحسنهم خلقا .

- يا رسول الله فأى المؤمنين أسلم ؟
- من سلم الناس من لسانه ويده .
- يا رسول الله فأى المحرة أفضل ؟
- من هجر السيئات .
- يا رسول الله فأى الصلاة أفضل ؟
- طول القنوت .
- يا رسول الله فما الصيام ؟
- فرض مجزئ وعند الله أضعاف كثيرة .
- يا رسول الله فأى الجهاد أفضل ؟
- من عُقر جواده وأهريق دمه .
- يا رسول الله فأى الرقاب أفضل ؟
- أغلاها ثمناً وأنفسها عند ربها .
- يا رسول الله فأى الصدقة أفضل ؟
- جهد من مقل يُسرُّ إلى فقير .
- فأى آية مما أنزل الله عز وجل عليك أعظم ؟
- آية الكرسي يا أبا ذر ، ما السموات السبع مع الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة .
- كم كتاباً أنزل الله ؟
- مائة كتاب وأربعة كتب : أنزل على شيث خمسون صحيفة ، وأنزل على حنوخ ثلاثون صحيفة ، وأنزل على إبراهيم عشر صحائف ، وأنزل على موسى قبل التوراة عشر صحائف ، وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان .

— يا رسول الله فما كانت صحف إبراهيم ؟

— كانت أمثالا كلها : « أيها الملك المسلط المبطل المغرور ، فإنني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها إلى بعض ، ولكن بعثتك لترد عني دعوة المظلوم فإني لا أردّها ولو كانت من كافر » . وكان فيها أمثال : « على العاقل ما لم يكن مغلوبا على عقله أن تكون له ساعات : ساعة يتأجى فيها ربه عز وجل ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يفكر فيها في صنع الله عز وجل ، وساعة يخلو فيها بحاحته من المطعم والمشرّب . وعلى العاقل ألا يكون طاعنا إلا لثلاث : تزود لمعاد ، أو فرقة لمعاش ، أو لذة في غير محرم . وعلى العاقل أن يكون بصيرا لزمانه ، مقبلا على شأنه ، حافظا للسانه . ومن حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه » .

— يا رسول الله فما كانت صحف موسى عليه السلام ؟

— كانت عبرا كلها : « عجبت لمن أيقن بالموت ثم هو يفرح . عجبت لمن أيقن بالنار ثم هو يضحك . عجبت لمن أيقن بالقدر ثم هو ينصب . عجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم اطمأن إليها . عجبت لمن أيقن بالحساب عدا ثم لا يعمل » .

— يا رسول الله أوصني .

— أوصيك بتقوى الله فهي رأس الأمر كله .

— يا رسول الله زدني .

— عليك بتلاوة القرآن فهو نور لك في الأرض وذكر لك في السماء .

— يا رسول الله زدني .

— إياك وكثرة الضحك فإنه يميت القلب ويذهب بوز الوجه .

— يا رسول الله زدني .

— عليك بالصمت إلا من خير ، فإنه مطردة للشيطان عك وعون لك
على أمر دينك .

— يا رسول الله زدنى .

— أحب المساكين وجالسهم .

— يا رسول الله زدنى .

— انظر إلى من تحتك ولا تنظر إلى من فوقك ، فإنه أجدر ألا تزدري
نعمة الله عندك .

— يا رسول الله زدنى .

— صل قرابتك وإن قطعوك .

— يا رسول الله زدنى .

— لا تحش في الله لومة لائم .

— يا رسول الله زدنى .

— قل الحق ولو كان مرا .

— يا رسول الله زدنى .

— يردك عن الناس ما تعرف من نفسك ، ولا تجد عليهم فيما تأتى ،
وكفى به عيباً أن تعرف من الناس ما تجهل من نفسك ، أو تجد عليهم فيما
تأتى .

ثم ضرب بيده على صدره وأنى ذر وقال :

— يا أبا ذر لا عقل كالندبير ، ولا ورع كالكف ، ولا حسن كحس
الخلق .

وجاء العر من غربة وعكلى إلى رسول الله — عليه السلام — وقالوا :

— إن المدينة وية وحمة ونحن أهل ضرع ولم نكن أهل ريف .

كانت لرسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — لقاح وكانت حمسة كانت ترعى بذى الجدر ناحية قباء قريبا من غير على ستة أميال من المدينة ، فقال لهم عليه السلام :

— لو أخرجتم إلى زود لنا فشربتم من ألبانها .

فخرجوا إلى لقاح رسول الله ليشربوا من ألبانها وكان فيها يسار مولى رسول الله — ﷺ — يرعاها ، فظفروا فيها حتى صحوا وسمنوا فعدوا على اللقاح فاستاقوها ، فأدركهم يسار مولى رسول الله — ﷺ — ، ومعه نفر فقاتلهم فقطعوا يده ورجله وغرزوا الشوك في لسانه وعينه حتى مات ، ثم انطلقوا بالغنم ثم أصبحت هبة المسلمين في الميزان ، فبلغ رسول الله — ﷺ — الخبر فبعث في أثرهم عشرين فارسا واستعمل عليهم كرز بن جابر الفهري ، فأدركوهم فأحاطوا بهم وأسروهم وربطوهم وأردفوهم على الخيل حتى قدموا بهم المدينة ، وكان رسول الله — ﷺ — بالغابة ، فخرجوا بهم نحوه فلقوه بالرغبة محتتم السيول ، فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم وسمت أعينهم وصلوا هالك . وأنزل الله تعالى على رسوله : ﴿ إِنَّمَا حِزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١) .

كانت السنة السادسة من المحرة والوقت موسم الحج فحرحت قبائل العرب إلى الأسواق قبل أن يتدفق الناس على البيت العتيق . وكان رسول الله ﷺ — يهوى فؤاده إلى الحرم ، فلما دخل داره وأسلم جسه للرفاد رأى في النوم أنه دخل مكة هو وأصحابه آمنين محققين رعوهم ومقصرين ، وأنه دخل البيت وأخذ مفتاحه وطاف هو وأصحابه واعتمر .

واستمر رسول الله ﷺ — أصحابه للعمرة فأسرعوا وتجهلوا ، وليس رسول الله ﷺ — ثوبه وركب راحله القصواء وخرج ، ودلت يوم الاثنين هلال ذي القعدة واستحلف على المدينة عبد الله بن أم مكتوم .

ولم يرح رسول الله ﷺ — معه سلاح إلا سلاح المسافرين السيف في القرب ، وساق بدنا^(١) وساق أصحابه بدنا ، فصلى الظهر بذى الحليفة ثم دعا بالبدن التي ساق فجلبت ثم أشعرها^(٢) في الشق الأيمن وقلدها^(٣) وأشعر أصحابه أيضا ليعلم أنها هدى وهي موجهات إلى القلعة ، وهي سعون بدنة فيها جمل أى جهل الذى غمه رسول الله ﷺ — يوم بدر .

(١) البدن : الوق أو القر المسمة . (٢) أشعرها : ألبسها الشعر

(٣) قلدها : جعل في أعناقها حبالا .

وأحرم رسول الله — ﷺ — وليى حتى إذا ما كان بغدير الأشطاط قريبا من عسفان ، أتاه الرجل الخزاعي الذي كان قد بعثه ليأتيه بأخبار قريش فقال :

— إلى تركت كعب بن لؤى وعامر بن لؤى قد جمعا لك الأحابيش وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت .
فقال النبي — ﷺ — لأصحابه :

— أشيروا على ! أترون أن نحمل على ذرارى هؤلاء الذين عاونوهم فنصيبهم ، فإن قعدوا قعدوا موتورين وإن يجينوا تكن عقا قطعها الله ، أو ترون أن نؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه ؟
فقام أبو بكر فقال :

— يا رسول الله إنا لم نأت لقتال أحد ، ولكن من حال يساوين البيت قاتلناه .

فقال — ﷺ — :

— فروحوا إذا .

فراحوا حتى إذا كان بعسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبي فقال :
— يا رسول الله هذه قريش قد سمعت بمسيرك فخرجوا لومعهم العوذ المطافيل^(١) قد لبسوا جلود الثور وقد نزلوا بذى طوى يعاهدون الله ألا تدخلها عليهم أبدا ، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموها إلى كراع العميم .

(١) العوذ المطافيل : البوق التي وضعت أولادها حديثا يريد أنهم خرجوا ومعهم النساء والصبيان .

فقال رسول الله — ﷺ :

— يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب . ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا ، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ؟ فما نظن قريش ؟ والله لا أزال أجاهد على الذي بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة (١) .

ودنا خالد بن الوليد في خيله حتى نظر إلى أصحاب رسول الله — ﷺ ، فأمر رسول الله — ﷺ — عباد بن بشر فتقدم في خيله فأقام بإزائه وصف أصحابه . وحانت صلاة الظهر فصل رسول الله — ﷺ — بأصحابه صلاة الخوف ، فلما أمسى — ﷺ — قال :

— من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها ؟
فقال رجل من أسلم :
— أنا يا رسول الله .

فخرج بهم على طريق وعر حرن بين شعاب ، فلما خرجوا منه وقد شق ذلك على المسلمين وأفضى إلى أرض سهلة عند منقطع الوادي قال رسول الله — ﷺ :

— قولوا نستغفر الله ونتوب إليه .
ففعلوا ، فقال :

— والله إنها للحنة (٢) التي عرضت على بني إسرائيل فلم يقبلوها .

(١) السالفة : صفحة الحق وكفى عن انفرادها بالموت .

(٢) الحطة : يشير إلى قوله تعالى لبي إسرائيل : « وقولوا حطة » ومعناه : اللهم حط عنا ذنوبنا .

ثم قال رسول الله ﷺ — للناس :
— اسلكوا ذات اليمين .

فسار المسلمون حتى دنوا من الحديبية وهي شرق الحرم على تسعة أميال من مكة ، فلما رأى خيل قريش غبار الجيش وأن رسول الله ﷺ قد خالفهم عن طريقهم ركضوا راجعين إلى قريش يندرونهم .
وسار رسول الله ﷺ — حتى إذا سلك ثنية المزارع بركت به ناقته ، فقال الناس :

— حل حل (١) .

فقال — ﷺ :

— ما حل .

قالوا :

— خلأت (٢) القصواء .

فقال — ﷺ :

— ما خلأت وما ذاك لها بخلق ، ولكن حبسها حابس (٣) الفيل .

ثم قال :

— والذي نفسى بيده لا تدعونى قريش إلى خبطة يعظمون بها حرمان الله وفيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها .

(١) حل حل : كلمة يقال للمائة إذا تركت السور .

(٢) خلأت : حرنت .

(٣) حابس الفيل : أى حبسها الله عن دخول مكة كما حبس الفيل من دخولها .

تذييل

كان رسول الله — ﷺ — وحده ليس معه إلا ربه الذى أوحى إليه أن
أنذر عشيرتلك الأقربين ، فقام أعزل من كل سلاح يدعو الناس إلى عبادة
الله وحده لا شريك له إلا سلاح الحكمة والموعظة الحسنة ، ففتح قلوب
المؤمنين بالقرآن الحكيم ، وقد صر هو وأصحابه على أذى الكافرين ، ولم
يستخدم القوة في إقناع معارضيهِ وإن اشتهر بالقوة الدنية ، بل كان يحاول
أن يكسب قلوبهم بالموعظة : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة
الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ ^(١) و ﴿ ادفع بالتي هي أحسن فإذا
الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ﴾ ^(٢) .

وفر المسلمون الأوائل من وجه الاضطهاد إلى الحبشة ، ثم هاجر —
ﷺ — وأصحابه إلى المدينة بعد أن أسلم الأوس والخزرج لما ألقوا أسماهم
إلى الشربيل فأصابت أفئدتهم بأنوار اليقين ، وأحد الإسلام بتشر في القبائل
لأنه دين الفطرة يخاطب العقل فيستجيب ، حتى إذا ما شس عليهم أعداؤهم
المجوم ورفعوا السيوف في وجوههم شرع الله لهم القتال دفاعا عن
أنفسهم ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ أدن للدين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن
الله على نصرهم لقدير ﴾ الدين أخر حوا من ديارهم بعير حق إلا أن يقولوا
ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات
ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا وليسبرن الله من يصره إن الله لقوى

عزیز * الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقل الأمور ﴿١﴾ .

لم يشهر المسلمون السيف لإكراه الناس على الدخول في الدين ، فالقرآن المحيد بعينهم أن لا إكراه في الدين : ﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاعات ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ﴾ * الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴿٢﴾ .

وقد فرض القتال للقضاء على الفتن التي تهدد المسلمين الآمين : ﴿ قل للذين كفروا إن يتنوا ينصر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين ﴾ * وقتلواهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما تعملون بصير * وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير ﴿٣﴾ .

لم يكر الإسلام دينا متعظشا لدماء ولكنه دين يدعو إلى السلام : ﴿ وإن حنوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم ﴾ ﴿٤﴾ . ولكنه لا يرضى بالسلام المدل الذي تضيع فيه حقوق المسلمين وتنتشر بسبب الركون إليه الفتنة التي تحت أنوار اليقين من سويداء القلوب ، فكتب على المسلمين القتال للقضاء على الفتن وإن كانوا للقتال كارهين : ﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا

(٢) البقرة ٢٥٦ — ٢٥٧ .

(٤) الأنفال ٦١ .

(١) الحج ٣٩ — ٤١

(٣) الأنفال ٣٨ — ٤٠

شيئا وهو غير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴿١﴾ .

إنه أمر شديد أن يمتشق المسلمون السلاح في وجه الظالمين ، إنه فراق الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال في سبيل إقرار الحق الذي ما نزلت الرسالات السماوية إلا للتنمكين له في الأرض ، وإنه أمر لا تستجيب له في أسر النفوس التي تعنتت بالحياة الدنيا ، فلا بد من ترغيب وترهيب للجهاد في سبيل أن تكون كلمة الله هي العليا ، فزخر القرآن العظيم بآيات الحصر على الجهاد وجزاء المجاهدين والحزى الذي أعد للمساكين والناكسين : ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبنائكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترضوها وتجارة تحشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله خربصوا حتى يأتى الله بأمره ، والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ (٢) .

قال تعالى : ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت فأولى لهم * طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم * فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم * أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم * أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها * إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان

سول لهم وأملى لهم * ذلك بأنهم قالوا للدين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر والله يعلم إسرارهم * فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأديارهم * ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رصونه فأحبط أعمالهم * أم حسب الدين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم * ولو نشاء لأريناكمهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم * ولسلوكم حتى تعلم المجاهدين منكم والصابرين وتبلوا أخباركم * إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى لن يضروا الله شيئا وسيحبط أعمالهم ﴿١﴾ .

فلم يكن الجهاد لإرغام الناس على الدخول في دين الله بل كان قتال المذاهقين الذين في قلوبهم مرض حتى لا يفسدوا العوس التي هذاها الله لنور ، وقتال الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله من بعد ما تبين لهم الهدى : ﴿ من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أدلة على المؤمنين أعززة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يحفون لومة لائم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ﴾ (٢) .

كان هم النبي — ﷺ — الأول هو الدفاع عن أنفس المؤمنين ، وتأمين حرية العبادة للمسلمين ، وحرية القول وحرية العمل ، وحماية الحقوق للمجتمع الجديد الذي تكون في المدينة في ظل التنزيل .

إن نبي الإسلام عليه السلام لم يشهر سيفاً ولم يسدد رمحاً في سبيل نشر الإسلام بقوة السلاح ، بل خاص حروباً في سبيل الدفاع عن النفس وفي سبيل حماية الدولة الإسلامية الناشئة وهي حروب تقرها كل الشرائع

(٢) المائدة ٥٤ .

(١) محمد ٢٠ — ٢٨

السماوية بله شريعة الفقه الدولي الحديث . وما كان له أن يكره أحدا للدخول في دينه وقد قال الله تعالى في محكم كتابه : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾^(١) ، ﴿ وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمُ وَإِلَيْهَا وَارْجِعْكُمْ وَاحِدٌ وَحَسْبُ لَنَا مَسْمُونٌ ﴾^(٢) ، ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدَ ﴾^(٣) .

وقد حاول رجل من المسلمين لما رأى ولديه قدما مع قافلة من الشام وقد تصيرا أن يرغمهما على اعتناق الإسلام بحجة أنه لا يستطيع أن يرى بعضه يدخل النار ، فهاء نبي الإسلام عليه السلام عن ذلك ، فأنه تعالى يقول : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾^(٤) . فكيف يعصى الرسول صلوات الله وسلامه عليه أوامر ربه ؟ وهل يمتشق الحسام لإرغام الناس على الإسلام والله تعالى يقول : ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ ﴾^(٥) .

فر المسلمون بدينهم من مكة إلى المدينة ، وكان عليه السلام يبعث السرايا لتحسس أخبار قريش لكيلا يأخذوه أعداؤه على غرة فقد كانت حالة الحرب قائمة بين الطرفين . وقد خرج عليه السلام ليعترض قافلة قريش القادمة من الشام فصارها لما استولت عليه قريش من دور وأموال ، وقد أفلت أبو سفيان بالقافلة وعلى الرغم من ذلك خرجت قريش للحرب المسلمين واستعصال شأخهم ، فكان على المسلمين أن يسلموا رقابهم

(١) القصص ٥٦ (٢) المكيوت ٤٦ (٣) في ٤٥ .

(٤) البقرة ٢٥٦ (٥) الكهف ٢٩ .

لأعدائهم أو يدافعوا عن أنفسهم وأن يصدوا الباغين المعتدين ، فدارت عند ماء بدر أول معركة يخوضها المسلمون دفاعا عن النفس وحماية لدولتهم الناشئة أن تدول . وما كان المسلمون البادئين بالقتال وما كانوا معتدين ، فالور الذى أضاع قلوبهم قد أرشدهم إلى معبة الابداء بالعلواء : ﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ (١) . ﴿ يأياها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ (٢) .

فالجهاد فى الإسلام هو الحرب دفاعا عن النفس أو دفاعا عن جماعة المسلمين حتى لا تكون فسة ، وقد عظم القرآن الكريم الجهاد والمجاهدين فقال الله تعالى : ﴿ هل أدلكم على تجارة تجيبكم من عذاب أليم * تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون * يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم * وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين ﴾ (٣) . والجهاد هو قتال الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأقواهم لا إكراه الناس على الدخول فى الإسلام ، لهذا كان أفضل ما تطوع به الإنسان . وقال — ﷺ : رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سامة الجهاد .
وقال رجل :

— يا رسول الله أخبرنى بشئ يعدل الجهاد فى سبيل الله .
— لا تستطيع .

— أخبرني .

— هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تصوم لا تفطر وتقوم لا تنعثر .

— لا .

— فذلك الذي يعدل الجهاد .

وقد ذكر الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت في رسالته في الإسلام والعلاقات الدولية في السلم والحرب : « إن الإسلام الذي يجيء عن طريق الإكراه لا قيمة له ولا كرامة لصاحبه ولا اعتداد به عند الله ، فهو يقول نفعون حين أدركه العرق وقال : ﴿ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنتُ بِهِ سُوِّ إِسْرَائِيلَ ﴾ ^(١) . حيث رد عليه تعالى بقوله : ﴿ آَلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ^(٢) وفي هذا المعنى يقول الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بُأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَرَّمَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ فلم يك يفعهم إيمانهم لما رأوا بُأْسَنَا سنة الله التي قد خلت في عبادته وخسر هنالك الكافرون ﴾ ^(٣) . وكذلك يقرر القرآن أن الله لا يقبل التوبة التي تبعث عن الإكراه أو بعد معاينة العذاب ، فيقول الله تعالى : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ ﴾ ^(٤) .

وخلص الأستاذ شلتوت إلى النتائج الآتية :

١ — ليس في طبيعة الدعوة الإسلامية من التعقيد والعموض والمشقة العقلية ما تحتاج معه إلى إكراه جلي وهو ما كان بالقوة المادية كالحديد

(٢) الصف ١٠ — ١٣ .

(١) يونس ٩١ .

(٤) النساء ١٨ .

(٣) غافر ٨٤ — ٨٥ .

والإكراه ، أو إكراه خفى بالحوارق الحسية التى تخضع لها الأعناق .

٢ — أن الدعوة الإسلامية أخذنا من كتاب الله لا نخالف سنة الله حيث ترك الناس وما يختارون لأنفسهم عن طريق الظفر والاعتصام .

٣ — أن الشريعة الإسلامية أخذنا من كتاب الله لا تبيح اتخاذ الإكراه وسيلة من وسائل الدعوة إليها .

٤ — أن صاحب الدعوة الإسلامية ليس مسئولاً أمام ربه إلا عن مهمة الرسالة التى بينها القرآن وهى التبليغ والإنذار ، وليس مطالباً بإيمان الناس حتى يسمح له بإكراههم والصف عليهم .

٥ — أن كتاب الله مصدر الدعوة الإسلامية لا يحترم إيمان المكروه ولا يرتب عليه آثاره يوم البعث والحراء ، فكيف يأمر بالإكراه أو يبيح اتخاذه وسيلة من وسائل الإيمان بهذه الدعوة ؟

لا مراء أن الناس قد دخلوا فى دين الله طائعين وأن الجهاد هو جهاد الظلم والعدوان والفتن ، فالفتنة أشد من القتل . ﴿ واقتلوهم حيث تقتلوهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين ﴾ فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم * وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين * الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين ﴿ (١) .

لقد زعم بعض المتعصين الذين أعمى الله قلوبهم التي في صدورهم أن الإسلام قد انتشر بحمد السيف ، وأعرضوا عن قول الله لنبيه وللمسلمين : ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ ^(١) . وقد قال الفخر الرازي في تفسير هذه الآية : « إن الله تعالى لما بين دلائل التوحيد بيانا شافيا قاطعا للمعذرة قال بعد ذلك إنه لم يبق بعد إيضاح هذه الدلائل عذر للكافر في الإقامة على كفره ، إلا أن يقصر على الإيمان ويحبر عليه وهو مالا يجوز في دار الدنيا التي هي دار عمل وابتلاء ، لأن في القهر والإكراه على الدين بطلان معنى الابتلاء والامتحان ومناطهما العقل » . فواقع التاريخ يؤكد أن الإسلام قام على الإقناع ، وأن النور الذي أنزل على نبي الإسلام عليه السلام قد بين للناس طريق الخير وطريق الشر : ﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا ﴾ ^(٢) . وترك للإنسان أن يختار طائفاً أحد النجدين : ﴿ وهديناه النجدين ﴾ ^(٣) . فإن اختار طريق الخير وحاهد العلوان والبغى كتب الله على نفسه نصره : ﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴾ الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور ﴾ ^(٤) .

وقد فعلن بعض المفكرين الأوروبيين إلى سحق دعوى انتشار الإسلام بالقوة ، فتوماس كارليل في كتابه « الأبطال وعبادة البطولة » تحدث عن محمد بن عبد الله — صلوات الله وسلامه عليه — فقال إن اتهامه بحمل الناس على الدخول في الدين الذي جاء به بالقوة والقهر سحق لا يقبله

(٢) الإنسان ٣ .

(١) البقرة ٢٥٦ .

(٤) الحج ٤٠ — ٤١ .

(٣) البلد ١٠ .

عقل ، فكيف يمكن أن يتصور أن يشهر رجل فرد سيفه ليقتل به الناس أو يستحيبوا لدعوته ؟!

ويقول ر . ف . بودلى فى كتابه « الرسول . حياة محمد » ، حديثه عن وقعة بدر : كان القرشيون أنفسهم سببا من الأسباب التى دفعت محمدا إلى الالتجاء للقوة ، إذ استمر عداء أنى جهل لمحمد فى درجة العليا ، فقد كان يغير على جماعات المسلمين المتحركة باستمرار ويقاثل أمة جماعة منعزلة يكمن لها ، وقد أغار على ضواحي المدينة وأتلف الزرع والحدائق فأظهر لمحمد أن شعوره لم يتبدل وأن هدفه لا يزال قتله ، فلم يكن هالك إلا حل واحد من وجهة نظر الجانبيين وهو القتال .

وما قر رأى محمد على ذلك حتى أقر مبدأ سيصبح عقيدة غير شرعية للمؤمنين ، فالجهاد مع أنه ليس فرضا دينيا سيقوم بما لا يقوم به شىء آخر فى سبيل حمل الإسلام إلى العالمين .

ولم يقدر محمد مدى الأثر البعيد الذى ستحدثه موافقته على اتباع ذلك السبيل فى معاملته للكافرين ، فإنه لم يجل أنه لم ير تطبيق قانون السيف كسياسة فى المستقبل ، لأن الدافع الأول لما هو مقبل عليه كان قبل كل شىء اليأس من قوم لم يطلب منهم إلا الإصغاء إليه ولم يلقى منهم إلا المهانة والاضطهاد . ويضاف إلى ذلك حاجته إلى كساء أنصاره وطعامهم وتسليحهم وإنجاد حلفاء جدد ، ولما كان محمد أعرايا قد سافر كثيرا مع رجال الصحراء فقد كان على ثقة من أن رجال القبائل قد يفهمون عقيدتهم أكثر لو أنهم علموا أنها تؤيد الحرب لحلب المغام .

انتقد محمد لهذا الجانب من تعاليمه ، عمه المؤرحون الذين تشعت

عقولهم بأنه « أفاك » كأنما كان أول من قصى بشرية الحروب الدينية .
والظاهر أن هؤلاء الرجال قد نسوا أن الدين كان السبب الرئيسي أو
السبب الثاني لشوب أكثر الحروب منذ العصور المتأخرة في القدم .

لو أن محمدا قد قرأ « العهد القديم » لوجد أن موسى قد أشعل حربا
مقدسة منذ ألفي سنة قبل أن تبدأ حروبه مع قريش ، ولو أنه استمر في
القراءة لوجد أن قصصة بنى إسرائيل وملوكهم لم يفعلوا إلا القليل بحساب
قتالهم في سبيل عقيدتهم ، ولسمع عن محارر تبعد قوائم ضحاياهم بجوارها
كصحايا الحوادث التي تقع في ميدان كرة القدم ، ولعلم أن العبرانيين
القدماء قد وصعوا قوانين للحروب الدينية لا تشابهها قوانين قديمة ولا
حديثة .

لم يكن محمد متعطشا للدماء لجرد التعطش للدماء ، فقد كان للأسير
المشرك أن يختار بين أن يدفع الجزية أو يدخل في الإسلام وإن القرآن
يقرر : ﴿ فإذا أسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم
وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة
وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم ﴾ (١) . ويقرر ﴿ لا إكراه
في الدين ﴾ (٢) .

فإذا ما اختار الأسير الإسلام أصبح له جميع الحقوق الروحية والدينية
التي للمسلمين الآخرين ، وإن هذا الإجراء ولا شك في مصلحة محمد ،
ولم يعرف عن محمد أنه انتقم لنفسه من أعدائه المهزومين .
ولو أنه جعل المثلة من تعاليمه لكان محافظا على عادات زمه وعلى ما كان

عليه المسيحيون في زمنه وبعد رسمه بكثير ، فإنه لما غزا الصليبيون الأرض المقدسة سنة ١٠٩٩ حلقوا وراءهم في كل مكان الموت والدمار ، ولكنه لما رد صلاح الدين الصليبيين على أعقابهم لم يلجأ إلى وسائل الانتقام ولم يحرب المسمون الممالك التي فتحوها كما فعل المقاتلون الدينيون السابقون هم من الممالك الأخرى ، فأبنا وضعوا أرجلهم بشئ جديد أسمى وأفضل مما كان قلا ، لقد كانوا كالغيث الذي يحصب المكان الذي يزل فيه .. وإن عصر الإحياء في أوروبا ليرجع إلى أحفاد صحابة محمد الدين حملوا مشعل الثقافة حين كانت أوروبا عارقة في ظلمات العصور الوسطى . لقد كان المجد الهندسي لدمشق وفارس وأشبيلية وقرطبة نتيجة غير مباشرة أنرا لما بدأه محمد عام ٦١٣ ميلادية .

وحد محمد ولا شك أن الحرب ضرورة ومجلبة للغنائم بعد ذلك ، ولكنه لم يكن أحد هؤلاء العرب المغيرين الذين كان حب الثأر طبيعة ثانية فيهم ، فلو أن قریشا أعطته نصف فرصة لشر ديه في أمان لما طرأت فكرة الحرب على خاطره .



كان بودلى قائدا عسكريا خاض عمار الحرب العالمية الأولى فراح يدافع عن حروب الإسلام بعقلية القائد ، يقيس الخروب التي خاضها المسمون بالحروب التي شنها الأنبياء من قبل والشعوب ولم يحاول أن يحمد نفسه بالتعمق في آيات القتال ليخرج بحقيقة لا جدال فيها ألا وهي أن محمدا — ^{صلى الله عليه وسلم} — وصحبه ما سلوا سيفا ولا شرعوا رمحا إلا في سبيل الدفاع عن النفس وتأمين الحريات العامة للمسلمين . والعقده الدولي الحديث يعتبر هذين النوعين من الحروب مشروعين دون غيرهما من حروب الفتح

والغزو والبهز والعدوان .

حقيقة أن يودى قد مس قيام المسلمين الأوائل للدفاع عن أنفسهم مسا رفيقا ، ولكنه وهو القائد الذى عاش الحرب العالمية الأولى قد خلط بين الدنيا والدين فجعل العالم هدفا من أهداف الحروب الإسلامية التى يسيل لها لعاب المسلمين ، ونسى أن الناس قد كرهوا القتال لما كتب عليهم لدفع عدوان الظالمين ، وأن الله تعالى قد خاطبهم بقوله : ﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم ﴾ (١) . كان المسلمون يقاتلون أقواما بدعوههم بالقتال فكان لا بد لهم أن يدفعوا الاعتداء بمثله وإلا فسدت الحياة فى الأرض وهدمت صوامع ويص و صلوات ومساحد يذكر فيها اسم الله .

ويقول « جيمس منشور » فى مقاله « احترت الدفاع عن الإسلام » : لم يحدث فى التاريخ أن انتشر دين بهذه السرعة ، فعند وفاة « محمد » سنة ٦٣٢ ميلادية كان الإسلام يحتل جانبا كبيرا من شبه الجزيرة العربية ، ولم يلبث بعد ذلك أن ضم إليها سوريا وبلاد القرس ومصر والنخوم الجنوبية لروسيا وامتد إلى شمال إفريقيا حتى بلغ مداحل أسبانيا . وفى الزمن الذى جاء بعد ذلك كان تقدم الإسلام باهرا . واعتقد العرب أن توسع الإسلام ما كان يمكن أن يتم لو لم يعتمد المسلمون إلى السيف ، ولكن الباحثين لم يقبلوا هذا الرأى ، فالقرآن صريح فى تأييده لحرية العقيدة . والدليل قوى على أن الإسلام رحب بشعوب مختلفة الأديان ما دام أهلها يحسنون المعاملة ويدفعون الجزية .

ويقول الأستاذ عباس محمود العقاد فى كتابه « حقائق الإسلام وأباطيل

حصومه : وشمول العقيدة الإسلامية هو الذى حقق للإسلام ما لم يتحقق لعقيدة غيره من تحويل الأمم العريقة التى تدين بالكعب المقدسة إلى الإيمان به عن طوعية واختيار ، كما آمنت به الأمم المسيحية والمجوسية والبرهمية فى مصر وسوريا وفارس والهند والصين .

ولقد عزى انتشار الإسلام فى صدر الدولة المحمدية إلى قوة السيف ، وما كان للإسلام يومئذ من سيف بصول به على أعدائه الأقوياء ، بل كان المسمومون هم ضحايا السيف وطرائد الغشم والجبروت . وإن عدد المسلمين اليوم من أبناء الهند والصين وأندونيسية والقارة الإفريقية يبلغ تسعة أعشار المسلمين فى العالم أجمع ، وما روى لنا التاريخ من أخبار العروات الدينية فى عامة هذه الأقطار ما يكفى لتحويل الآلاف المعدودة فضلا عن مئات الملايين من دين إلى دين .

ويقول الأستاذ المستشار على على منصور فى كتابه « الشريعة الإسلامية والقانون الدولى العام » : يذهب بعض كتاب القانون الدولى الأوربى وكثير من مؤرخيهم والمستشرقين منهم إلى أن محمدا هو الذى بدأ العدوان على قوافل قريش ، وتلقفوا بعض العارات من كتب السيرة وبوا عليها أن المسلمين صادروا الكثير من قوافلها . وعلى فرض صحة هذا القول — وهو ما لا أسلم به — أفلا يكون المسلمون على حق فى ذلك ما دما قد أثبتنا أنه عند هجرتهم كانت الحرب قائمة بينهم وبين قريش ؟ أو ليس القانون الدولى يبيح لمن يكون فى حالة حرب أن يعم من حصمه ما يستطيع خصوصا وقد علما أن ذلك الخصم أخرجهم من ديارهم وأموالهم وذريتهم وسائلهم بأن أكرهوهم على ذلك بالأذى والاعتداء والحصار وإعلان حرب المقاطعة ، ثم قتلوا بعض المسلمين واتفقوا على قتل

نبيهم وهو ما لا خلاف عليه ، ولم نجد أحدا من العرب والفرنجة إلا قال به ؟ ومع كون ذلك من حقوق المسلمين المشروعة في كل شريعة وفي قواعد القانون الدولي الحديثة ، إلا أن من يتبع الوقائع بإمعان في كتب السيرة بعد أن يقرأها من الحواشي والتعليقات يجد الأمر على ما قلنا من أن المسلمين لم يدموا العدوان بل كانوا يردون الاعتداء بمثله .

غزوة بدر لم يبدأ المسلمون بالاعتداء فيها بل كانوا يردون العدوان :
قلنا إن المسلمين كانوا يعيشون بالسرايا والبعثات لاستطلاع أخبار عدوهم الذي هو على حرب معهم . وكان اعتراض قافلة قريش الكبرى عام بدر لمثل هذا العرص ، ولنسلم أيضا عما يذهب إليه الرأي الآخر من أن المسلمين حين خرجوا إلى القافلة قصدوا الطفر بما فيها من مال قصاصا لما أخذ منهم من أموالهم ، وتساءل : أفلا يباح لهم ذلك ما دامت حالة الحرب قائمة بين الطرفين ؟ بل ما دامت الحرب معللة من جانب قريش وقائمة بينهما ؟ أظن أن الجواب : نعم .

ومع ذلك ماذا حدث ؟ لا خلاف بين الجميع من مسلمين وأوربيين ومستشرقين بأن السرية التي أرسلت لم تفر بالقافلة وكان يمكن أن يتسبب الأمر عند ذلك ، ولكن قريشا نادى بالقمير وخرجت من مكة بقضها وقصبيضا تغني المدينة محاربة المسلمين والقضاء عليهم في عقر دارهم التي هاجروا إليها . مهمل خرج المسلمون إلى مكة ليهاجروا قريشا ؟ كلا . فلم يكن موقف المسلمين إدد في عروة بدر إلا موقف اندفاع عس نفسه ، وكانت الحرب من حاسم حربا دفاعية لا هجومية .

كان جيش المسلمين في عدته وعدده ثلث جيش قريش ، ولما علم النبي بمقدم قريش خرج للقائها خارج المدينة فالتقى الجمعان في بدر ، وهي

أقرب للمدينة منها إلى مكة . وكان المسلمون يتعقبون الإبل لكل ثلاثة بعير بينما قدمت قريش بحيلها وخيلاتها .

وأخذ الرسول يسأل ربه النصر الذي وعده إياه ويقول : « اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض » . فصر الله المسلمين على قتلهم ودارت على أهل البغي والعدوان الدائرة وقتل من كبرائهم الكثير . ومع ذلك فلم يخرج المسلمون للقتال إلا بعد أن أذن الله لهم بذلك في أول آية نزلت من آيات القتال : ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ﴾ (١) . فأذن الله للمسلمين والترحبص لهم في الحرب كان معللا بأنهم يُقاتلون من قريش ، وأن القتال من جانب قريش كان ظلما وبغيا وعدوانا ولم يكن حربا مشروعة . وبقيّة الآية جعلت الكثيرين يذهبون إلى أن الإذن بالقتال جاء معللا بما وقع من قريش من إخراج المسلمين من ديارهم ، وهذه البقيّة تحرى كالاتى مع ما قبلها : ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ﴾ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ﴿ (٢) . والرأى عدى وهو ما أحتهد فيه أن عحر الآية جاء وصفا وبيانا للذين ظلموا فقال إنهم هم الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق ، وتبقى علة القتال في صدر الآية بأن غيرهم بدأهم القتال ظلما فلا بد لهم من رد هذا القتال دفاعا عن أنفسهم واتباعا لسنة الله منذ بدء الخليقة بأن يتعين عليهم دفع هذا الاعتداء بمثلته : ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ﴾ (٣) ، وزاد الله سبحانه في الآيات بما ثبت به عراهم

المعتدى عليهم حين أباح لهم هذا العدوان بقوله : ﴿ وليبصرن الله من يصره إن الله لقوى عزيز ﴾ الدين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور ﴿^(١) .

وقيل أيضا إن الآيات الآتية نزلت في قتال قريش وهي : ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾^(٢) .

ولقبح عهد هذا الجزء من الآية ونكرر قراءته حتى لا يخالطنا شك بأنها أمرت بأن يقاتل المسلمون من يقاتلهم . وعلى الرغم من وضوح المعنى في الحجة الأولى إلا أنه أراد توكيده بعبارة أخرى فقال ولا تعتدوا أى لا تبدعوا بالعدوان ولا تجاوروا في قتالكم الحد الكافي لرد العدوان ، وبؤيد هذا المعنى حديث الرسول حيث سبى عن قتل من ألقى سلاحه وأدبر ممن بدأونا بالقتال بقوله : « ولا تقتلوا مدبرا » . وأراد الله أن يستوثق على عباده في هذه الأوامر فأرجع الأمر إلى العقيدة فقال : ﴿ إن الله لا يحب المعتدين ﴾ . وتساعل بعض المسلمين عما إذا كان يحل لهم أن يطأوا مكة بعد أن نصرهم الله في بدر مع أن في مكة المسجد الحرام الذى لا يحل فيه قتال ولا بغى ولا ظلم وخصوصا وقد ورد في القرآن : ﴿ ولا يخرجكم شأن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا ﴾^(٣) . ومن راودته هذه العكرة كانت ردا على قدوم قريش إلى المدينة وحرب المسلمين في عقر دارهم ، فرد الله على هذا التساؤل بأن ذلك مباح للمسلمين على شرط أن يبدأ المشركون بالعدوان .

وعد ذلك في قوله تعالى : ﴿ واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم

من حيث أخرجوكم والعنتنة أشد من القتل ولا تقتلوهم عند المسحذ الحرام حتى يقتلوهكم فيه فإن قاتلوهكم فاقتلوههم كذلك جراء الكافرين * فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم * وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين * الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص ، فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم وانقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين ﴿١﴾ .

وهناك آية أخرى في سورة النساء سحلت استغاثة المسلمين الذين لم يقدروا على الهجرة من مكة حيث بلغ بهم الأذى والعدوان أن كانوا يسألون الله لإخراجهم من هذه القرية الظالم أهلها وجاء تسجيل هذه الاستعانة في قوله تعالى تسجيلا لا اعتداء قريش وتأيدا لما نزلت به آية الإذن بالقتال من إباحة رد الاعتداء بمثل ، ويجرى قوله تعالى : ﴿ وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لَدُنْكَ وليا واجعل لنا من لَدُنْكَ نصيرا ﴾ (٢) .

وإلى هنا لم يأذن الله للمسلمين بمحاربة أحد لإجباره على الإيمان ، ولم يأذن بحرب أحد من الجزيرة العربية سوى قريش لبدئها بالعداء والأذى ومحاربة الدعوة بكل الوسائل ومنها الحصار فالخرب وراح الأستاذ على على منصور يقرر أن غزوة أحد عدوان جديد من قريش وأنها كانت من جانب المسلمين حربا دفاعية عن النفس . وكان الإمام الثوري يقول : القتال مع المشركين ليس بفرص إلا أن تكون البداية

منهم ، وحيشذ يجب قتالهم بدلالة قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ فَاتَلَسَوْكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ﴾ (١) .

وذكر الأستاذ على على مصور أن عزوة الخندق استمرار لحالة الحرب المعلنة من جانب قريش وتحالف معهم فيها بقية القبائل والأحزاب ، وذكر أن حروب النبي الثلاثة لليهود كانت مشروعة في لعة القانون الدولي الحاصر لقضهم العهد ففة بعد الأخرى واعتدائهم على المسلمين .

كانت عروة الخندق دليلا قاطعا على تحالف المشركين في الجزيرة العربية وأهل الكتاب من اليهود على القضاء على الإسلام والمسلمين ، وأعلنوها حربا شاملة وجاءوا نحموهم إلى المدينة مردهم الله عنها وكفى الله المؤمنين القتال . وكانت آيات القتال قبل ذلك إدنا من الله بمحاربة قريش ردا لعدوانها ، أما بعد الخندق فتحتم أن يكون حرب المسلمين للمشركين في الجزيرة كافة لقاء ما بدعوا به . وقد أثبتت الحوادث التي قبل غروة الخندق وبعدها بأن منهم قوما مردوا على النفاق والفتنة ونقض العهود وتأليب القبائل على حرب المسلمين وهم اليهود ، ومن مشركي الجزيرة مر بدعوا بالعدوان وهم قريش طعنوا في الدين وبدعوا المسلمين أول مرة بالأدى والعدوان والإخراج من مكة بعد الحصار ، وبدعوا بأول حرب صد المسلمين . وها هي ذى عطفان وقبائل المشركين الأخرى بدعوا المسلمين بحرب الأحزاب والتحالف مع قريش بعد أن كانوا تاركين الإسلام وشأنه وتاركين للنزاع الذي بيه وبين قريش فكانوا محايدين بلعة العفه الدولي الحديث ، أما وقد تركوا حيادهم وحالفوا على قتال الإسلام مشركي

الحريرة فأذن الله بمحاربة المشركين كافة بقوله تعالى . ﴿ وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ (١) .
ويقول في سورة التوبة أيضا مشيرا إلى اليهود الذين مكثوا عهدهم وطعوا في دين الإسلام ، ومشيرا إلى قريش الذين هموا بإخراج الرسول ، ومشيرا إلى أن جميع الأحراب بدعوا بالحرب ضد المسلمين بقوله : ﴿ وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعوا في دياركم فقاتلوا أئمة الكفر إيمانهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون ﴾ ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدؤكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تحشوه إن كنتم مؤمنين ﴾ (٢) .

وفي سورة التوبة أيضا آيتان يوهم طاهر النص فيهما أنها أمر من الله بقتال من لا يؤمن بالله واليوم الآخر من أهل الكتاب ، وأمر بقتال الكفار أيها وجدوا ، وقال بذلك كثير من العقهاء أخذوا بطاهر النص وأولاهما قوله تعالى : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاعرون ﴾ (٣) . ويرد الأستاذ الأكر شيخ الأزهر الشيخ محمود شلتوت هذا الظن بما معناه أن الآية تأمر المسلمين باستمرار مقاتلة طائفة صفتها أنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر وهم الذين سبق أن نقضوا العهد وانقضوا على الدعوة . فعدم إيمانهم ليس سببا لقتال المسلمين لإيادهم بدلالة أن الآية في بقيتها أمرت بقتالهم حتى يعطوا الحرية علامة على الخصوع واشتركا في دفع المعقات العامة وأعباء الدولة ، ولو

(١) التوبة ١٢ — ١٣ . (٢) التوبة ٢٩ .

(٣) التوبة ٣٦

كان الكفر مسيا في قتالهم لحملت عاية القتال إسلامهم ولما سمع لما يقول الجزية منهم . فهم لا يقتلون نحر دأهم كمار بل لأهم نقضوا العهد وأعلموا الحرب علينا مرة بعد الأخرى فوجب الاستمرار على قتالهم حتى يعطوا الجزية .

أما الآية الثانية التي أثار كثير من اللبس فقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ ^(١) فظاهر النص فيها يوهم بأن المسلمين أمروا بقتال جميع الكفار أينما كانوا سواء بدعوا بالعداء والحرب أم لا . ويرد فضيلة الأستاذ الأكبر هذا الزعم أيضا بما معناه أن الآية جاءت إرشادا للمسلمين بنوع من نظام الحرب وهو ما يسمى اليوم بتكتيك الحرب ، وذلك أنهم إذا أرادوا حرب من بدعوهم بالحرب والعدوان من المشركين الدين أدوا بقتالهم كافة ، فيجب أن يدعوا بالحرب الأقرب حتى يحلوا طريقهم ويأمروا مفاجأة العدو من الخلف إن هم بدعوا بحرب الأبعد ، وهذه هي الطريقة المثل في الحروب العصرية أيضا وهي ما تسمى بعدم ترك جيوب عدائية خلف الجيش الراحف . وقد علق الأستاذ الأكبر على ما ذهب إليه الفقهاء من تفسير يخالف ذلك بقوله : « قد وقف بعض من يقصد الكيد للإسلام عند ظاهر الآية : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ ﴾ ، وزعم أن الدين الإسلامي يأمر بقتال الكفار عامة سواء أحصل منهم اعتداء أم لم يحصل حتى يؤمنوا ويدعونا بالإسلام ، وقالوا : وقد استقر الحكم في الشريعة على ذلك . والواقع أن المراد من كلمة الكفار في الآية ونظائرها المشركون

المحاربون الذين قاتلوا الإسلام والمسلمين واعتدوا عليهم وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم ووقموا فتنة للناس في دينهم وهم الذين تحدثت عن أخلاقهم الآيات الأولى من سورة التوبة .

وكذلك المراد من كلمة « الناس » الواردة بحديث : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإن قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم » . فإن الذي يتوقف على ما ذكر في الحديث هم مشركو العرب خاصة ، أما غيرهم فيكفى في انتهاء قتالهم أن يعطوا الجزية وبهذا تتفق الآيات مع بعضها ويجمع بينها وبين الأحاديث ويسقط مثل ذلك الزعم الباطل » .

وانتهى الأستاذ الأكبر الشيخ شلتوت إلى إيجاز بحثه في رسالته إلى الأمور الآتية :

١ — أنه لا توجد آية واحدة في القرآن تدل أو تشير إلى أن القتال في الإسلام فرض لحمل الناس على اعتناقه .

٢ — أن سبب القتال يحصر في رد العدوان وحماية الدعوة وحرية الدين .

٣ — أن الإسلام حبيبا شرع القتال نأى به عن الطمع والاستئثار وإذلال الضعفاء وابتغاء طريقا إلى الإسلام والاطمئنان وتركيز الحياة على موازين العدل والمساواة .

٤ — وأن الجزية لم تكن عوضا ماليا عن دم أو عقيدة ، وإنما هي دلالة الخضوع وكف الأذى والمشاركة في حمل أعباء الدولة .

وأضاف الأستاذ الأكبر أن ليس لأحد بعد هذا أن يفترى على الإسلام أو يسيء فهم آيات القرآن فيزعم ما يزعم الجاهلون من أن الإسلام قرر

القتال طريقا لدعوته ووسيلة للإيمان به ، وانتشرت تلك الدعوة على أساس من الضغط والجبر والإكراه .

ويقول الإمام تقي الدين بن تيمية : « إذا أراد العدو الهجوم على المسلمين فإنه يصير دفعه واحدا على المقصودين كلهم وعلى غير المقصودين لإعانتهم ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ اسْتَفْرَسَوا فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ ﴾ ^(١) . وكما أمر النبي — ﷺ — بنصر المسلم وسواء أكان الرجل من المرتقة للقتال أو لم يكن ، وهذا يجب بحسب الإمكان على كل أحد بنفسه وماله مع القلة والكثرة والمشى والركوب ، كما كان المسلمون لما قصدتهم العدو عام احديق ، ولم يأذن الله في تركه أحدا أذن في ترك الجهاد ابتداء لطلب العدو الذي قسمهم فيه إلى قاعد وحارح ، بل ذم الذين يستأذنون النبي — ﷺ : ﴿ يَقُولُونَ إِنْ بَيِّتُوا عَوْرَةً وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ ^(٢) .

ويقول الدكتور علي عبد الواحد وافي في كتابه « حقوق الإنسان في الإسلام » بعد أن تحدث عن الحرية السياسية في الإسلام والحرية الفكرية والحرية العلمية : « وعلى هذه الأسس السمحة النبيلة سار الإسلام حيال النوع الثالث من أنواع الحرية وهي الحرية الدينية وحرية العقائد ، فلم يلبث الإسلام أن استقر وتبييت للناس تعاليمه حتى قرر بهذا الصدد ثلاثة مبادئ هي أرقى ما وصل إليه التشريع الحديث بصدد حرية الأديان والمعتقدات :

أحدها أنه لا يُرغم أحد على ترك دينه واعتناقه الإسلام ، وفي هذا يقول

(١) الأنفال ٧٢ .

(٢) الأحزاب ١٣ .

الله تعالى : ﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من العي ﴾ ^(١) . وعلى هذا المبدأ سار المسلمون في حروبهم مع أهل الأديان الأخرى فكانوا يبيحون لأهل البلد الذي يفتحونه أن يبقوا على دينهم مع أداء الجزية والطاعة للحكومة القائمة ، وكانوا مقابل ذلك يحمونهم ضد كل اعتداء ويحرمون عقائدهم وشعائرهم ومعابدهم ، وفي هذا يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه في كتابه لأهل بيت المقدس عقب فتحه له : « هذا ما أعطى عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان ، أعطاهم أمانا لأنفسهم ولكائسهم وصلباهم لا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم » .

والمبدأ الثاني الذي سه الإسلام هذا الصدد هو حرية المناقشات الدينية ، ولذلك يصحح الله تعالى المسلمين أن يلتزموا حادة العقل والمنطق في مناقشتهم مع أهل الأديان الأخرى وأن يكون عمادهم الإقناع وقرع الخجة بالخجة والدليل بالدليل ، وفي هذا يقول الله تعالى مخاطبا رسوله عليه السلام : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ ^(٢) . ويقول مخاطبا أهل الأديان الأخرى : ﴿ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ ^(٣) . ﴿ قل هل عندكم من علم أفلا حرج لنا ﴾ ^(٤) . ﴿ قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات انبئني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين ﴾ ^(٥) .

(٢) البقر ١٢٥ .

(٤) الأنعام ١٤٨ .

(١) البقرة ٢٥٦ .

(٣) البقرة ١١١ .

(٥) الأحقاف ٤ .

وكان الخلقاء من مبي العباس وغيرهم يعقدون المجالس للمناقشات الدينية فيجتمع عندهم علماء كثيرون ينتمون إلى مختلف الطوائف وشتى الأديان والفرق ، فيتناقشون في شئون العقائد ويوازنون بين الأديان كل يدلي بحجته ويبين رأيه في حرية وأمن واطمئنان . ولم يكن الخلقاء يحتملون هذه المناقشات فحسب بل كانوا يشجعون عليها بمختلف وسائل التشجيع ويشتركون فيها بأنفسهم .

والمبدأ الثالث الذي وضعه الإسلام بهذا الصدد هو أن الإيمان الصحيح هو ما كان منبعا عن يقين واقتناع لا عن تقليد واتباع ، وبدلك حطم الإسلام القواعد التي قام عليها التدين في كثير من الأمم من قبله وهي قواعد التقليد والاتباع وإهمال الطر والتفكير الحر ، وأهاب بالأس أن يجعلوا عمادهم في عقائدهم وبشر دينهم الدليل العقلي والمنطق السليم ، ودعا إلى الطر والتفكير وحث على رفض ما لا يؤيده علم ولا يعززه دليل ، ومن ثم ذهب كثير من علماء التوحيد إلى أن إيمان المقلد غير صحيح ، وأخذ الله تعالى على المشركين تقليدهم الأعمى لآبائهم وإغفالهم جانب النظر والتفكير ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلِ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (١) . ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (٢) .

ويقول الإمام الشيخ محمد عبده : « إن التقليد يعبر عقل ولا هداية هو شأن الكافرين . وإن المرء لا يكون مؤمنا إلا إذا عقل دينه وعرفه بنفسه

حتى اقتنع به ، فمن رى على التسليم بغير عقل وعلى العمل — ولو صالحا — بغير فقه فهو غير مؤمن ، فليس القصد من الإيمان أن يذل الإنسان للحير كما يذل الحيوان بل القصد أن يرتقى عقله وترتقى نفسه بالعلم فيعمل الخير لأنه يفقه أنه الخير النافع الموصى لله ، ويترك الشر لأنه يفهم سوء عاقبته ودرجة مضرته .

ويقول ابن تيمية : في « رسالة القتال » في تفسير الآية : ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ ^(١) أنه نص محكم وجمهور السلف على ذلك ، وعلى أن لا يكره أحدا على الإسلام وإنما نقاتل من بدأنا بالحرب ، فإن أسلم عصم دمه وماله وإذا لم يكن من أهل القتال لا نقتله ولا نكره أحدا على الإسلام . وأصاف ابن تيمية : إنه من الثابت المقرر أن السبي — عليه السلام — قد أسر من المشركين فمنهم من فداه ومنهم من أطلق سراحه ولم يكره أحد على الإسلام ، ولو كان القتال لأجل الكفر ما كان لهؤلاء إلا السيف ، والقرآن خير المسلمين حين يتخون في الأعداء بين المأسرى أو العداء . ويقول الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة : اتفق جمهور من العلماء على أن الباعث على انتال هورد الاعتداء ، وقرروا أن ماسط القتال الاعتداء فلا يقتل شخص لكرهه إنما يقتل لاعتدائه على المسلمين أو على الإسلام . ورغم ذلك قرر بعض الشافعية أن سبب القتال هو الكفر رغم النصوص القطعية التي لا تقبل التأويل .

وكان — عليه السلام — يوصى أمراء الجند بتقوى الله وعن تعنتهم من الجند ثم يقول :

— اغروا باسم الله وفي سبيل الله ، اغروا ولا تقتلوا وليدا ولا امرأة ولا
تعدروا ولا تمثلوا ، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث
حصال فأيتهم أجابوك إليها فاقبل منهم وكف عنهم ، ادعهم إلى الإسلام
فإن أحابوا فاقبل منهم ، وإن أبوا وأرادوا البقاء على دينهم فاسألهم الجزية
فإن أحابوك فاقبل منهم ، فإن أبوا فاستعس بالله وقتلهم » .

ومصدر هذا القول أحاديث كثيرة منها ما أخرجه الإمام أحمد بن حنبل
عن ابن عباس : « اخرجوا باسم الله تقتلون في سبيل الله ، لا تعدروا ولا
تعلموا ولا تمسوا ولا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع » . ومما أخرجه
أبو داود عن أس بن مالك قول الرسول : « اطلقوا باسم الله وبالله لا
تقتلوا شيخا قانيا ولا طفلا صغيرا ولا امرأة ولا تعلموا وقسموا عاثمكم
وأصلحوها وأحسوا إن الله يحب المحسنين » .

ويقول الأستاذ علي بن منصور : « يجب أن نفهم هذه الوصايا ونغير
الأعداء بين نخصال ثلاث إما يكون في حرب مشروعة لنا بعد أن يبدؤنا
بالعداء والقتال ، والمقصود بالتحجير إعلامهم أولا : بأننا سنرد اعتداءهم
وقتلهم بحرب حتى لا يأخذهم على غرة . وثانيا : أن الإسلام لا يود إراقة
الدماء ولو لمعتد ، فإن كف عن عدائنا ودخل في ديار فهو ما وإن كف
عن العدوان ولم يرد إلا البقاء على دينه فله ذلك ما . ولكي يأمن من شره
يجب عليه أن يسرح جيشه ويلقى سلاحه وتتكفل الدولة الإسلامية
بالدفاع عنه وفي مقابل ذلك يدفع بعقبات الدفاع وهي الجزية . وقد أول
العص هذه الأحاديث عن النبي بأنها أمر بمحاربة الكفار ولو لم يبدؤوا
بعداء وهذا خطأ واضح » .

لم تكن الحرب أصل الصلة بين المسلمين وغيرهم من الدول ، وقد

سلكت الدعوة الإسلامية طريقها بالحكمة والموعظة الحسنة ، وكان السلم هو أصل العلاقة بين المسلمين وغيرهم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ ^(١) . فالأمر بالدخول في السلم واجب على المسلمين جميعا وبعبارة لا يتحقق إيمانهم بالله ، ومن أحل هذا السلم العالمى فإنه يكون قد عصى الله واتبع خطوات الشيطان . ويقول القرآن أيضا : ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْبَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ ^(٢) . والمعنى أنه لو بدأنا غيرنا بالاعتداء ، فرددنا الاعتداء مثله وحاربناه ففى أى وقت يباح العدو إلى السلم نباح معه ، وقال تعالى أيضا : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعَدَلَ اللَّهُ مَغَافِمَ كَثِيرَةً ﴾ ^(٣) . فمن سلمنا ولو كان غير مؤمن بديننا سلمناه فلا محاربة ابتغاء المعامم وعرض الحياة الدنيا . ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ فَإِنْ اعْتَذَلُواكُمْ فَلَمْ يِقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾ ^(٤) .

وكان عليه الصلاة والسلام يناهب للمجاهد على الدوام فيشجع على الرماية ويسر حيا يرمى شباب الإسلام يتعلمها ، روى البخارى عن سلمة ابن الأكوع رضى الله عنه قال :

— مر النبى — ﷺ — على نفر ينتصلون فقال : ارموا بى إسماعيل فإن أباكم كان راميا .
وقال — ﷺ :
:

(٢) الأنفال ٦٢ .

(٤) النساء ٩٠ .

(١) البقرة ٢٠٨

(٣) النساء ٩٤

— من علم الرمي ثم تركه فليس منا .
ولم ينس — صلوات الله عليه وسلامه — صاعاة الأسهم وأجر صاعها
فقال :

— إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة : صاعه يحتسب في
صعته الخير ، والرامي به ، ومبيله .

يبد أن رسول الله — ﷺ — لم يكن ليبدأ بالعدوان فقد أوحى إليه أن
الله لا يحب المعتدين ، فكان يقول لمن يوجه لقتال من اعتدوا عليهم :

— لا تقاتلوهم حتى تدعوهم للإيمان ، فإن أبوا فلا تقاتلوهم حتى
يقاتلوكم ويقتلوا منكم قتيلًا ، ثم أروهم هذا القتل وقولوا لهم هل لكم خير
من ذلك بأن تقولوا لا إله إلا الله ، فلأن يهدى الله على يديك رجلا واحدا
خير لك مما طلعت عليه الشمس وعمرت .

كان الإسلام يدعو الناس بالحكمة والموعظة الحسنة ، وما شهر سيفا
ولا صوب رمحا لقهر الناس على الدخول في دين الله ، وقد علمهم ربهم أنه
لا إكراه في الدين .

ولقد جاء في رسالة لسالارار الذي كان أسقفا لمانيلا عاصمة الفلبين
وضعها عام ١٥٩٠ منددا بالقوة التي يلجأ إليها المشركون الإسبان
والبرتغال فيقول :

— إن الوعظ والبدقية في يد الواعظ وسيلة سيئة للتبشير ، والوسيلة
المثل ما يتبعه الوعاظ المسلمون فقد جاعوا بغير سلاح مزودين برسالة
السلام والإيمان والوداعة والقوة الحسنة فاستقبلت الشعوب دين محمد
أحسن استقبال .

ويقول جييون :

— إن السلام الذي مشر لوائه بين المسلمين والمسيحيين أكثر من أربعة

قرون كان مؤسسا على تسامح الإسلام وتعاليمه نحو الخير والسلام .
وقد يقول قائل : إن القتال في أيام الرسول صلوات الله وسلامه عليه
— كان محرما حتى يقوم سبه وهو الاعتداء ، فما بال الحروب الطاحنة
التي نشبت بين المسلمين وبين الروم والفرس ؟
كانت عواطف المسلمين الأوائل مع الروم لأنهم في الأصل أهل دين
سماوى هو « الإنجيل » ، ولذلك حزنوا لما غلبهم الفرس وقال سادات
قریش للمسلمين :

— أنتم والنصارى أهل كتاب ونحن وفارس على دين واحد ، وهذا
دليل على أن ديننا هو الحق وأنا مستنصر عليكم .

وقد أنزل الله تعالى . ﴿ ألم * غلبت الروم * في أدنى الأرض وهم من
بعد غلبهم سيفلون * في بصع سين الله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ
يهرح المؤمنون * بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ﴾ (١) .

وقد راهن أبو بكر عتة بن ربيعة على ذلك ، وقد انتصر الروم على
الفرس وجاءت أنباء هذا الانتصار بعد أن انتصر المسلمون على كفار قریش
في بدر ، وكان ذلك سببا في غضب كسرى لما أرسل إليه السبي — سبي
— رسولا يدعو إلى الإسلام فإنه مزق الكتاب ولم يعترف بنبي الإسلام
عليه السلام رئيسا لدولة الإسلام ، بل اعتداه نائرا على المحوسية والوثنية
وأمر بأن يسمى إليه جيش على رأسه بادان حاكم اليمن من قبل فارس ليأتيه
برأسه ، فكانت الفرس هي البائدة بإعلان الحرب على نبي الإسلام
والمسلمين .

وقتل شرحبيل الفسافي الحارث بن عمرو الأزدي الذي يحمل كتاب الله إلى أمر بصري ، وليس هذا فحسب ، بل إن نصارى الشام ممن كانوا على الولاء للرومان قتلوا بعض من أسلم من القبائل المجاورة لها . ويقول الإمام ابن تيمية في رسالة القتال : « وأما النصارى فلم يقاتل النبي أحدا منهم حتى أرسل رسله إلى قيصر والمقوقس والجاشي وملوك العرب بالشرق والشام فدخل في الإسلام من النصارى وغيرهم من دخل ، فعمد النصارى بالشام فقتلوا بعض من قد أسلم ، فالنصارى هم الذين حاربوا المسلمين أولا وقتلوا من أسلم منهم بغيا وظلما ، فلما بدأ النصارى بقتل المسلمين أرسل محمد — ﷺ — سرية أمر عليها زيد بن حارثة ثم جعفر ابن أبي طالب ثم عبد الله بن رواحة وهو أول قتال قاتله المسلمون بمؤنة من أرض الشام ، واجتمع على أصحابه خلق كثير من النصارى قبل إهم مائة ألف ، واستشهد أمراء الجند رضى الله عنهم واحدا بعد الآخر فأخذ الراية خالد بن الوليد » .

وقال الأستاذ الأكبر الشيخ شلتوت في هذا الصدد في رسالة السلم والحرب ص ٦٦ : « بعد أن قتل شرحبيل رسول رسول الله عند مؤنة في الشام توقع متنصرة العرب أن المسلمين لا بد آخذون بهذا الثأر ، فحشدوا من الروم ومن نصارى العرب في الشام حشدا عظيما يستأصلون به شأفة محمد وصحبه . فلما علم الرسول بذلك جهز جيشا لحماية الدعوة ولتأمين المسلمين هناك على أنفسهم . وما كاد يصل جيش المسلمين إلى المكاء الذي قتل فيه رسوله وحامل كتابه حتى وجد حشد الروم فاشتبك الجيشان في قتال ، ولكثرة عدد الروم ونصارى العرب كاد يحاط بالمسلمين لولا مكيدة حربية ألهم الله بها خالد بن الوليد ، ما نجا من

المسلمين أحد . ثم تنابعت الأخبار بأن الرومان جمعوا جموعا عظيمة واعتمروا غزو المسلمين ، فتجهز السبي و حرح إليهم على حدود الحريرة الشمالية أى على حدود دولته . وما إن وصل إلى تبوك حتى تراجع جيش الروم واعدل عن عزمه ، فأقام الرسول تبوك أياما وصالح بعض الأمراء ثم عاد إلى المدينة .

وأثناء مرصه علم بتحجزهم من جديد ، فجهز جيشا تحت إمرة أسامة ابن زيد . ولما قضى الرسول عليه الصلاة والسلام أمر الخليفة الأول أبو بكر تسير هذا الجيش وتوالت بعد ذلك الحروب بين المسلمين والروم . كان الفرس الباطنيين بالعدوان وكان الروم الباطنيين بالعدوان ، فكانت الحروب بين المسلمين وبين الفرس والروم حروبا مشروعة للدفاع عن كيان الدولة الإسلامية ، ثم سارت بعد ذلك لحماية حق مشروع للدولة هو تأمين الدعوة وإخماد الفتنة ورد الاعتداء .

وماذا بعد صدر الإسلام ؟ يقول الأستاذ أبو زهرة : « إن الإسلام بعد أن طهر وانتشر وقاتل المؤمنون الأولون من اعتدى عليهم واستحلصوا الشعوب من الملوك والأمراء المستبدين بما نادى من حرية ومساواة وكفالة اجتماعية ، أخذ هؤلاء ينظرون إلى هذا الدين نظرة عداوة لأنه يحترم الفرد ويحرر الشعوب ويحمي الحريات ويقرر المساواة ، وتلك مبادئ لا تتفق مع الملكية المطلقة التي كانت سائدة في ذلك الزمان ، فنزع الملوك جميعا عن قوس واحدة وأخذوا يقاتلون المسلمين أينما كانوا وحينما وجدوا بكل الوسائل . فكان لا بد أن يقاتلهم المسلمون بما قرره القرآن : ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾ (١) ، وأن ذلك لا

يخالف الأصل المقرر الثابت وهو أن القتال في الإسلام محرم حتى يقوم سببه وهو الاعتداء .

وكانت وصايا الرسول عليه السلام وخلفائه الراشدين أمير وأرحم من كل ما يحتوى عليه القانون الدولي العام من نصوص بله آمال الفقهاء والحالمين ، فقد كان عليه السلام يوصي أمراء الجند بعدم الغدر والتشيل وقتل الولدان وأصحاب الصوامع ، وقد سار خلفاؤه الراشدون على سبته فأبو بكر يوصي أسامة بن زيد فيقول : « لا تخوبوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ، ولا تقطعوا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذهبوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا لما مأكلة ، وسوف تمرّون على قوم فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له » .

وأوصى يزيد بن أبي سفيان حين وجهه إلى الشام فراد على وصيته السابقة قوله : « ولا تقاتل محروحا فإن بعصه ليس منه . أقلل من الكلام فإن لك ما وعى عك ، واقبل من الناس علانيتهم وكلهم إلى الله في سرائرهم ، ولا تجسس عسكرك فتفضحه ، ولا تهمله فتفسده ، وأستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه » .

وكان عمر بن الخطاب يقول عند عقد اللواء لأمر الجند : « بسم الله . على عون الله امضوا بتأييد الله ، ولكم النصر بلزوم الحرب والصبر . قاتلوا ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ولا تحبنوا عند اللقاء ولا تمثلوا عند القدرة ولا تسرفوا عند الظهور ، ولا تقتلوا هرما ولا امرأة ولا وليدا ، وتوقوا قتلهم إذا التقى الفرسان وعند حمة النبضات وفي شن الغارات . نهوا الجهاد عن عرض الدنيا وأبشروا بالرباح في البيع الذي بايعتم به

وذلك هو الفوز العظيم .

أمر رسول الله ﷺ — بأن لا نقاتل غير المقاتل ، فنبى عن قتل النساء والشيوخ والذرية . وكتب إلى خالد بن الوليد : « إنه لا يصح قتل العسفاء (العمال الذين يزرعون الأرض ويرعون المواشى) » . وقال عليه السلام : « ليس ما من انته أو سلب أو أشار بالسلب » . وإن الإصراف في القتل مهيى عنه لأنه مجاوز للمحد الكافي لدفع العدوان . وهذا عمر بن الخطاب يملعه عدد القتلى الذين قتلهم خالد بن الوليد من جيوش الأعداء فيبوله الأمر ويعرله من قيادة الجيش ويولى مكانه أبا عبيدة بن الجراح ، ويقول عن عزل خالد : « إن في سيف خالد لرهقا » . ويستحسن عمر بن الخطاب طريقة اللين والرفق التي يتبعها عمرو بن العاص في حربه مع أهل مصر حيث ورع جيشه سرايا على القرى يعقدون المواعيد ولا يقاتلون ، فيقول عمر بن الخطاب في ذلك : « تعجسى حرب ابن العاص ، إنها حرب رفيقة » .

وإن خالد بن الوليد الذى كان في سيفه رهق كان إذا عاهد أعداءه بعد هزيمتهم لا يحيد عن روح الإسلام بل يعاهدهم في حرية وبلا تهديد ، يرحم ضعيفهم ويضع الحزبة عن فقيرهم بل يفرض له نفقة من بيت المال . ولنظر كيف عاهد أهل الحيرة بعد أن فتحها : « هذا ما عاهد عليه خالد ابن الوليد بقاء أهل الحيرة ورضى بذلك أهل الحيرة وأمرهم به وعاهدهم على مائة وتسعين ألف درهم تقل كل سنة جزاء على أيديهم في الدنيا رهباهم وقسمهم إلا من كان منهم على غير ذى يد حيبا عن الدنيا تاركا لها ، وعلى المعة وإن لم يجمعهم فلا شئ عليهم حتى يجمعهم . وجعلت لهم أئما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات .. إن كان غنيا اقتصر

وصار أهل ديه يتصدقون عليه طرحت حرينه وعيل من بيت المسلمين وعياله ما أقام بدار احجرة ودار الإسلام .

وهذا ما صالح عليه عمر بن الخطاب أهل بيت المقدس : هـ بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيليا من الأمان : أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكائسهم وصلاتهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها أنه لا تُسكن كائسهم ولا تُهدم ولا يُقصد منها ولا من خيرها ولا من صلهم ولا من شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بإيليا معهم أحد من اليهود .

وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الحرية كما يعطى أهل المدائن ، وعليهم أن يجرحوا منها الروم واللصوص ، فمن حرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يلعوا مأمهم ، ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية . ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويحلب بيوتهم حتى يلعوا مأمهم ، ومن كان بها من أهل الأرض فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من جزية ، ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع إلى أهله ، وأنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم ، وعلى ما في الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخنساء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية .

وكتب المستشرق الإنجليزى « ستيفن رانسمان » عن العوامل التى مهدت للفتوح الإسلامية : « تستطيع أن تقول إن السهولة التى لاقاها المسلمون فى استيلائهم على هذه المناطق التى استولوا عليها ترجع إلى ذلك الصعف الذى انتاب الإمبراطوريتين الرومانية والفارسية وإلى عدالة المسلمين فى حكمهم ، وأكبر دليل على ذلك أن البلاد التى فتحوها لم

يحاول أهلها رزحتهم بها وما ذلك إلا لأنهم وجدوا حكمهم أفضل من حكم من سبقهم . فعندما سمع المصريون عما يفعله المسلمون ببلاد الشام أيدوا كامل استعدادهم لقبول ما يجرى هناك وتموا أن يجعل المسلمون مهاجمة مصر ليخلصوهم من الظلم الذي يرزحون تحته .

وقد ذكر الكونت « هنري دي كاسترو » في كتابه « الإسلام خواطر وسواغ » : « إن حماس المسلمين للمسيحيين زادت في بلاد الأندلس حتى صار سكانها في حالة أهنا من التي كانوا عليها منذ أيام خضوعهم لحكم قدماء الجرمانيين الذين يقال لهم « القوط الغرييون » .

ويقول دوزي : « إن هذا الفتح لم يكن للأندلس مفر منه وما حصل من الاضطرابات والمزح بعده لم يلبث أن رال باستمرار الحكومة الإسلامية في تلك البلاد ، وقد أبقي المسلمون سكانها على دينهم وشرعهم وقضائهم وقتلهم بعض الوظائف حتى كان منهم موطعون في خدمة الخلفاء ، وكثيرون منهم تولوا قيادة الجيوش .

وتولد عن هذه السياسة الرحيمة أن انحاز عقلاء الأمة الأندلسية إلى المسلمين وحصل بينهم زواج كثير . وكم من أندلسي بقى على دينه ولكنه أعجبه طلاوة التمدن العربي فتعلم اللغة العربية وآدابها ... وأصبح القساوسة يلوموهم على ترك شعائر الكيسة والتعلق بأشعار الفاتحين .

وقال جوستاف لوبون في كتابه : « حضارة العرب » إن العالم لم يعرف فاتحا أرحم من المسلمين . وقال : « كان أول ما بدأ به ريتشارد قلب الأسد الإنجليزي أنه قتل أمام معسكر المسلمين ثلاثة آلاف أسير سلموا أنفسهم إليه بعد أن قطع على نفسه العهد بحقن دمائهم ، ثم أطلق نفسه العنان باقتراف القتل والسلب مما أثار صلاح الدين الأيوبي النبيل

(غزوة الحندق)

الذى رحم نصارى القدس فلم يسهم بأذى . والذى أمد فيليب قلب الأسد بالمرطبات والأدوية والأزواد أثناء مرضه . إن الهوة سحيقة بين تفكير الرجل المقدس وعواطفه — يقصد صلاح الدين — وبين تفكير الرجل المتوحش ونزواته .

ويقول يورجا المؤرخ الأوروبى فى كتابه : « تاريخ الحروب الصليبية : »
« ابتداء الصليبيون سيرهم على بيت المقدس أسوأ طالع ، فكان فريق من الحجاج يسفكون الدماء فى القصور التى استولوا عليها ، وقد أسرفوا فى القسوة فكانوا يقررون البطون ويبحثون عن الدماير فى الأمعاء . أما صلاح الدين عندما استرد بيت المقدس بذل الأمان للصليبيين ووفى لهم بجميع عهوده ، وجاد المسلمون على أعدائهم ووطأوهم مهادهم رافتهم حتى إن الملك العادل شقيق السلطان أطلق ألف رقيق من الأسرى ومن على جميع الأرمن وأذن للبطريك بحمل الصليب وزينة الكنيسة ، وأبيح للأميرات والملكة بزيارة أزواجهن . »

ويشيد يورجا بمخصال الملك الكامل حينما حاصر الصليبيين فى واقعة دمياط ، فقد نقل على لسان أحد الصليبيين الذين شهدوا المعركة شهادة صدق حيث قال : « هؤلاء الدين قتلنا آباءهم وأبناءهم ونساءهم بهتى الطرق وسلبناهم أموالهم وأخرجناهم من منازلهم عراة تداركونا وسدوا مخبتنا وأطعمونا بعد أن أهلكنا الجوع ، وما زالوا يحسنون إلينا حتى غمرنا ببرهم وإحسانهم لما كنا أسرى فى ديارهم وفى قبضة أيديهم ، فلو ضاع لأحدنا شيء لما أبطأ أن رد إلى صاحبه . »

وقال الأستاذ على على منصور فى كتابه « الشريعة الإسلامية والقانون الدولى العام » عد الحديث عن أثر الإسلام فى القانون الدولى العام

الأوربي : عقيدة التوحيد ولادة الفطرة التي فطر الله الناس عليها ﴿ صبعة ﴾ الله ومن أحسن من الله صبعة ونحن له عابدون ﴿ (١) ﴾ . ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ﴾ (٢) . وبارئ الكون كان ينزل من الأحكام والشرائع على لسان الرسل بقدر وبحسب حاجة من أرسل إليهم هؤلاء الرسل من طوائف البشرية . وكل الأديان التي سبقت الإسلام لم تكن عامة ، بل كانت محصورة بالمكان وبالقوم الذين نزلت عليهم كقوم هود ولوط ويونس الذي أرسل إلى مائة ألف أو يزيدون ، وشاركت كلها في الدعوة إلى الوحدةانية كأساس لكل عبادة ، ثم إلى قواعد أخلاقية وإصلاحية لمعالجة عيوب القوم الذين خصتهم بالخطاب ، إلى أن كان القرن السابع الميلادي حيث بلغت البشرية مبلغا من التقدم والرق وحسن الإدراك أهلها لتلقى خاتم الرسالات السماوية ، فكانت رسالة محمد بن عبد الله جامعة لخيري الدين والدنيا موجهة إلى جميع العوالم . ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ (٣) . ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ (٤) .

والمسيحية — على ما ورد في كتابها المنزل وهو الإنجيل — لم تتضمن تشريع أمور الدنيا ولا تنظيم المعاملات والعقود والعهود بين الأفراد والدول ولا تعداد ما في الكون من آيات طبيعية وعلمية ، وهي — وإن كانت قد وجدت بين دول أوروبا في العصور الوسطى وقربت بينها

(٢) الروم ٣٠ .

(٤) سبأ ٣٨ .

(١) البقرة ١٣٨ .

(٣) الأنبياء ١٠٧ .

وحسنت علاقاتها مما دعا إلى التعاطف ووضع قواعد لصلات دولية كانت الأساس للقانون الدولي الذى اصطلح عليه بين تلك الدول — إلا أنها انتهت بطغيان سلطان الكنيسة على سيادة الدول والإمارات ، والمفروض أن يكون روحيا فحسب ، الأمر الذى اضطر شعوب هذه الدول والإمارات إلى القول بفصل أمور الدنيا عن أمور الدين .

أما فى الإسلام فالأمر على عكس ذلك ، فهو نظام متكامل لا يمكن فصل قواعده بعضها عن بعض ، فهو دين ودنيا ولا يصح فى شرعة الإيمان الأخذ ببعض الكتاب « القرآن » دون البعض . وفيما نحن بصدد من دراسة قواعد القانون الدولي العام أتى الإسلام بنظام كامل لما يجب أن تكون عليه علاقات الدول بعضها ببعض فى حالتى السلم والحرب ، ولكن القرآن على نهجه فيما يخص بأمور الدنيا يكتفى بذكر الأصول العامة ثم يدع التفاصيل لاجتهاد العقل البشرى احتراماً لهذه المنحة الإلهية ومسيرة لطروف الزمان والمكان وما تقتضيه من خلاف فى الفروع .

ولقد أفاض فقهاء الشريعة الإسلامية فى كتب السير والجهاد وكتب التفسير فيما أتى به الإسلام من قواعد تحكم الصلات لا بين الدول الإسلامية فحسب بل بين جميع الدول فى حالتى السلم والحرب . من ذلك أن الإسلام مشتق من السلام وهو الأصل فى صلات الدول والشعوب ، والحرب وإن كانت ظاهرة طبيعية إلا أنه لا يلجأ إليها إلا عند الضرورة القصوى ، وهناك وجب إعلان الحرب وعدم أخذ الناس على غرة ، فإذا قامت الحرب فلا يصح قتل الشيوخ ولا الأطفال ولا النساء ولا المخارب إذا انهزم وأدير ولا قتل الأسرى ، بل أجاز الإسلام العداء وأجار المن ويدخل تحتها حواز تبادل الأسرى ، وحرم الإسلام المثلة « التمثيل بحث القتل »

ولم تكن الحرب في الإسلام لشهوة الفتوح والتوسع . اقرأ قوله تعالى : ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ﴾ (١) .

والرأى العالب أن القرآن لم يسمح للمسلمين بمقاتلة أعدائهم إلا بعد أن بدعوهم بالعدوان وبعد أن تكرر منهم هذا العدوان ، فالإسلام لم يبع الحرب الهجومية وإنما أباح الحرب الدفاعية . وأول آيات القتال نزولاً من الله على رسوله : ﴿ أدن للدين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ﴾ (٢) . ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ (٣) . ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ (٤) .

وليس بصحيح ما اتهم به الإسلام من أنه قام بحد السيف ، وآيات الكتاب في ذلك كثيرة : ﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ﴾ (٥) . ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وحادهم بالتي هي أحسن ﴾ (٦) . ﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ (٧) . ﴿ إن هو إلا ذكرى للعالمين * لمن شاء منكم أن يستقيم ﴾ (٨) . ﴿ فذكر إنما أنت مذكر * لست عليهم بمسيطر ﴾ (٩) . ولكن أمر الرسول بإبلاغ الدعوة

(١) القصص ٨٣ . (٢) الحج ٢٩ — ٤٠ (٣) البقرة ١٩٠

(٤) البقرة ١٩٤ (٥) البقرة ٢٥٦ (٦) الحل ١٢٥ .

(٧) يونس ٩٩ (٨) التكوين ٢٧ — ٢٨ (٩) العاشية ٢١ — ٢٢

بالحسنى إلى جميع الأمم وفي جميع بقاع الأرض : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَدَنِيُّ قُمْ
فَإَنْذِرْ * وَرَبِّكَ فَكْثِرْ ﴾ ^(١) . ﴿ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ ^(٢) .
وأمر المسلمين بعد رسولهم بإبلاغ الدعوة ونشرها بما للناس جميعا من
حق حرية إبداء الرأى : ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ
بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ ^(٣) .

فمن قاوم الدعوة — جماعة كان أم دولة — فقد أدخل بحق من أقدم
الحقوق وبدأ بالاعتداء ، فوجبت محاربته حتى يكف عن عدوانه عليها
ومحاربته لها .

فإن كانت للمسلمين العلية فللدولة المملوكة أحد أمرين : إما أن تدخل
في الإسلام فيكون لها ما لنا وعليها ما علينا من حقوق وواجبات في مساواة
تامة ، وإما أن تؤثر البقاء على دينها وتترك لدعاتها حرية الدعوة بالحسنى ،
فلها ذلك على أن تدفع الجزية مقابل ما تقوم به الدولة الإسلامية من الدود ،
ومشاطرة منها في المصروفات العامة للدولة . وهؤلاء هم أهل الذمة من
الشعوب والأفراد متى كانوا غير وشيين ، أى متى كانوا أهل دين سماوى
نزل بكتاب معين على رسول معين ولو حرفوه ، أو متى كانت لهم شبهة
كتاب ومثل هؤلاء المجوس فرغم أنهم يعبدون الشمس فقد ورد في حديث
على بن أبى طالب أنه كان لهم كتاب ، وروى عن الرسول ﷺ — قوله :
« سَنُوا بِهِمْ سُنَّةَ أَهْلِ الْكِتَابِ » .

هذا ولا يفوتنا أن نشير إلى أن قاعدة تأمين المبعوثين على أنفسهم حتى
يعودوا سالمين إلى من بعثهم من أمرائهم أو دولهم واحترام حرية السفراء

سبق الإسلام بها القانون الدولى الأوروبى : ﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون ﴾ (١) . ومفاد الآية أن من خرج من بلاده من المشركين وجاء رسول الله بالرحمة من قيام الحرب والعداوة فلا تقتله وأسمعه يا محمد كلام الله ، أى دعوة الإيمان ، فإن آمن فيها وإلا فله عليك وعلى المسلمين أن تردّه إلى وطنه سالما حيث يأمن على نفسه ، وهناك أيضا تكون له حرية الاختيار للدين الذى يتبعه . وقد اتبع صلاح الدين الأيوبي ذلك فى حربه مع الصليبيين « الفرنجة » إذ بالرغم من انتصاره كانوا إذا أرسلوا من يفوضه فى شروط الصلح أمنهم وردهم سالمين على عكس ما كان يفعل إذا دأب أمراء وملوك الصليبيين مع رسل المسلمين ومبعوثيهم إذ كانوا يقتلونهم ويقتلون أسرى المسلمين .

صور بعض فقهاء القانون الدولى وكتاب التاريخ فى أوروبا الإسلام فى صورة الدين الذى يقوم على القهر والغلبة وإرادة أن يفرض نفسه على الأجناس جميعا والأديان جميعا قوة واقتدارا ، وقالوا إن الإسلام قد أعلن الحرب على كل الأجناس والملل ، وإنه من المفهوم أن يفترى الأوروبيون على الإسلام أما أن ينساق كاتب عربى مثل الدكتور نجيب أرمنارى وراء مزاعم المستشرقين فهذا غير مفهوم .

يقول الأستاذ الدكتور نجيب أرمنارى فى كتابه « الشرع الدولى فى الإسلام » : « ذهب كثير من الفقهاء الذين عاشوا أيام الفتح الإسلامى إلى أن حالة الحرب هى القاعدة عند المسلمين ، وأن السلم ليست إلا هدنة

يستعد بها لاستئناف القتال .

ويقدر الأستاذ الدكتور : « وإذا وحّد الإمام الحريص على سلامة المسلمين ودفع الأخطار التي تهددهم ضرورة المعاهدة على مسلم دائم لم يجز له عند العقهاء أن يفعل ، لأنه إلعاء لمريضة الجهاد ، وكل موادة يعاقد عليها يستطيع نقصها إذا راعى قواعد البذ .

ويذهب الدكتور إلى أن التقسيم الإسلامي من حيث إن العالم دار سلام ودار حرب شبيه بالنظام الشيوعي . إذ تعتبر روسيا الوطن العام لكل شيوعي فهي دار سلام للشيوعيين ، وبقية بلاد العالم حيث الرأسمالية تعتبر دار حرب يجب اتحاد جميع الوسائل للانقضاء عليها والاستيلاء على مقاليد الحكم فيها .

وفي رأيي أن الدكتور قد جابه التوفيق حتى إذا ما اقتضى آثار فقهاء المسلمين الذين عاشوا الحروب الطاحنة التي دارت بين المسلمين والدول الأخرى في القرنين الثاني والثالث الهجري ، آيات القرآن الكريم تحض على السلم وتجعل السلم هو القاعدة ، والحرب لا تشرن إلا على المعتدين دفاعاً عن النفس وتأمين الحريات العامة للمسلمين .

إن نفراً قليلاً من كتاب الغرب عرف للإسلام حقه ومهم ما فيه من مبادئ قانونية دولية كانت مصدر معظم ما في القانون الدولي الحديث من قواعد ، فالبارون « ميشيل دي كوب » أستاذ القانون الدولي بمعهد الدراسات الدولية ببلهاى هولندا ذكر الكثير مما سبق للإسلام به القانون الدولي وعلى الأخص في نظم الحرب ، وأورد وصية أبي بكر لجنوده الخارجين إلى سورية وذلك في الجزء الأول من مجموعة دراسات سنة ١٩٢٦ لأكاديمية القانون الدولي ، كما أورد الأوامر التي أصدرها في قرطبة

الخليعة الحاكم بن عبد الرحمن في هذا الشأن سنة ٩٦٣ م أى قبل أن تعمل الكنيسة البابوية للسلام . ومنهم أيضا المؤرخ « سيديو » في كتاب تاريخ العرب حيث عدد الكثير من فضل الإسلام على الحضارة الغربية ، وعلى الأخص في القانون الدولى حيث عدد ما ذكره البارون « دى كوب » ونقل قوله : « وهذه هي مختلف القواعد الشرعية الإسلامية التي عمل بها لتخفيف وطأة الحروب من القرن السابع إلى القرن الثالث عشر للميلاد ، فهي إذن أسبق بأمد طويل على الأفكار والمبادئ القانونية المماثلة والتي بدأت تشق طريقها خلال الممحية التي استولت على الحياة الدولية الأوروبية خلال القرن الثالث عشر ، مما يدل على أثر القواعد الإسلامية في القانون الدولى الأوروبى » .

﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون ﴾ ^(١) . ﴿ وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا ﴾ ^(٢) . ﴿ إلا الدين عاهدتم من المشركين ثم لم يقصركم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين ﴾ ^(٣) .

القاهرة في ١٧ / ٤ / ١٩٦٩

المراجع

- القرآن الكريم
 الكتاب المقدس
 صحيح البخارى
 لابين هشام
 السيرة النبوية
 نهاية الأرب
 بلوغ الأرب
 تاريخ ابن خلدون
 تاريخ الأمم والملوك
 لطبرى
 حقوق الإنسان فى الإسلام
 للدكتور على عبد الواحد وافي
 السيرة الحلبية
 لعل برهان الدين الحلبي
 الشريعة الإسلامية والقانون الدولى العام
 للمستشار على عن مصور
 السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية
 لابين تيمية
 المستشرقون والإسلام
 المهندس زكريا هاشم زكريا
 إحياء علوم الدين
 للغزالي
 الدين القيم
 لأبى الأعلى المودودى
 نور الأبصار فى مناقب آل بيت النبى المختار
 للشيخ الشلحى
 أسباب النزول
 للواحدى
 الرسول . حياة محمد
 ر. ف بودى ترجمة : محمد محمد فرح
 وعبد الحميد جودة السحار

عمدة التفسير

لابن كثير

Islam the Religion of Humanity By M. Aly.

Muslim Institutions By Maurice Gaudet-Demombynes.

المراجع

لابن يوسف

الشرع الدولي في الإسلام — دمشق ١٩٣٠ م

للدكتور نجيب الأرماني

محمد رسول الله

والذين معه

في عشرين جزءا

- | | |
|-------------|---------------------------|
| أكتوبر ١٩٦٥ | ١ — إبراهيم أبو الأنبياء |
| مارس ١٩٦٦ | ٢ — هاجر المصرية أم العرب |
| سبتمبر ١٩٦٦ | ٣ — بنو إسماعيل |
| فبراير ١٩٦٧ | ٤ — العدنانيون |
| مايو ١٩٦٧ | ٥ — قريش |
| يولية ١٩٦٧ | ٦ — مولد الرسول |
| أكتوبر ١٩٦٧ | ٧ — اليتيم |
| يناير ١٩٦٨ | ٨ — شدة نجة بنت خويلد |
| مارس ١٩٦٨ | ٩ — دعوة إبراهيم |
| مارس ١٩٦٨ | ١٠ — عام الحزن |
| سبتمبر ١٩٦٨ | ١١ — الهجرة |
| نوفمبر ١٩٦٨ | ١٢ — غزوة بدر |
| يناير ١٩٦٩ | ١٣ — غزوة أحد |
| مايو ١٩٦٩ | ١٤ — غزوة الخندق |
| يولية ١٩٦٩ | ١٥ — صلح الحديبية |
| نوفمبر ١٩٦٩ | ١٦ — فتح مكة |
| نوفمبر ١٩٧٠ | ١٧ — غزوة تبوك |
| مايو ١٩٧٠ | ١٨ — عام الوفود |
| نوفمبر ١٩٧٠ | ١٩ — حجة الوداع |
| ديسمبر ١٩٧٠ | ٢٠ — وفاة الرسول |

المؤلف

الطبعة الأولى

أحمس بطل الاستقلال	قصة	مايو سنة ١٩٤٣
أبو ذر الغفاري		يوليو سنة ١٩٤٣
بلال مؤذن الرسول		مايو سنة ١٩٤٤
في الوظيفة	مجموعة أقاصيص	ديسمبر سنة ١٩٤٤
سعد بن أبي وقاص		يوليو سنة ١٩٤٥
هزات الشياطين	مجموعة أقاصيص	فبراير سنة ١٩٤٦
أبناء أبي بكر الصديق		أكتوبر سنة ١٩٤٦
الرسول (حياة محمد ترجمه مع محمد محمد فرج)		يناير سنة ١٩٤٧
في قافلة الزمان	رواية	سنة ١٩٤٧
أهل بيت النبي		مايو سنة ١٩٤٨
أميرة قرطبة	قصة	سنة ١٩٤٩
الغمام الأزرق	قصة	مايو سنة ١٩٥٠
المسيح عيسى بن مريم		سنة ١٩٥١
قصص من الكتب المقدسة		سنة ١٩٥٢
الشارع الجديد	رواية	سنة ١٩٥٢
صدى السنين	مجموعة أقاصيص	سنة ١٩٥٣
حياة الحسين		سنة ١٩٥٤
قلعة الأبطال	قصة	سنة ١٩٥٤
المستنقع	قصة	ديسمبر سنة ١٩٥٧
أم العروسة		يناير سنة ١٩٥٨
وكان مساء	قصة	مارس سنة ١٩٥٨
أذرع وسيفان	قصة	يوليو سنة ١٩٥٨

الطبعة الأولى

سنة ١٩٥٩	مجموعة أفاصيص	أرملة من فلسطين
سبتمبر سنة ١٩٥٩	رواية	الحصاد
سنة ١٩٦١		القصة من خلال تجارب الذاتية
أكتوبر سنة ١٩٦٢	قصة	جسر الشيطان
ديسمبر سنة ١٩٦٣	مجموعة أفاصيص	ليلة عاصفة
يناير سنة ١٩٦٤	قصة	النصف الآخر
يونيو سنة ١٩٦٥	رواية	السهول البيضاء
يوليو سنة ١٩٦٧		وعد الله وإسرائيل
يناير سنة ١٩٧٢	قصة	عمر بن عبد العزيز
أكتوبر سنة ١٩٧٢	قصة	الحفيد
فبراير سنة ١٩٧٥		هذه حياتي
أبريل سنة ١٩٧٥		مذكرات سينائية

القَصَصُ الدِّينِي

(للأطفال)

في ١٨ جزءا	قصص الأنبياء
في ٢٤ جزءا	قصص السيرة
في ٢٠ جزءا	قصص الخلفاء الراشدين
في ٢٤ جزءا	العرب في أوروبا